اللطيفة المرضية

بشرح

دعاء الشاذلية

تأليف العارف بالله

داود بن عمر بن ابراهيم الباخلي الشاذلي

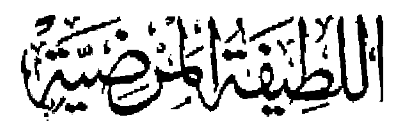
الشهير بـ داود بن ماخلا

المتوفى سنة ٧٣٣ هـ

تحقيق

د. محمد عبد القادر نصار

دار الذكر


اللطيفة المرضية



دارة الكرز

للنشـر والتـوزيع

دارة الكرز

للنشـر والتـوزيع

١٧ ش منشية البكري – مصر الجديدة

Darat al-Karaz,
17 Manshiyyat Al-Bakri St, Cairo

تليفون: ٠٢/٢٤٥٥١٣٠٤

موبايل: ٠١٤٥٨٥٠٧١١

Email: darkaraz@yahoo.com

الكتاب: اللطيفة المرضية بشرح دعاء الشاذلية

تأليف: العارف بالله داود بن ماخلا

الناشر: دارة الكرز

سنة الطباعة: ٢٠١١

بلد الطباعة: القاهرة، مصر

الطبعة: الأولى

رقم الإيداع: ٢٠١٠/٣٣٢٠

الترقيم الدولي: 978-977-462-032-4

اللطيفة المرضية

بشرح

دعاء الشاذلية

تأليف العارف بالله

داود بن عمر بن إبراهيم الباخلي الشاذلي

الشهير بـ داود بن ماخلا

المتوفى سنة ٧٣٣ هـ

تحقيق

د. محمد عبد القادر نصار

دار جوامع الكلم

بسم الله الرحمن الرحيم

حمدًا لك يا الله يا من أرسلت الرياح بشرى بين يدي رحمتك وجعلت الدعاء سببًا لظهور ما بطن من آثار قدرتك، وألزمتنا كلمة التقوى وكنا أحق بها وأهلها، فكانت مقارنة الرحمة للدعاء مقارنة عادة لا مقارنة تأثير، فأنت سبحانك خالق العادة، وأنت سبحانك خالق الدعاء، وأنت سبحانك خالق الآثار، بهذا نشهد والله على ما نقول وكيل.

وصلِّ اللهم وسلم وبارك على معلم الخلق آداب الدعاء وكيفيات الثناء وخواص الآيات ومعاني الأسماء، سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وآله وسلم مفتح مغاليق العلوم، وملقح الفهوم، ومحبوب الحي القيوم، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ما دعا داعٍ وسعى ساعٍ وقرأ الأحزاب ساهٍ أو واعٍ.

أما بعد

فتراث شرح الأوراد الصوفية والتعليق عليها تراث في غاية الخصب والثراء، وهو كغيره من مناحي الثقافة الإسلامية الأصلية مبعث فخر للأمة المحمدية، يشهد بما في هذا الدين المشرف من حق وحقيقة ومشارع مفتوحة على الرحمة الإلهية الاختصاصية التي لا تتيسر إلا لمن نظر الله سبحانه بعين الرضا والقبول والعناية والشمول.

ومن بواكير هذه الشروح هذا الشرح المنير لحزب البحر الشهير، بل لعله أبكرها على الإطلاق، هذا الشرح المنيف على حزب سيدي أبي الحسن الشاذلي ﷺ المعروف بحزب البحر، فلا يحضرني في هذا المقام أي شرح لورد من الأوراد الصوفية سابق على هذا الشرح.

وهذا التراث الضخم من شروح الأوراد الصوفية ما هو إلا نتيجة لانتشار تلك الأوراد وأخذها بمجامع القلوب عند أصحاب الأفئدة السليمة، وإعراض بعض المعترضين عليها ممن فاتهم فضل التسليم، فاشرأبت أعناقهم إلى منازعة أكابر أولياء الله فيما أفاض الله عليهم من فضلهم. فمنازعة الأولياء في مواهبهم التي امتنَّ الله بها عليهم إنما هي في الحقيقة منازعةٌ لله تعالى في تخصيصه بعضًا من الخلق بفضل مخصوص دون البعض الآخر ممن قد يكونون حصَّلوا من العلوم الظاهرة ما دَاخَلَه المكرُ الإلهي، فانقلب علمهم اغترارًا، وانفرط نظامُهم نثارًا.

وريادة هذا الشرح المبارك لا تقتصر على سبقه الزماني، بل تمتد إلى سماته كتأليف من حيث عمق المعالجة للقضايا التي يطرحها نسق الحزب أو يوردها عليه المعترضون. وقد أبان فيه العلامة اللغوي النحوي الفقيه المالكي الصوفي الشاذلي الأستاذ الكبير سيدي داود بن باخلا عن نفس طويل ونظر عميق في تناول قضيتين مهمنين في الحزب مما قد يعترض به على الحزب وقائله، وهما: قضية الاقتباس في القرآن، وقضية سؤال العصمة.

وقد جاءت معالجة سيدي داود قدس الله سره للقضيتين من الدقة العلمية والتوسع في التحري وتلمس الأدلة بحيث إن إماما جامعًا مثل الإمام جلال الدين السيوطي يعتمد على كلام الإمام في فتواه في المسألة في كتابه المعروف «الحاوي للفتاوى»[1].

---

(١) «رفع الباس وكشف الالتباس في ضرب المثل من القرآن والاقتباس» ضمن «الحاوي للفتاوي» ج ١ ص ٢٤٨. قال الإمام السيوطي في صفحة ٢٦٧: «ثم رأيت الشيخ داود الباخلي الشاذلي تعرض للمسألة في كتابه المسمى باللطيفة المرضية في شرح دعاء الشاذلية وبسطها أحسن بسط

كما أن صدر هذا الكتاب يحوي أول معالجة للشاذلية بوصفها طريقة وجماعة ذات خصائص وميزات تميزها عن غيرها من الجماعات والائتلافات. وعلى ما ذكره المؤلف ﷺ اعتمد غير واحد في تقريره مزايا تلك الطريقة. فنجد مثل هذا الاعتماد عند الشيخ عبد القادر بن مغيزيل الشاذلي في كتابه الفريد «الكواكب الزاهرة في اجتماع الأولياء بسيد الدنيا والآخرة»، وعليه اعتمد الشيخ محمد بن الحسن الكوهن في «طبقات الشاذلية الكبرى»، وعليه اعتمد العارف محمد بن مسعود الفاسي في «النفحات الربانية في تفضيل الطريقة الشاذلية»، وعليه اعتمد غيرهم.

ومن الإشكالات التي قد ترد على الحزب أو أورِدَتْ عليه فعلاً، سوى قضيتي سؤال العصمة والاقتباس، بعض العبارات الأخرى الواردة به، كقول الإمام الشاذلي: «كما سخرت البحر لموسى وسخرت النار لإبراهيم وسخرت الحديد لداود...»، وقد اعترض ابن تيمية على هذا الموضع كما اعترض على طلب العصمة من القواطع المانعة من مطالعة الغيوب وعلى غير ذلك باعتراضات سمجة تطفح بالتحامل وسوء الظن وعدم فهم الواقعة التي ألهم فيها الإمام الشاذلي بهذا الحزب الشريف. وهذه الاعتراضات أجاب عن كثير منها سيدي

فقال:...» ثم نقل الإمام السيوطي كلام سيدي ابن ماخلا «اللطيفة المرضية» نقلًا مطولًا استغرق عدة صفحات. ثم قال في آخره صفحة ٢٧٢: «انتهى جواب الشيخ داود الشاذلي بلفظه، وهو أحد أئمة المالكية وأحد محققي الصوفية، أخذ التصوف عن الشيخ تاج الدين بن عطاء الله، والعلوم عن الشيخ شمس الدين محمد بن يوسف الجزري شارح منهاج البيضاوي، وعن غيره من المشايخ، وله مؤلفات جيدة تؤذن بطول باع ورسوخ قدم وسعة اطلاع رحمه الله ونفعنا به». دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ٢٠٠٠.

داود ﷺ وأجاب عن بعضها الآخر سيدي أحمد زروق ﷺ في جوابه عن مشكلات حزب البر[1].

ولولا كلل الهمة وضيق الوقت وكثرة الشواغل لكانت هذه المقدمة جامعة لاعتراضات ابن تيمية وردود هذين الإمامين الجليلين عليها فضلًا عما قد يوفقنا المولى سبحانه له من الرد.

وعزائي أنني أنتوى إفراد ذلك برسالة مستقبلًا بإذن الله تعالى، فأدعوه متوكلًا عليه، طامعًا في فضله وكرمه أن ييسر لي ذلك بعونه وقدرته سبحانه.

العمل في التحقيق

حُقِّقَ هذا الكتاب الشريف على ثلاثة أصول: مطبوع ومخطوطين.

أما المطبوع فقد نشرته جمعية النشر والتأليف الأزهرية بتصحيح الأستاذ محمود حسن ربيع وبمقدمة في ترجمة المؤلف كتبها العلامة الأستاذ حسن محمد قاسم طيب الله ثراهما. وقد صدرت هذه الطبعة سنة ١٣٥٤ هجرية الموافقة لسنة ١٩٣٥ ميلادية. وقد جاءت الطبعة جيدة مفيدة لا تخلو من بعض أخطاء، ولم يشر الأستاذ ربيع إلى النسخ المخطوطة التي اعتمد عليها ولا إلى الناسخ ولا تاريخ النسخ. وقد رمزنا لهذه النسخة المطبوعة بحرف «أ».

وأما المخطوط الرئيس الذي اعتمدنا عليه فهو محفوظ بدار الكتب المصرية

---

(١) يصدر عن دارة الكرز للنشر والتوزيع في مجموعة رسائل للمؤلف تصدر كلها لأول مرة وتشمل: الكتاب المشار إليه وهو «شرح غوامض حزبي الشاذلي»، و«الجامع لجمل من المنافع والفوائد» و«نظم عيوب النفس».

تحت رقم٢١٣٣. وعدد أوراقه تسع وسبعون. وهي مكتوبة بخط نسخي عـادي. وهذه النسخة تحمل توقيع وخاتم أحد رجال الأسرة الوفائية الشاذلية هو سيدي أبو الأنوار وفا ﷺ. وسلسلة الوفائيـة إلى الإمـام الـشاذلي تمـر عـبر سـيدي داود مؤلف الكتاب. وتاريخ نسخ هذه النسخة هي سنة ١١٠٢ هجرية. واسم الناسخ علي بن إبراهيم البوتيجي ﷺ. وقد رمزنا لهذا المخطوط بالرمز «ب».

وثالث النسخ أي المخطوط الثاني فقد استعنا به في آخـر مراحـل مراجعـة الكتاب للكشف عن بعض المواضع التي بقيت غامضة. وهذا المخطوط به نقـص في بعض أوراقه. وعدد أوراقه المدون بالفهـارس ثـلاث وخمـسون ولكـن العـدد الفعلي ثلاث وأربعون، وهذا سقط بالمخطوط قلل من فائدته في موضـع أو اثنـين احتجنا إليه فيهما. ولم يحتوِ المخطوط على أي ذكر للناسخ ولا لتاريخ النسخ. وقـد رمزنا لهذا المخطوط بالرمز «ج».

وقد اشتمل تحقيقنا على خطوات معتادة تشمل:

- الترجمة لمؤلف الشرح دون صاحب الحزب؛ لاشتهاره وكثرة المؤلفات التي تترجم له انفرادًا أو مع أعلام الشاذلية الآخرين أو مع غيره من الأولياء العارفين. وقد اعتمدنا على ترجمة الأستاذ حسن قاسم التي تسد فراغًا كبيرًا في ترجمة هذا العارف وأضفنا إلى الترجمة ما استطعنا الوصول إليه أو استنتاجه من الموازنة بين التراجم والإشارات الواردة فيها.

- التعليق على بعض مواضع الكتاب بما يجلو غامضها أو يؤكد فائدتها.

- تخريج آي القرآن المجيد والحديث الشريف وكثير من الأقوال الـواردة في

الكتاب عن السلف الصالح أو عن شيوخ المؤلف في الشاذلية خاصة صاحب الحزب الإمام الشاذلي.

- الترجمة للأعلام الوارد ذكرهم في ثنايا الشرح مع ترك ما اشتد اشتهاره وسهل الوصول إليه من تراجم بعضهم.

- فصل نص الحزب عن الشرح بقوسين هلالين وبجعل نص الحزب بالأسود الثقيل.

- وضع عناوين فرعية لمباحث الكتاب وفوائده.

- كتابة بعض المواضع المهمة التي تحوي فوائد فريدة بلون أسود ثقيل.

- ترقيم الشرح ترقيمًا حديثًا.

- تشكيل الكثير من الكلمات التي قد تسبب لبسًا.

- شرح معاني بعض الكلمات الصعبة.

- وضع قائمة بالمراجع المستخدمة في التحقيق.

عنوان الكتاب

ورد الكتاب في الأصلين الأولين «أ» و «ب» بعنوان: «اللطيفة المرضية بشرح دعاء الشاذلية» وفي الأصل الثالث «ج» بإبدال حرف الجر «في» بدل «بـ» فاعتمدنا ما في الأصلين الأولين، وهو الصواب بإذن الله تعالى، فضلاً عن موافقته تسمية الإمام السيوطي له في «الحاوي» في رسالة «رفع الباس وكشف الالتباس».

وفي ختام هذه المقدمة ندعوه تعالى دعاء الأذلاء الضعفاء المفتقرين إلى عطفه

ولطفه وكرمه أن يمتعنا بالصحة والعافية ما حيينا وأن يجعله في ميزان حسناتنا وأن ينفع به وبصاحبه أمة سيد الخلائق سيدنا ومولانا صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفقير لعفو ربه الكريم

محمد عبد القادر نصار النقشبندي الجودي

رضي الله عن مشايخه وعفا الله عنه وعن والديه

وأصحاب الحقوق عليه



بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين وصلى الله على
سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم
الحمد لله الذي نور قلوب العارفين بنور
معرفته وشغلها بشهود عظيم جلاله وجماله
[illegible] وعمرتهم بقدرته وقربهم
اليه فشاهدوا [illegible] وخاطبهم بحسنات
القرب وكساهم حلل توفيقه وكرامته وجعلهم
بعد انبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام
[illegible] كلامهم شفا ونظرهم
لارباب القلوب دوا وجعلهم والين به عليهم
[illegible]
[illegible] لضبط الآثار [illegible]
[illegible]
[illegible] وكلامهم وحفظهم
[illegible]
[illegible] كما قال تعالى
الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون
وصلى الله وسلم على [illegible]
[illegible]
[illegible]

وعلى ازواجه وذريته وآله وصحابته وسلم
كثيرا اما بعد فان [illegible] المشهور
المهموم بكتب العلوم [illegible]
للطائفة الجليلة [illegible]
بفضله وكرمه [illegible] التوفيق [illegible] اسمه
تعالى في الارض وكثرة [illegible] وقرئ
في المساجد والجوامع واعتني به في الاماكن والمواضع
واستمع [illegible] الناس اليه ومنهم السالم والجاهل
والمستيقظ والغافل والمحب المعتقد والمبغض
المنتقد ومن لم يعلم مقدار هذه الطائفة ولا ذاق
شيئا من شربها وكرع من منهلها العذب ولا كلف
بحبها فربما سمع اللفظة الغريبة العربية
والاشارة العجيبة الصوفية او النكتة المهمة
الخفية وربما استغرب ذلك عليه [illegible]
بعض الفاظه [illegible]
[illegible] الاعتقاد ودليله وبرهانه لكن كانت
[illegible] الى الانكار [illegible]
ضعيفا يحتاج الى [illegible]
[illegible] والاشارة الى [illegible]
بيان ظواهر الفاظه من حيث العلم الظاهر واللسان
لا من حيث التحقيق [illegible] العرفان لان ما [illegible]

وعلى

كتاب

اللطيفة المرضية

بشرح حزب الشاذلية

للشيخ الإمام العالم العلامة الشيخ داود الشاذلي المعروف

بابن ماخلا تغمده الله برحمته وأعاد علينا من بركته

آمين

طبع

(على نفقة)

جمعية النشر والتأليف الأزهرية

بحارة [illegible] رقم ٧ بالغورية بمصر

سنة ١٣٥٤ هـ — سنة ١٩٣٥ م

الطبعة الأولى

مطبعة جمعية النشر والتأليف الأزهرية

ترجمة سيدي داود بن ماخلا

رضي الله تعالى عنه وأرضاه[1]

للأستاذ حسن محمد قاسم رحمه الله

هو داود بن عمر بن إبراهيم بن عبد الله الشاذلي الكهاري المعروف بابن ماخلا المالكي، نزيل الإسكندرية، إمام من أئمة المالكية الراسخين، ترجمه كمال الدين الشمني في تاريخ علماء الإسكندرية، والسيوطي في بغية الوعاة، وبابا السوداني في نيل الابتهاج، وابن مخلوف في طبقات المالكية، والشيخ الكوهن في طبقات الشاذلية، وابن مسعود الفاسي في الفتوحات الربانية، والشعراني في الطبقات الكبرى، والمناوي في طبقات الصوفية، والسيد مرتضى[2] والبكري[3] وخلق.

حاله

تفقه على مذهب إمام دار الهجرة مالك بن أنس رضي الله عنه، وبلغ فيه رتبة الاجتهاد، وصنف تصانيف دقيقة سيأتي هنا ذكر البعض منها، وكان في بادئ أمره يدرس بالمدرسة الكهارية بالقاهرة وإليها نسب، وهي المعروفة اليوم بجامع الجودري بالجودرية الصغيرة[4] المدفون بها السيد الشريف عمر بن إدريس بن

---

(١) التعليقات على الترجمة الواردة بالحواشي التالية هي للمحقق.

(٢) أي السيد محمد مرتضى الزبيدي الحسيني، ولعله ترجم له في كتابه «إزالة الخفا عن كنى سادتنا بني الوفا» لكونه شيخ عميد الأسرة الوفائية سيدي محمد وفا رضي الله عنه.

(٣) لعله يقصد السيد محمد توفيق البكري بترجمته لسيدي داود في كتاب «البيت الوفائي».

(٤) قد دخلت هذا المسجد الشريف وسألت عن مقام سيدي عمر بن جعفر الزكيّ التالي ذكره فقال

جعفر الزكي بن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين عليهم السلام.

ثم انتقل منها إلى الإسكندرية فصحب الشيخ أبا العباس المرسي وحضر دروسه ومواعيده فحبب إليه علم التصوف فبلغ فيه مرتبة عليا، وبعد وفاة المرسي لزم تلميذه ياقوت العرشي، وتخرج به وبالتاج ابن عطاء الله السكندري وإليه نسب وبه تربى وتهذب وتكمل وتأدب، وكان مع تجرده عن الدنيا باطنًا لم يتجرد عنها ظاهرًا؛ فكان وهو في الإسكندرية يدرس بمسجد بدر الدين الجمالي (العطارية) فإذا خلا من الدرس ذهب إلى المحكمة الشرعية إذ كان حاجبًا ثم رقي إلى كاتب جلسة ومازال عليها إلى أن توفي.

ولعمر الحق إن الطريقة الشاذلية التي أسسها الإمام أبو الحسن علي بن عبد الله الشاذلي ما استأثرت على باقي طرق الصوفية إلا بهذه الميزة" لأن الإسلام هو الدين العام الخالد الصالح لكل زمان، وكان وهو دين الإسلام والعمل، فالطرق التي تلزم مريديها بالتجرد من الدنيا وعن الأسباب والمسببات تلك هي عين الخطط التي استعملها صوفية الهند البوذيين قبل الإسلام، والإسلام مباين

رواد المسجد إنه بجوار المنبر الخشبي الموضوع في ركن المسجد. والمسجد، المدرسة سابقاً، مجدد، ليس فيه من البناء القديم فيما أذكر إلا الرخامتين الموضوعتين في مدخله تشيران إلى تاريخ بنائه ودفن السيد عمر بن جعفر رضي الله عنه به. ويمكن الوصول إليه من خلف مديرية أمن القاهرة بباب الخلق أو من شارع بيبرس من جهة شارع الأزهر على يمين الذاهب من شارع بور سعيد لشارع الأزهر، ويقع المسجد كذلك بالقرب من مقام سيدي عثمان الديمي ومن زاوية سيدي عثمان الحطاب المترجم له بطبقات سيدي عبد الوهاب الشعراني ﷺ.

لهذه الخطط؛ لعدم صلاحيتها للمجتمع، ولقد فرغت من الدليل على هذا في كتاباتي العديدة فتراجع.

مؤلفات صاحب الترجمة

أما تآليفه فقد تكون كثيرة[1]، وغالبها في الفقه والنحو واللغة والتصوف، فمنها «مختصر التلقين» لإمام المالكية القاضي عبد الوهاب، و«مختصر الجمل» للزجاجي في النحو وكتاب في المعاني والبيان، وكتاب «عيون الحقائق»[2] في التصوف أودعه سائر ما فتح به عليه من رموز القوم وإشاراتهم وآدابهم إلى غير ذلك، وقد اختصره العارف عبد الوهاب الشعراني[3]، وكتاب «اللطيفة المرضية في شرح دعاء الشاذلية» وهو هذا الكتاب، وقد يكون هذا الكتاب من أنفس ما وصل إلينا من تراثه إذ تتجلى فيه مواهبه وما أفيض عليه من عوارف ومعارف، ولا غرو فهو أول من فض بكارة هذا الشرح واستطاع أن يعرض لنا الكثير من أسرار حزب البحر الذي وضعه الإمام أبو الحسن الشاذلي زعيم السادة الشاذلية ﷺ، وبين لنا فضائله وسبب وضعه وما ترتب على ذلك.. الخ مما سيراه متناول هذا الأثر القيم.

---

(١) مما لم يذكر الأستاذ حسن قاسم كتاب للمؤلف في الزيارة النبوية لعله سبق به كتاب «شفاء السقام» للإمام تقي الدين السبكي الشافعي المتوفى سنة ٧٥٦، وقد اشترك هو وسيدي داود في الأخذ على العلامة شمس الدين محمد بن يوسف الجزري شارح «المنهاج» للقاضي البيضاوي المتوفى سنة ٧١١ وعلى مولانا تاج الدين بن عطاء الله السكندري المتوفى سنة ٧٠٩.

(٢) نشر بتحقيقنا بدارة الكرز.

(٣) أي في كتاب «الطبقات الكبرى» في ترجمة سيدي داود بن ماخلا.

فضل حزب البحر وخواصه

وقد يكون لهذا الحزب خواص قلَّ أن توجد في غيره لاشتماله على ما ضم فيه من الآيات القرآنية، وقد جمع بين إفادة العلم وأدب التوجه وتعريف الطريقة وتلويح الحقيقة وذكر جلال الله تعالى وعظمته وكبريائه وذكر حقارة النفس وخستها والتنبيه على خدعها وغوائلها.. الخ مما هو معروف عن كل أحزاب الشيخ ﷺ، وقد لا يقر بعض مجددي هذا العصر المتلبسين بضروب من التجديد الزائف قراءة هذه الأحزاب ويردونها ردًّا شنيعًا بلا سند ولا دليل غير التقليد الممقوت، وعامة الأمة لا تقرهم على إقرارهم هذا بحال من الأحوال، وقد نقرهم في غير أحزاب الشيخ الشاذلي إذ حسْبُنا شهادة العلماء بها وبموافقتها لنصوص الشريعة الغراء، وقد لا تمكنني الإفاضة في الكتابة عن هذه الناحية، ولتراجع مقدمات الشيخ زروق في شرحه لهذا الحزب وهو إمام ناهيك به من إمام، وتراجع أيضًا الأحاديث والأدعية التي قالها صلى الله عليه وآله وسلم وأمر بها في الصحاح والسنن.

اعتناء الأمة بهذا الحزب

وقد اعتنت الأمة بأمر هذا الحزب قديمها وحديثها فشرحه غير واحد في طليعتهم هذا الشرح وشروح الشيخ زروق الثلاثة، أحدها مسمى بـ«مفاتيح العز والنصر في التنبيه على ما يتعلق بحزب البحر»[1]، فرغ من تأليفه في خاتمة جمادى الآخرة سنة ٨٥٠هـ[2] بمنية ابن خصيب (المنيا) بصعيد مصر «مخطوط بمكتبتنا

(١) وهو الشرح المشهور المطبوع ولم أقف حتى الآن على شرح آخر.

(٢) كذا بالأصل والصواب: ٨٩٥ كما هو مدون في آخر الشرح. هذا فضلاً عن أن عمر سيدي

تصوف ٤ ٦٥٤»، وشرحه الشيخ عبد الرحمن الفاسي أحد المبرزين من أسرة بني الجد الفاسيين بفاس، وشيخ زاده (بالتركية) وأبو المحاسن القاوقجي وأبو الهدى الصيادي في آخرين(١).

قراءة هذا الحزب

المشهور عن السادة الشاذلية قراءته بعد عصر كل يوم، بهذا أفاد ابن عطاء الله في لطائف المنن وابن عباد في المفاخر، وعن السادة الفتحية(٢) غير مقيد بوقت، بل كان أستاذنا ﷺ يحض على قراءته في جل الأوقات لاسيما دبر كل صلاة مفروضة لمن يتيسر له أو في الصباح مرة وفي المساء كذلك، والقارئ مجتهد في ذلك والله تعالى أعلم.

وفاة الشيخ داود

توفي صاحب الترجمة ﷺ بالإسكندرية عام ٧٣٣هـ، ودفن بزاويته التي أسسها له أصحابه وقبره بها إلى هذا التاريخ ظاهر يزار، بشارع تاج الدين العادلي ويعرف عند شيوخ الإسكندرية بسيدي داود الباخلي وبعضهم يقول داود العزب(٣) وهو خطأ واضح.

زروق في التاريخ المذكور أعلاه كان ست سنوات فقط.

(١) وشرحه كذلك شمس الدين محمد ابن قرقماس الحنفي والشيخ الأزميري والشيخ عبد الرحمن البسطامي رحمهم الله تعالى، كما شرحه سيدي مصطفى البكري الخلوتي ﷺ.

(٢) نسبة إلى الشيخ فتح الله البناني الشاذلي عم الأستاذ حسن قاسم رحمهما الله، كما تقدم

(٣) والعزب هو سيدي بن مرهف العزب التفهني الكائن مقامه بـ:بنا العزب بمركز زفتى بمحافظة الغربية شمالي القاهرة. وله ترجمة في طبقات المناوي منقولة عن ترجمة شمس العارفين

تخرج به جمعٌ كثير من العلماء والفقراء وغيرهم من أجلِّهم السيد محمد وفا القرني عميد بيت السادة الوفائية الحسنية(١). اهـ.

سيدي عبد الوهاب الشعراني ﷺ. وسيدي داود العزب من أجلِّ مَنْ أخذ عن سيدي أبي السعود ابن أبي العشائر الواسطي ﷺ مع سيدي شرف الدين الكردي المدفون بشارع الحسينية بالقاهرة ﷺ. وهو أحد المعظمين عند مشايخنا خاصة وكان لقطب زمانه سيدنا الشيخ جودة إبراهيم النقشبندي ثم لسيدنا الشيخ عيسى جودة وسيدنا الشيخ محمد أبي اليزيد المهدي ثم لولده شيخنا سيدي الدكتور جودة أبي اليزيد المهدي ﷺ اعتناء بزيارته ومواظبة. وقد زرته ﷺ في صحبة سيدي الدكتور جودة المهدي كثيرًا. نفعنا الله به.

قال الحافظ السخاوي في «البلدانيات» عند ذكر تفهنا: انتسب إِلَيْهَا جَمَاعَة أشهرهم: الشَّيْخ دَاوُد العزب، هُوَ: ابْن مرهف بْن هبة، أحد عباد اللهِّ الصالحين، وأوليائه المقربين، مَات فِي جمادى الآخرة سنة ثمان وستين وست مئة، وقبره بِهَا ظاهر يزار، ويتبرك بِهِ، ويقصد بالنذور والقربات. وَقَدْ زرته، ورجوت حصول القبول، وبلوغ المأمول إن شاء اللهّ تَعَالَى. انتهى. وقوله: «يقصد بالنذور» أي يقصد ضريحه المنير بتوفية نذر الله عنده لا أنه هو المقصود بالذبح. فالذبح لله تعالى ومحل الوفاء ما جاور سيدي داود ﷺ.

(١) المتوفى سنة ٧٦٥. وللأسف خلت المصادر من ذكر هؤلاء التلاميذ باستثناء سيدي محمد وفا إلا أن تكون أوردت تراجمهم دون أن تذكر تسلكهم بالشيخ داود ﷺ. جاء في رحلة البلوي فيمن لقيهم بمصر من الشيوخ والعلماء: «ومنهم الأثير النايل، الكثير الفضائل، الشيخ الإمام، القدرة تاج الدين أبو محمد عبد الوهاب بن هبة الله بن احمد المقدسي الأنصاري الشافعي نفع الله تعالى به، ذو الرياسة العلية والسياسة العلمية، والمراتب السنية والمناقب السرية والهمم البعيدة الزكية، والشيم الرضية المرضية وأفضل الفضلاء بقطر الإسكندرية» ثم قال البلوي بعد ذلك: «ومما قرأته عليه بلفظي كتاب «عيون الحقائق» تأليف شيخه العالم الكبير الشهير الولي لله تعالى أبي سليمان داود الشاذلي نفع الله ببركته وهو ديوان عجيب من أحسن ما جمع في علم التصوف ومن أصل شيخي الذي بخطه البارع نقلت أصلي منه ومعه قابلته وعليه صحته، حدثني به عنه قراءة عليه ومما أسمعني من لفظه جميع

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم»(١).

إشارات أخرى في ترجمة سيدي داود بن باخلا ﷺ:

وكنت قد كتبت هذا الفصل في مقدمة تحقيق كتابه الماتع «عيون الحقائق» ولأن ما في الترجمة لا ينبغي أن يغيب عن القارئ ولعله لا يطلع على الكتاب الآخر فقد نقلتها منها ما فيه زيادة على ما ذكره الشيخ حسن قاسم.

العارف ابن ماخلا ﷺ أحد رؤوس السلسلة الشاذلية ومُقَدَّمِيها، فهو خليفة الإمام ابن عطاء الله السكندري صاحب الحكم، وشيخ العارف بالله الشيخ محمد وفا الموسوم بالختمية - ﷺ.

وقد حلاه سيدي عبد الوهاب الشعراني في الطبقات الكبرى تحلية مختصرة فقال: «ومنهم الشيخ داود الكبير بن ماخلا ﷺ شيخ سيدي محمد وفا الشاذلي ﷺ». ثم حلاه في الطبقات الوسطى بتحلية أطول من هذه فقال: هو سيدي الشيخ الكامل الأمي المحمدي وشيخ الطريق في عصره، كان من أجلاء أصحاب سيدي ياقوت العرشي».

الجزء الذي ألفه في الطريقة الصوفية فأبدع فيه تأليفًا وإنشاءً وطلع منه كواكب العجائب تشرق صباحًا وتروق عشاءً».

قلت: وقد بحثت عن ترجمة العلامة هبة الله المذكور فلم أظفر بها للأسف رغم ما حلاه به البلوي مما يدل أنه كان من مشاهير فضلاء عصره!

والغالب وجود النقص في تراجم المالكية لكون كتب التراجم المؤلفة في ذلك العصر كطبقات التاج السبكي والدرر الكامنة وطبقات ابن قاضي شهبة- جُلُّ مؤلفيها شافعية.

(١) هذه نهاية ترجمة الأستاذ حسن محمد قاسم لصاحب الشرح وما يلي من ترجمته فهو للمحقق.

ويتضح من هذه التحلية أمور:

أولًا: أن سيدي عبد الوهاب الشعراني أثنى عليه في الكبرى بلفظ «الكبير»، ثم رأى أن هذه التحلية لا تفي بحقه ﷺ فزاد في «الطبقات الوسطى» في تحليته بما هو أهل له.

ثانيًا: ثم إن تحليته في الوسطى كانت بأعلى الأوصاف فهو «الشيخ الكامل»، وهو «المحمدي»، أي الوارث المحمدي، ثم هو شيخ الطريق في عصره.

ويحتاج كل واحد من هذه الأوصاف إلى تفصيل لمعرفة معناه.

العارف الكامل

لم أر من عين معنى الكمال في العارفين وإن كانت الإشارات للكامل ونعته في «الفتوحات المكية» عديدة جدًّا، وحبذا لو استخلصها أحد الباحثين ووضعها في رسالة خاصة، وقد استعضت عن ذلك بما ذكره الإمام الشعراني في مقدمة «تطهير أهل الزوايا من خبث الطوايا» في وصف شيخ الزاوية الصوفية الكامل. وقد يعترض بأن هذا يتعلق بشيخ الزاوية لا مطلق الشيوخ، وجوابه أنه لا بد من قدر مشترك، بل الغالب عليهما هو المشترك بينهما، وكل شيخ زاوية كامل عارف كامل وليس العكس، فالإمام الشعراني وصف العارف ابن ماخلا بالكامل ولم يتقرر في مصدر من مصادر ترجمته إلى أنه كان شيخ زاوية. وعليه فيمكننا الاعتماد على بعض ما قاله القطب الشعراني في فهم معنى الكامل.

قال ﷺ: «فمن علامة كماله أن يكون متبحرًا في علوم الشريعة وجميع آلاتها من فقه وحديث وتفسير ونحو ولغة وأصول وغير ذلك بحيث يغني فقراء

الزاوية عن القراءة في علم من هذه العلوم على غيره، فإن اختلاف المشارب مضر جدًّا على الفقراء، ويقبح على شيخ الزاوية أن يكون محتاجًا إلى سؤال غيره في مشكلات العلم». قلت: وهذا الذي قيد به شيخ الزاوية واقع في ترجمات العارف ابن ماخلا ﷺ، فقد ألف في الفقه واللغة والتصوف، وهذا ما وصلنا على ندرة أخباره ﷺ.

وقال الإمام الشعراني كذلك: «أن يكون جامعًا بين علم الشريعة والحقيقة، وإن كان العلم بإحديها يستلزم العلم بالأخرى عند المحققين.

كما أن من علامة كماله: ألا يدرك لنفسه قرارًا يتكلم مع الوقت والحال لا لهما ولا بهما، لا يغفل عن الدعاء لنفسه ولإخوانه من جميع المسلمين مع التضرع، والأدب كل واحد بما يناسب حاله؛ لأنه مسئول يوم القيامة عن الخلق أجمعين من حيث كونهم كلهم رعيته، يتقلب ليلاً ونهارًا في علم الله عز وجل لا يعلم أحد ما هو فيه إلا إن أشرف على مقامه، وقليل ما هم.

ومن علامته أيضًا: ألا يحكم على الأشياء إلا بأوصافها الثابتة في العلم الإلهي، فلا يحكم عليها بالظن، فضلاً عن الوهم، بل يحكم عليها بحكم الله فيها، وقد ثبت عند أهل الكشف تقلب الصفات في كل زمن فرد، فلكل موجودٍ علمٌ جديد، وما ثَمَّ شيء يثبتُ على حالةٍ واحدةٍ في نفس الأمر حتى يصحَّ وصفُه بخير أو شر، إلا إن كان معصومًا؛ بل يتنوع ويتغير في حال التعبير عنه، فعلىٰ ماذا يقع التعبير: أعَلىٰ الماضي أم على المستقبل؟ وهو حال غريب من لم يتحقق بعلمه كشفًا فهو من السفسطائيين، لا يطابق قوله وفعله وحكمه زمانين ماضٍ وآتٍ، بل يزيد وينقص.

من علامته أيضًا: الرضا بما أقامه الله تعالى فيه ولو جبليًا [...]، والقصد الذي يوافق الشرع، لا تنفر نفسُه من ذلك، يتغير مع تغير الكون؛ إذ هو نازل تحت حكمه وحيطته، فرحه للكون هو فرحه لنفسه؛ لأنه فرد من أفراده».

قلت: وهو باب طويل تكلم فيه الإمام الشعراني ﷺ عن علم بنفسه ومشايخه، لا سيما الأول، دون أن ينص على ذلك صراحة، وفيه من آيات كماله وتحققه ما تقر به عيون محبيه. وهو قد أثنى على سيدي ابن ماخلا بوصف الكامل، فلا حرج من إطلاق ما ذكره القطب الشعراني في وصف شيخ الزاوية الكامل عليه رضا الله. والناظر في بقية الباب الذي افتتح به الإمام الشعراني كتابه يرى عجبًا فمن أراده فليطالعه فيه[1].

العارف ابن ماخلا وارث محمدي

قال الشيخ الأكبر في الفتوحات في وصف الورثة المحمديين: «وهذا الفرق بين الورثة المحمديين وسائر الأنبياء، فورثة الأنبياء يعرفون في العموم بما يظهر عليهم من خرق العوائد، ووارِثُ محمدٍ ﷺ مجهولٌ في العموم، معلومٌ في الخصوص، لأن خرق عادتِه إنما هو حال وعلم في قلبه، فهو في كل نَفَس يزدادُ علمًا بربه، عِلمَ حالٍ وذوق، لا يزال كذلك».

وقال في باب الأقطاب المحمديين ومنازلهم: «ولا ينسب إلى محمد ﷺ إلا من كان بمثابة ما قلناه مما اختُص به محمد ﷺ، وليس أعمَّ في الاختصاص من عدم التقيُّد بمقام يتميز به، فما يتميز المحمدي إلا بأنه لا مقام له يتعين، فمقامُه أن

---

(١) ننشره هذا العام الهجري ١٤٣٢ بإذن الله تعالى.

لا مَقامَ له ومعنى ذلك ما نبينُه، وهو أن الإنسان قد تغلب عليه حالتُه، فلا يعرف إلا بها، فيُنسب إليها ويتعين بها.

فالمحمدي نسبة المقامات إليه نسبة الأسماء إلى الله، فلا يتعين في مقام ينسب إليه بل هو في كل نَفَسٍ، وفي كُلِّ زمانٍ، وفي كل حال، بصورة ما يقتضيه ذلك النَّفَسُ أو الزمان أو الحال، فلا يستمر تقيُّدُهُ؛ فإن الأحكام الإلهية تختلفُ في كلِّ زمان، فيَختَلِفُ باختلافها، فإنه عزَّ وجلَّ كلَّ يوم هو في شأن، فكذلك المحمديُّ، وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ (ق: ٣٧) ولم يقل: عقل، فيقيدُه، والقلبُ ما سُمِّيَ إلا بتقلبه في الأحوال، والأمور دائمًا مع الأنفاس، فمن عباد الله من يعلم ما يتقلب فيه في كل نفس، ومنهم من يغفل عن ذلك.

فالقطب المحمدي أو المفرد هو الذي يتقلب مع الأنفاس عِلْمًا، كما يتقلب معها حالًا كلُّ واحدٍ من خلق الله، فما زادَ هذا الرجلُ إلا بالعلمِ بما يَتقلبُ فيه وعليه، لا بالتقلب، فإن التقلب أمر يسري في العالم كله وفيه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك على التفصيل والتعيين، وإن علموه على الإجمال. فمنازلهم على قدر علمهم فيما يتقلبون فيه وعليه والله يقول الحق وهو يهدي السبيل».

شيخ الطريق في عصره

وأما وصفه بشيخ الطريق في عصره، فقد كان ﷺ معاصرًا لأكابر الأكابر كسيدي عبد العال الفيشاوي المتوفى سنة ٧٣٢ هـ خليفة سيدي أحمد البدوي ووارثه، وسيدي ياقوت العرش المتوفى سنة ٧٣٢ كذلك، وارث سيدي أبي العباس المرسي. وقد توفي سيدي داود سنة ٧٣٢ أو ٧٣٣ فهو صنو العارِفَيْن الجليلين المذكورَيْن وعَصْرِيُّهما وتِربُهما. نعم قد يكون وصف الإمام الشعراني له

بشيخ الطريق وصفًا إجماليًّا لا يقصد إلى التفصيل ولا التفضيل بينه وبين غيره من الأكابر، ولكن ثبوتَ الوصف شاهدٌ بما له من رسوخ قدم وعلو شأن. وهذا الكتاب ناطق بعلو ناطقته وكمال ذوقه ومأذونيته في التعبير عن مقامات السلوك وأحواله، بداياته ونهاياته.

وقد احتفى الإمام الشعراني بكتاب «عيون الحقائق» في طبقاته احتفاء العارف البصير الخبير، فنقل كثيرًا من «عيونه» حتى وصل الفصل الذي عقده لسيدي داود في بعض طبعات الطبقات الكبرى إلى بضع وعشرين صفحة، فهي شهادة لما له من الشأن في الطريق.

هل كان المصنف ﷺ أميًّا؟

قد يبدو السؤال عن مؤلفٍ أميٍّ غريبًا، ولكن هذا الوصف في نفسه غير مستبعد إن كان تلقاه منه شفاهةً أحدُ تلاميذه وكتبه عنه، كما وقع لسيدي علي الخواص مع سيدي الشعراني، وللقطب الدباغ مع العلامة أحمد بن المبارك، وللشيخ أحمد بن عقبة الحضرمي مع خليفته الشيخ زروق(1). وقد وقع في تحليته بالطبقات الكبرى الوسطى وصفُه بالأميِّ، وكلمة الأمي قد تحتمل معانيَ عند الصوفية، ولكنه قيد المعنى بقوله «لا يقرأ ولا يكتب» فامتنع التأويل.

ولكن الإشكال يرجع إلى أن عبارة الكتاب كذلك عبارة عالم أديب يعرف جيدًا كيف يتصرف في الكلام وكيف يأتي بوجوه البلاغة، فضلًا عما استشهد به من أبيات الشعر وهي كثيرة في الكتاب، بل في كثير من هذه الأبيات تصرف

---

(1) «مناقب الحضرمي» لسيدي أحمد زروق، صدر عن دارة الكرز بتحقيق الفقير.

وتضمين لأبيات أخرى، وهذا ليس بحال رجل أميٍّ، ناهيك بأن الشعر الوارد في الكتاب ليس من نوع الأشكال الشعرية التي يشيع فيها عدم الالتزام بقواعد اللغة والعروض، بل هو شعر منضبط عروضيًا، سليم نحويًا. فيبعد أن يكون كاتبه أميًا.

ثم إنه نسب له ﷺ كتب في الفقه بل في النحو والبلاغة، حتى ضمنه الإمام السيوطي في «بغية الوعاة في طبقات النحاة»، فقال: «داود بن عمر بن إبراهيم الشاذلي الإسكندري. قرأت بخط الشيخ كمال الدين والد شيخنا الشُّمُنِّي: من الأئمة الراسخين، تفقه على مذهب مالك، له فنونٌ عديدة، وتصانيف مفيدة. صحب الشيخ تاج الدين بن عطاء الله، وأخذ عنه طريق التصوف، وكان يتكلم على طريق القوم. صنف: مختصر التلقين للقاضي عبد الوهاب في الفقه، مختصر الجمل للزجاجي، بديع. وله كتاب في المعاني والبيان، وغير ذلك. مات بالإسكندرية سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة»(١).

فهو عند الإمام السيوطي – وهو حجة – متفقه على مذهب الإمام مالك، مشارك في علوم وفنون «عديدة»، صاحب «تصانيف مفيدة». والتصانيف إن جاز أن تكون إملاءً عن القلب في التصوف، فهذا لا يقع في غيره من الفنون. وكل هذا في جانب، ووصف الإمام السيوطي لشرحه على جمل الزجاجي بـ«البديع» في جانب آخر. وهذا الوصف لا يكون إلا بعد اطلاع الإمام السيوطي على الكتاب.

فكل هذه البراهين تقطع بعدم أميته، وتثبت بتضلعه في العلوم ورسوخ

---

(١) بغية الوعاة (١/ ٥٦٢)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. عيسى البابي الحلبي. د.ت.

قدمه فيها. فماذا يقال فيما قاله الإمام الشعراني وتابعه عليه تلميذه العلامة عبد الرؤوف المناوي في «الكواكب الدرية»؟ الحال أن الإمام الشعراني في أخباره إنما ينقل عمن لقاه من مشايخ عصره ممن يكون له اطلاع على حال هذا أو ذاك من الأولياء. والإمام الشعراني كان همه الأول تربويًا وعظيًا، لذا كان لا يتوقف ﷺ في الأخبار التي لا تخالف هدفه من الكتاب، وهو هدف نرى ويرى أهلُ الإنصاف أنه تحقق بالفعل، فطبقات الإمام الشعراني – رغم ما فيها مما يستشكله البعض – أعظم ما كتب في ترجمة رجال التصوف، والنقل عنها مستفيض في كتب السادة الصوفية بما لا مزيد عليه. ويكفيه في هذا الصدد أن كل من نقل كلام سيدي ابن ماخلا سواه فقد اعتمد عليه كما أسلفنا.

وختام القول أننا نقطع بأن العارف ابن ماخلا كان من العلماء الكبار ولم يكن أميًا، اللهم إلا أن تكون أميته بمعنى أنه إذا تكلم في التصوف لم ينقل إلا عن مشهده هو. وهذا هو الغالب في كتابنا، اللهم إلا في موضع أو اثنين.

تحقيق تاريخ وفاة المصنف ﷺ

وثمة إشكال في تاريخ وفاته إذ ترجم ابن حجر في الدرر الكامنة فقال: «داود بن [...][1] الشاذلي الإسكندراني تلميذ الشيخ أبي العباس

(١) موضع بياض في الأصل الذي اعتمد عليه الكتاب المطبوع. ولكن هذا لا يشغب على كون المقصود سيدي ابن ماخلا، لأسباب: أولًا: أنه سكندري، ولا يعرف من شاذلية الإسكندرية في هذا العصر من يزيد عليه في الشهرة ويتسمى باسم داود. ثانيًا: أنه شاذلي. ثالثًا: أنه وإن كان خليفة لابن عطاء الله، فهو لحق بالأستاذ المرسي ضرورة لوفاة الأستاذ المرسي سنة ٦٩٦، كما لحق به سيدي ياقوت العرشي الذي توفي قبل المؤلف بسنة واحدة. رابعًا أن الوصف الذي حلاه به من اشتغاله

المرسي[1]. قال العثماني قاضي صفد: كان يشتغل ويتكلم على الناس ولا يخلو بنفسه إلا ساعة بعد الظهر. وزعم أنه مات تقريبًا سنة ٧١٥، فليحرر. ورأيتُ له قصيدة يرغب فيها في الموت أولها:

أرى النفس تخشى من حلول المنية ... وتطمع أن تبقى بدار تولت

لكِ الخيرُ ماذا تحذرين وما الذي ... ترجين مما بالمكاره حفت؟!

أمِنْ نقلةٍ للموطنِ الأول الذي ... إليه نفوسُ العارفين ترقَّتِ

جزِعْتِ وترضين الدَّنِي وتنزعين ... عن الموطنِ الأعلى إلى دار غربة

فهنا موضع الشك، وقد وقف عن القطع محقق نابه هو الأستاذ محمد أديب الجادر. والجزم أن الصحيح ما أورده السيوطي ﷺ لا ما أورده ابن حجر. وهذا لعدة أسباب:

أولًا: أن السيوطي أورد الترجمة بصيغة الجزم عن الأثبات الثقات وهذا ما لم يقع لابن حجر. بل وصف ناقل التاريخ المشكل بـ «الزعم». ثم أبان عن شكه في الرواية، فقال: «فليحرر». فالحافظ ابن حجر ﷺ لم يحرر ما كتب، وتركه لمن قد يحرره بعده. بينما عبارة الإمام السيوطي محررة مفصلة.

ثالثاً: أجمعت مصادر ترجمة سيدي محمد وفا[1] ﷺ على أنه تلقى الطريق وتسلك بسيدي داود بن ماخلا. قال ابن العماد: وسلك طريقة الشيخ أبي الحسن الشاذلي «وتخرج» على يد الأستاذ ابن باخل.

وكلامه على الناس وقلة اختلائه مناسب لكلامه ولما وقع في ترجته في الطبقات الكبرى والكواكب، الدرية للمناوي. خامسًا: لأنه عرف بالشعر كما في كتابنا هذا.

(١) الثابت أنه تلقى عن سيدي ابن عطاء الله، ولا يبعد أن يكون صحب الأستاذ المرسي ثم أكمل تربيته على سيدي ابن عطاء الله ﷺ. وهذا وقع لغير واحد من المشايخ.

وأما وفاة سيدي محمد وفا فكانت سنة ٧٦٥ هـ وأما ميلاده فسنة ٧٠٢، فلو كانت وفاة المؤلف سنة ٧١٥ يكون سيدي محمد وفا صبيًا ابن ثلاث عشرة سنة، وهي سن وإن جاز فيها الأخذ، فيبعد فيها التخرج. فيكون ما ذكره الإمام السيوطي هو الصواب.

فوائد من المصادر التي ترجمت له

فمنها ما وقع في نقل ابن حجر عن قاضي صفد من قوله: «كان يشتغل، ويتكلم على الناس، ولا يخلو بنفسه إلا ساعة». ففيه مسائل:

أولاً: أنه قوله «يشتغل» قد يشير إلى ما ذكره الإمام الشعراني في طبقاته من أنه كان يعمل شرطيًا في بيت الوالي، وكان بينه وبين الوالي إشارة ترشد إلى كون الذي وقع عليه الاتهام بريئًا أم مذنبًا(١).

ثانيًا: قوله: «ويتكلم على الناس»، تفيد أنه ﷺ كان له مجالس وعظ يستمع فيها الناس إليه. وقد ورث هذا الحال عن أشياخه، وورثه عنه خليفته سيدي محمد وفا، كما يعلم من تراجمهم.

ثالثًا: قوله «ولا يخلو بنفسه إلا ساعة» تفيد تحققه بالحضور مع الله تعالى بين الناس، وهو المقام المعبر عنه عند السادة الصوفية لاسيما السادة النقشبندية

---

(١) شذرات الذهب (٦/ ٢٠٦).

(٢) وهذه الإشارة لا تفيد أن الوالي كان يحاسب المتهم بمجرد الإشارة، بل يجعله متأكدًا من أنه مذنب فيطلب الدليل دون بحث عن شخص آخر يوجه إليه الاتهام. وقد رأيت في بعض مواقع أعداء أولياء الله تعالى من أعداء التصوف يفيد إنكارهم لهذا الفعل على توهم أن المتهم كان يعاقب بمجرد إشارة الشيخ، فما أسقم فهمهم وما أسوأ طويتهم!

منهم بالخلوة في الجلوة. وإن كان التحقق بهذا في حقه أمرًا غير بعيد، فما يعنينا هو كلامه على هذا المقام في كتابه، حيث قال:

فلا يكاد الحكيم الرباني إذا خلا يجد من النور ما يجد في الملأ، بل يَرجع إلى أوصاف نفسه، ويُعاد إلى عوائمِ حِسِّهِ، فتراه يَستدعِي الحكمة من قلبه ليَعلَمَها، ويَشهَدَها ويَفهَمَها وهي عليه تتعذّر، كما أن الذَّكر إذا أراد أن يلتذَّ بالجماع ويكون له ولدٌ من غير أنثى لا يُتَصَوَّر.

فلذلك: انجرُّوا - بالاضطرارِ - إلى مجالسة المخلوقين، والرجوع إلى الآثار، لأن للحضرة عبيدًا، وللنيابة والخلافة آخرين، فهم يشتاقون إلى لذّات المحاضرات، ويُدفعون إلى سياسة المخلوقات، جُعِلَ نعيمُهم في بَسْطِ الأنوارِ بين ظواهر الآثار.

فهذا القول، كغيره، ترجمةٌ لحاله ﷺ، وهذا ديدن العارفين في كثير من كلامهم، فقد قال سيدنا محيي الدين بن عربي ﷺ: «فالقوم لا يثبتون في دفاترهم إلا ما شهدوه ببصائرهم». بل قد يثبتون ما هو دون ما شاهدوه، كما ذكره سيدي عبد الوهاب الشعراني في وصف شيخ الزاوية الكامل في صدر كتابه الفريد «تطهير أهل الزوايا من خبث الطوايا»، حيث ذكر أن الكامل يتكلم دون مقامه والناقص يتكلم فوق مقامه.

وترجم له الملقن ترجمة وجيزة جدًّا لا تفي بحق الشيخ رغم أنه عصريُّه، إذ وُلِدَ ابن الملقن قبل وفاة الشيخ بعشر سنوات، فقال:

«الشيخ داود بن عمر بن ماخل الكهاري الإسكندري المالكي، صحب

تاج الدين بن عطاء الله وشرح «حزب البحر» فكان يتمثل بقوله:

لقد ظهرت، فلا تخفى على أحدٍ إلا على أكمه لا يعرف القمرا

ثم استترت عن الأبصار يا صمدُ وكيف يظهر من بالعزة استترا؟!»

فهذا كل ما كتبه ابن الملقن عن المصنف وفيه مسائل:

الأولى: حلاه بالمالكي، وهذا الوصف لا يطلق على الأمي غالبًا.

الثانية: نَصُّه على صحبته لسيدي ابن عطاء دون غيره، خلاف ما وقع في الترجمة عند الحافظ ابن حجر من صحبته للأستاذ المرسي، وقد تأولناه على أية حال في موضعه، وخلاف ما وقع في الطبقات الوسطي للقطب الشعراني من أنه كان من أجلاء أصحاب سيدي ياقوت العرشي. ولو صحت – وهي صحت ولا بدَّ بحكم المعاصرة والمجاورة واتحاد الطريقة والشيوخ - فهي صحبة أخوة لا صحبة تتلمذ وإرادة.

الثالثة: وصْفُه له بالهكاري، إن صح ما وقع في المطبوع فقد يكون إشارة إلى أن أصله من جبال هكار بكردستان. وإليها ينتسب سيدي عدي بن مسافر الهكاري. فالله أعلم بصواب ذلك. ولم أر من ذكر هذه النسبة سواه.

الرابعة: ما يتعلق بلفظ «ماخل»، وهو خلاف المشهور، وهذه المسألة هي ما نناقشه في المبحث التالي:

تحقيق لفظ «ماخلا»

أما الاسم في الطبقات الكبرى المطبوع للإمام الشعراني فهو: ماخلا.

وأما في الوسطى المخطوط فهو: باخلا.

وأما عند ابن الملقن فهو: ماخل.

وأما في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي فهو: باخلز

وأما على مخطوط الكتاب فهو: الباخلي.

وقد وقع في كتاب أعيان من المشارقة والمغاربة المسمى بتاريخ عبد الحميد بك في ترجمة الولي المجذوب سيدي إبراهيم أبي سلمون: «ودفن بمسجد سيدي داود بن أبي خلة»[1]. ولم أره لغيره.

۞

(١) ص ٢٧، ط. الغرب الإسلامي.

بسم الله الرحمن الرحيم

صلَّى الله على سيِّدنا ومولانا محمد وعلى آله وسلم

الحمد لله الذي نوَّر قلوب أوليائه بنور معرفته، وملأها بشهود عظيم جلاله وجماله من هيبته ومحبته، وعرَّفهم به فعرفوه، وقرَّبهم به إليه فتاهوا في بحار عظمته، وحَبَاهم بسمات التقريب، وكساهم خِلَع توفيقه وكرامته، وجعلهم بعد أنبيائه ورسله عليهم السلام نخبةَ عباده وخيرَ خليقته؛ فكلامهم شفاء، ونظرهم لأمراض القلوب دواء. وجعلهم دالِّين به عليه لمن اختصه بعنايته، بوجودهم تتنزل البركات، وبدعواتهم ورغباتهم تهبط الأنوار والخيرات؛ لأنهم انتسبوا لعظيم ربوبيته، واختصهم بلطفه ورحمته، وحماهم وَكَلأَهم وحفظهم ورعاهم وقرَّبهم وأدناهم وجعلهم في حرزه وحراسته، فهم به من كل شيء آمنون، كما قال تعالى فيهم: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (يونس: ٦٢).

وصلواته وسلامه على قطب دائرة مملكته، وشمس أفق غيبه وشهادته، محمد عبده ورسوله خير أنبيائه ورسله وسائر خليقته، وعلى أزواجه وعترته وآله وصحابته.

[سبب تأليف الشرح]

أما بعد، فإنَّ الدعاءَ المبارَكَ المشهور المعهود بركته، المعلوم نفعه وثمرته، المنسوب للطائفة الجليلة الشاذلية ﷺ - جعلنا بفضله وكرمه بنعت التوفيق

والرضا منهم -قد بسطه الله تعالىٰ في الأرض وكثَّره، ونشر لواءَه وأظهرَه، وقُـرِئ في المساجد والجوامع، وأعلِنَ به في الأماكن والمواضع، واستمع لفيفُ الناسِ إليـه وفيهم العالم والجاهل، والمتيقظ والغافل، والمحـب والمعتقـد، والمـبغض والمنتقـد، ومَن لم يعلم مقدار هذه الطائفة ولا ذاق شـيئًا مـن شربهـا، ولا كَـرَعَ مـن منهلهـا العذب، ولا كَلِفَ بحبها، فربما سمع ألفاظه الغريبـة العربيـة، وإشـارته العجيبـة الوصفية، ونكته البديعة الخفية[1]؛ ربما أُستُغرِب [بعض][2] ذلك عليه، ولم يَبلغ بيانُ بعضِ ألفاظه إليه. أما مَن كان محبًّا فالمحبة بيانه، وحسن الاعتقاد دليلـه وبرهانـه، لكن مَنْ كان مُبغضًا صرفـه الهـوى، فبـادر إلى الإنكـار، ومَـن كـان مُحبًّـا ضـعيفًا فيحتاج إلى مزيد بيان واستبصار.

فاستخرتُ الله تعالى، وكتبـتُ أوراقًـا في الإشـارة إلى شيءٍ مـن بَيَـان ظـواهرِ ألفاظِهِ من حيث العلمُ الظاهرُ واللسانُ لا من حيث التحقيـق وقواعـد العرفـان؛ لأن صاحـب هذا الدعاء بحرٌ لا يُدرك قرارُه، وجوادٌ لا يُشقُّ غبارُه، وعبـدٌ عظـيمٌ في المعرفة مقدارُه، مقاصد كلماته عليَّـةٌ، وأحـوال إشـاراته سـنيَّةٌ، ولـولا ضرورة تفهيم العوام ما وقع من غريب الكلام مـا تعـرض مـثلي لـشرح كلامـه؛ لقـصور فهمي علىٰ عليِّ مراده[3]. وبالله تعـالى أسـتعين، وعليـه أتوكـل، وبرحمتـه الواسـعة أتعلَّق، وبه إليه أتوسل، وهو حسبي ونعـم الوكيـل، ولا حـول ولا قـوة إلا بـالله العلي العظيم.

---

(١) أ: اللفظة الغريبة العربية، أو الإشارة المعجمة الصوفية، أو النكت البديعة الخفية.

(٢) زيادة من خ.

(٣) أ: عن علو مقاصده.

ورتبت الكلام في ذلك على: مقدمة وثلاث فصول، وسميته: «اللطيفة المرضية في شرح دعاء الشاذلية».

أما المقدمة: ففي بيان شيءٍ من مقدار كلام الأولياء وعظيم فوائده.

وأما الفصول:

فالأول: في ذكر شيءٍ من بعض أوصاف قائل هذا الدعاء المبارك وجلالة مقداره.

وأما الثاني: ففي فضيلة هذا الدعاء وعظيم بركته، وسرعة إجابته، ونُجْح الداعي به، وما عُهِد من ذلك وجُرِّب في حِرْزِهِ وحِرَاستِهِ.

أما الثالث: ففي تتبُّع بعض ألفاظه وبيان ما أُشْكِلَ منها، وبسط شيء من معانيها والكشف بالتقريب عنها»[1].

---

(١) أ: بالغريب عنها.

أما المقدمة:

فهي أن تعلم أن الكلام في هذه الفصل عظيم الموقع يحوي أصلًا عظيمًا في علم الحقائق العقلية والقلبية، ويتسع الباع في لفظه، لكن يُشارُ منه إلى نبذةٍ يسيرةٍ تعرف منها أصول موارد الكلام.

[مراتب المتكلمين بالنظر إلى بواطنهم(1)]

فاعلم أن اللسان جُعل معبِّرًا عمَّا في ضمير الإنسان، وذلك ثلاثة أنواع:

---

(١) يولي السادة الشاذلية مسألة الكلام عناية خاصة، حتى اشتهروا بالكلام الجاذب للقلوب شيخًا بعد شيخ ولعدة قرون وأجيال من المشايخ. وتتبدى هذه الأهمية في «الحكم العطائية» إذ يفرد لها العارف السكندري عدة حكم منها: «كل كلام يخرج وعليه كسوة القلب الذي خرج منه»، و«من أذن له في التعبير سمعت عبارته وجليت في الناس إشارته». بل يقرر لها في «لطائف المنن» ما يشبه القاعدة فيقول: « ثم اعلم فتح الله بصيرتك لشهود أنواره... أن من أجلّ مواهب الله لأوليائه وجود العبارة» (ص: ٦٣) وقد أخذ هذا من كلام الأستاذ المرسي إذ يقول: «كلام المأذون له يخرج وعليه كسوة وطلاوة، وكلام الذي لم يؤذن له يخرج مكسوف الأنوار» (ص: ٦٤). وهذه الناطقة سارية في السادة الشاذلية وراثة من الإمام أبي الحسن الشاذلي وربما من مدد سيدي عبد السلام بن مشيش قبله. وقد أولى المؤلف هذه النقطة اهتمامًا كبيرًا في كتابه «عيون الحقائق»، فمن ذلك قوله: « عليك بالنور الكلامي...» ص: ٧٦.

وقوله: «الحق تبارك وتعالى اختص من النطق الإنساني ما شاء: لغةً وكَلِمًا وكلامًا وحرفًا، فجعله معادن لأنواره، ووسائل لتوصيل رسائل أخباره، كما اختص من البشر والملك من شاء، فجعله دليلًا عليه، وداعيًا بإذنِهِ، وحاملًا لكنوزه وأسراره، فَصَدرًا عن المحل الأعلى ناطقًا ونطقًا، نُطقًا جَليًّا وَقَلْبًا عَليًّا، فَلَاحَ شعاعُ النور الأمري من النطق البشري، وَتَبَدَّى ضِيَاءُ الروح الأصلي من الشَّكْلِ الظِّلِّيِّ، وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (الدخان: ٥٨)، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ (الحج: ٧٥)». ص: ٧٦.

فهو إما معبرٌ عن قلبٍ، أو عن عقلٍ، أو عن خيالٍ فاسدٍ.

أما الخيال الفاسد: فكحالُ عادم[1] العقل: كالمجنون والساهي والنائم، فإنَّ كلامَ هؤلاء برز لا عن رؤية بل عن تصور فاسد لا معنى له ولا فائدة فيه، فهو مردود بالطبع عند العقلاء مطلقًا.

وأما ما برز عن عقل[2]:

فإما عن عقل طبيعي، وهو أول مرتبة تَرقت عن الخيال الفاسد، وهو حال الصبي المميِّز، فهو كلام غير مردود بالطبع، وذلك معلوم بديهة.

وإما عن عقل كسبي نظري، وهو أول درجات العقل في الحسن، ومنه تفاوت العقلاء على حسب صحة السجية والفطرة، ووُسْعِ التجربة، وحُسْنِ النظر، ومقايسة الحقائق الخارجية بالحقائق الباطنية، وشرف المعقولات، وغير ذلك.

فهذا النوع إذا سَلِمَ قائلُه وقابلُه من الهوىٰ تهيأ المتصفُ به والقائل[3] له لارتسام متعلَّقه في دائرة خياله وحفظه لوجود فائدته ونتائجه من غير قهر على ذلك.

وقوله: «إذا تكلَّمَ العارفُ كلمة غاب فيها وجود المستمع، لأنَّ الكلام ذَكَرٌ، والسَّمْعُ أُنثى، و﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ (النساء:٣٤)». ص: ٩٥.

وقوله: «المحققون الواجدون قسمان: مأذونٌ له في الدَّلالة والإفصاح، وغيرُ مأذونٍ له في الدلالة والإفصاح». ص: ٩٧.

(١) أي معدوم العقل.

(٢) انظر «عيون الحقائق»: ٣٩-٤٠.

(٣) أ، ب: القائل. والمثبت من ج.

وإما عن عقل وهبي: كالاطلاع على أسرار الحكمة الإلهية، وتَصفُّحِ صحائف الوجود الشَّهادي[1] بالفكرة الخالصة لاستخراج فوائدها واستمطار زوائدها، وهو أول مبادئ الفتح الإلهي؛ إذ معقولاتُ هذا النوع تحصل لا عن استنباطِ تجربةٍ سابقة، ولا استخراج نوع من نوع، كحال الحِرَف والصناعات والعلوم الرياضية كالحساب والهيئة والهندسة والمنطق؛ إذ هذه العلوم تُنَالُ بتسليط العقول على ضرب بعضها ببعض، وانبساط فروعها من أصولها. وعلوم الحكمة الإلهية ليست كذلك؛ بل إنما تُنال بفراغ العقل وصفائِه وزهده في الفانيات؛ فتلوح لعقله حقائِقُ الحِكَم وبدائع الفُهُوم، ومنه ما جاء في الحديث: «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ قَدْ أُعْطِيَ زُهْدًا فِي الدُّنْيَا وَقِلَّةَ مَنْطِقٍ فَاقْتَرِبُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلَقَّىٰ الْحِكْمَةَ»[2].

وهذا النوعُ أيضًا إذا سَلِمَ السامعُ له من الهوىٰ الصَّادِّ؛ فأكثرُ نفعًا له من النوع الذي قبله وأسرع تأثيرًا؛ لكنه لا يرتقي إلىٰ قهره على القبول[3].

---

(١) الوجود الشهادي مقابل الوجود الغيبي، أي عالم الشهادة مقابل عالم الغيب، واستخدام لفظ «الشهادي» شائع عند المؤلف ﷺ كما هو في هذا الكتاب وفي «عيون الحقائق».

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤١٠١) من رواية أبي فروة عن أبي خلاد، والطبراني (٩٧٥)، وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٤٠٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٥٢٩)، وابن عساكر (٥٣/ ٩٦) بإسناد ضعيف منقطع. قال السيد المرتضى الزبيدي ﷺ: «وأشار البخاري في التاريخ الكبير فقال: أبو فروة عن ابن مريم عن أبي خلاد، عن النبي ﷺ. قال وهذا أصح» (إتحاف السادة المتقين ١/ ٦٥٨).

(٣) المعنى إذا ثبت صواب العبارة: أن هذا النوع لا يرتقي إلى قهر السامع على قبوله، كما هو الحال في النوع الذي يليه.

قال في «عيون الحقائق»: والعقل نوعان: نوعٌ وُكِّلَ بالنفسِ، ليُسْكِنَ هيَجَانَ شَرِهِهَا في تناولِ مطالبها الدنيوية، ويحصل بوجودِهِ اعتدالُهَا في تصرفات مآرِبِهَا الشَّهْوانيَّة، وهو العقلُ الطبيعيُّ الذي بوجودِهِ تَسَمَّى الإنسانُ «عَاقِلًا»، واستكمال أوائِله عند بلوغِ سن الاحتلام، وهو مناطُ التكليف،

ومن هذين المنبعين يفترق العلماء والحكماء:

فصاحب النوع الأول يسمى «عالمًا»، وشرفُ عِلْمِه بحسب معلومه، وقد يكون دنيًا بحسب معلومه[1]. وصاحب النوع الثاني يسمى «حكيمًا عالمًا»، ولا يكون إلا محمودًا شريفًا.

والنوع الثالث اللسان المعبِّر عن قلب:

وهو أعلى الأقسام وأشرفها، وأقلها وجودًا؛ كما قال بعض العارفين: «أعز شيءٍ في الوجود عالِمٌ يعمل بعلمه، وعارفٌ ينطق عن وجدِه»[2].

ونسبة هذا للعقل الوهبي كنسبة العقل الوهبي لما تقدمه؛ فالناطق بلسان عقله عند العارفين كالصبي في أول تمييزه عند العلماء الراسخين.

وهو قيد الإسلام في سلوك سبيل دنياه، ويتبع المزاجَ الإنسانيَّ اعتدالًا وانحرافًا.

ونوعٌ آخر يتحسَّس به القلب عند حجابه، وشغله بعالم شهادته، وغلبة أوصاف النفس عليه، فيُتوصل به إلى تَعرُّف الحقائق الغيبية، ويَنْشَقُّ بواسطته أرايج(٣) نسيم العوالم القدسية، ويُرسله بريدًا إليها لينقل إليه من أخبارها، ويستصحب له منها شيئًا من ثمارها وأزهارها، لأنَّه - عند حجاب القلب عن شهود غيبه - قاصدٌ يتوصَّلُ، وناقلٌ مُعَدِّلٌ، ولكنه - عند إدراك الحقائق - متقاعدٌ، وليس له إلا قياس غائبٍ بشاهد، فإذا تَنبَّه القلب من رقدته، وتَخلَّصَ من قيود عالَم شهادته، هَاجم وعَاوَدَ، ولاحظَ صريحًا وشَاهَدَ، لكن على حسبِ علوِّ مقامِه وحَالِه، وبمقتضى كمال تخلُّصِه من أوحَالِه، وهذا العقل هو المحمود من النوعين، والمُزكَّى من الشاهدَيْن، وقوتُه على حسب حال الموصوف به: من زهده في الفانيات، وإقبال هِمَّتِهِ على العوالمِ الباقيات.

(١) بالمخطوط: لدناءة معلومه.

(٢) القائل هو العارف أبو الحسين أحمد بن محمد النوري، من رجال الرسالة القشيرية. صحب السري السقطي وأحمد بن أبي الحواري، وكان من أقران الجنيد ﷺ. توفي سنة ٢٩٥. ولفظ عبارة «الرسالة القشيرية»: أعز الأشياء في زماننا شيئان: عالم يعمل بعلمه، وعارف ينطق عن حقيقة.

ومدد النطق القلب من الروح الأمري[1]؛ ولهذا يخرج كلامه له قهاريةٌ وسطوةٌ؛ كما استمع بعض الفقهاء كلام بعض الطائفة فقيل له: «ما تقول فيه؟» قال: «ما أدري ما يقول؛ ولكني سمعتُ كلامًا له صولة ما هي بصولة مبطل»[2]، ولا يكاد يُعرَف هذا إلا بذوقٍ أو بفهمٍ أو بإيمانٍ؛ فالذوق للعارفين، والفهم للمريدين، والإيمان للمعتقدين.

لكنَّ له علاماتٍ وآثارًا وفوائدَ تدل عليها؛ منها: أنه لا يكون عن فكرةٍ بل يقع بديهةً [إن كان ثَمَّ قسمةٌ][3]، ويُصْدِعُ قلبَ سامعِه ويَقْهَرُه، وأغلب آثاره باطنة، ويؤثر في سامعه وإن لم يدر معناه، ويُفيد فتحَ القلوب، وحصول الأنوار والبركات، إلى غير ذلك من الفوائد مما يعلمه أهله.

وهذا النوع خاص بالأولياء العارفين والأصفياء المحققين؛ فلا يتكلمون إلا عن أصلٍ أصيل وفرعٍ طويل: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ (إبراهيم: ٢٤).

وبهذا يختلف كلام الأولياء عن غيرهم ويكون له آثار عظيمة.

فمن ذلك ما وقع لبعض الأولياء وهو كائن على جبل فقال: «إنَّ من أولياء

---

(١) نسبة إلى عالم الأمر، الذي وجد بقول «كن»، أي بلا توسط أسباب كما هو الحال في عالم الخالق الذي منه الدنيا.

(٢) القائل هو الفقيه أبو العباس ابن سريج، قاله لما مر بمجلس الإمام الجنيد وسمع كلامه.

(٣) أي إن قُسم للعارف أن يكون من الناطقين، فليس كل عارف يؤذن له في النطق، لذا قال شيخ المؤلف سيدي ابن عطاء الله ﷺ في الحكم: «من أُذِنَ له في التعبير فُهِمَتْ في مسامع الخلق عبارتُه و جليت إليهم إشارتُه».

الله من إذا قال لهذا الجبل: تحرَّكْ؛ يتحرك»؛ فتحرَّكَ الجبلُ؛ فقال له: «اسْكُنْ إنَّما ضربتُ بك المثل»[1].

وكما قال ذو النون المصري[2] للسرير: «طُفْ بالبيت»؛ فَطَافَ ثم عاد إلىٰ مكانه، وكان هناك شاب فصاح [الشاب][3] حتى مات، لأنهم أطاعوا مولاهم فطوَّع لهم الأشياء بقدرته[4].

---

(١) قد يعجز العقل عن تصور هذا، لكن كلامنا في التصديق والإيمان والتسليم لأن هذا هو التوفيق. وتحريك الجبل واقع بقدرة الله تعالى لا بقدرة هذا الولي لأنه لم يقصد تحريك الجبل أصلًا. والكرامة أصل من أصول أهل السنة والجماعة وثابتة بالقرآن والسنة، وهي أمر خارق للعادة يجريه الله تعالى على يد واحد من عباده تأييدًا له في دعوى صلاحه واتباعه.

(٢) ذو النون ثوبان بن إبراهيم المصري الأخميمي، أبو الفيض ثاني الرجال المترجم لهم بـ «الرسالة القشيرية». كان من العلماء الورعين في وقته، نحيفًا، تعلوه حمرة، ليس بأبيض اللحية، وكان أبوه نوبيًا. مات يوم الاثنين، سنة خمس، وقيل: ست وأربعين ومائتين، ودفن بالقرافة الصغرى. وعلى قبره مشهد مبني، عليه جلالة، ومعه قبور جماعة من الأولياء. ا. هـ من طبقات الأولياء ص ١٧٣. تشرفت بزيارته ﷺ وفي مقامه الشريف أضرحة تنسب لسيدنا محمد بن الحنفية والسيدة رابعة العدوية، وأقيم حديثًا شاهد في هذا الحوش لسيدي أبي علي الروزباري تلميذ الإمام الجنيد البغدادي، وفي الخطط والمزارات أنه قريب من قبر ذي النون – رضي الله عنهم جميعًا. انظر «الكواكب السيار إلى قبور الأبرار» لعلي بن جوهر السكري، ص: ١٠٧-٨.

(٣) في المخطوط: الشاب.

(٤) وكل هذه الأفعال إنما مستندها إلى الله تعالى وقدرته، وتطويع الأشياء هنا لا يزيد على كونه كتحريك ساكن أو تسكين متحرك، فليس الفعل الخارق مخلوقًا للعبد ولا تحريك الكرسي مثلًا مخلوقًا للعبد، بل هما مخلوقان بقدرة الله تعالى، وحيث كانت قدرة الله تعالى هي الفاعلة فهذه الكرامات هي كشف عن قدرة الله تعالى. وإنما لازمت الكرامة الولي لأن الله تعالى جعلها علامة عليه، وسميت كرامة لأنه تعالى يكرم وليه بها، مع أنه تعالى هو الفاعل لها على الحقيقة.

ولا تستبعد هذه الأشياء على أولياء الله[1] فإن الله تعالى جعل هـذا العـالم كلـه خادمًا لبنـي آدم مـؤمنِهـم وكـافرهم، طـائعهم وعاصـيهم، ومكـنهم في المملكـة، وطوّعَ لهم حيواناتها ونباتها ومياهها وأشجارها وسحابها وأمطارهـا وهـم لغـيره عابدون، فكيف [لا يـسخر][2] لأوليائـه المقـربين وعبـاده المتقـين نوعًـا آخـر مـن التسخير وهو الفاعل لكل شيء، وهو على كل شيء قدير؟ ولهـذا تجـاب دعـواتهم وتنجح رغباتهم.

فاعلم ذلك واقْدِر كلامَ الأولياء قـدره، ولا تنظـر إلى ظـاهر عبارتـه والحَـظْ باطِنَ إشارته؛ لأنه ليس مبنيًّـا عـلى العقـول والأذهـان، ولا عـلى ترتيـب النطـق وفصاحة اللسان بل على نور القلب وقواعد العرفان، وإن كنـت مـن أهـل الثـاني فسيغنيك الشهود والعيان عن الدليل والبرهان، وإلا فعليك بالتسليم والإذعـان، فإنه أولى بأهل التثبت والإيمان؛ لئلا تقع في البعد والحرمان:

لا تَكُـن وَانِيًـا فَـثَمَّ أُمُـورٌ ... لطـوال الرجـال لا للقـصار

إنْ تكـن لم تَـر الهـلالَ فـسلِّم ... لرجـال رأوه بالأبـصار

فهؤلاء قوم لا يتكلمون إلا بالله ولله؛ كما قال قائلهم:

فـإن تكلمـتُ لم أنطـق بغـيركم ... وإن سـكتُّ فـشغلي عـنكم بكـم

فكثيرٌ منهم يُلَقَّنُ الدعوات والكلمات في نومٍ أو يقظةٍ علىٰ اللسان بهـاتف، أو بوجهٍ يخالف العادة الجارية ظاهرًا أو باطنًا؛ ليعلموا أنَّ ذلك مـن فعـل الله تعـالى؛ فبعضهم يراه مكتوبًا في الأرض أو في حائط، كما جاء عن سـيدي أبي الحـسن ﵁

---

(١) في المخطوط: وإن، والمثبت من المطبوع.

(٢) ليست في المخطوط، مثبت من المطبوع.

أنه قال: «إني لأسأل الله تعالى في كل وقت؛ حتى إني لأسأل عن المسألة فأجد جوابها مكتوبًا في الدواة أو في الحائط أو الحصير»(١).

ولقد رأيتُ أنا رجلًا من أولياء الله تعالى وكان اسمه «أحمد» فذكر لي عنه مَنْ لا أتهمه: أنه جاء إلى قبر بعض الصالحين فسأل الله تعالى حاجة، قال: «فوجدتُ مكتوبًا على الأرض: «أحمدُ تُقضىٰ حاجته».

[بَيَانُ الْوَاجِبِ عَلَى المؤمِنِ تجاهَ كَلَامِ الْأَولياءِ]

فإذا كان هذا شأن كلامهم فلا ينبغي للعاقل أن يقيسه علىٰ كلام غيرهم، بل يجعل له رتبة في الفهم أخرىٰ، ويعامله بالتسليم والإذعان والقبول والإيمان، وإن لم يُمَنّ عليه بذلك، ولم يجد في نفسه قبولاً لأقوالهم ولا تسليمًا لغريب أحوالهم فعليه بالترك لها وعدم الخوض فيها، ولا يقابلها بالتكذيب والإنكار، ولا يعرض نفسه لمحاربة العزيز القهار؛ فإنه تعالى يقول - كما أخبر عنه نبيه ﷺ -: «مَنْ آذَى لِي وَلِيًّا فَقَدِ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ»(٢)؛ فما لك ولهذا؟ فعساك إن لم تحصل على الربح ألا

---

(١) لطائف المنن: ٧٦، ونص العبارة فيه: «والله لقد تسألوني عن المسألة لا يكون عندي لها جواب فأرى الجواب مسطرًا في الدواة والحصير والحائط».

(٢) الرواية في صحيح البخاري (٦١٣٧): بلفظ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ». وعند ابن ماجه من حديث سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ: «أنه خرج يومًا إلى مسجد رسول الله ﷺ، فوجد معاذ بن جبل قاعدًا عند قبر النبي ﷺ، فقال: ما يبكيك؟ قال: يبكيني شيء سمعته من رسول الله ﷺ؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن يَسيرَ الرياءِ شِرْكٌ، وإنَّ مَنْ عَادَى لله وليًّا فقد بارز الله بالمحاربة، إنَّ الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإن حضروا لم يُدعوا ولم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل غبراء مظلمة». وسيظل هذا الحديث بتمامه غُصَّةً في حُلُوق المنكرين للولاية الخاصة؛ لأن ما فيه من وعد الله لأوليائه بالنصرة له أمارات ظاهرة لا تقع

تقع في الخسران، وإذا كان نهاك أن تتعرض لمسلم بتنقيص أو عيب[1] فكيف لا ينهاك عن التعرض لأوليائه وأصفيائه؟! فلك في غير ذلك شُغلٌ، والطرق إلىٰ الله تعالى كثيرة.

فإن لم تكن لك قسمة من أولياء الله تعالى فعليك بسلوك ظواهر الأمور والتعلق بالشرع العام؛ فلكلٍّ عَملٍ رجالٌ، وإن لم تصل أن تكون من المقربين فاسلُكْ سبيلَ أصحاب اليمين، وإياك ومسلك أهل الشمال الظالمين[2].

فالله تعالى لا يسألك عن إنكار أحوالهم إن كانت غير صحيحة بل يسألك عن إنكارها إن كانت صحيحة[3]، فطريق الحزم والتقوى: أن تسلم رأسًا برأس إن

إلا لمن صحت ولايته لله. ومنهم من يبغي الفساد في الأرض بحمل كل إشارة للأولياء والولاية على الولاية العامة التي هي لجميع المؤمنين، فيأتي هذا الحديث مكذبًا لهم، وهو ورغم أنه في صحيح البخاري فقد رده بعض المبتدعة نصرًا لمذهبه الفاسد. ولفظ المصنف أخرجه أحمد (٢٦٢٣٦)، قال الهيثمي (١٠/ ٢٦٩): «فيه عبد الواحد بن قيس، وقد وثقه غير واحد، وضعفه غيرهم، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح»، وابن عساكر (٣٧/ ٢٧٧)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٥)، وابن أبي الدنيا في الأولياء (رقم ١)، والحكيم (٢/ ٢٣٢).

(١) وذلك في قول الشارع ﷺ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»، والحديث متفق عليه (٩)، (٥٨)، ويجب على المؤمن أن يعتبر حكمه ﷺ في بيان أجزاء الإسلام.

(٢) يشير ﵁ إلى التقسيم القرآني في «سورة الواقعة» لطوائف الخلق يوم القيامة؛ في قوله عز وجل: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ (الواقعة: ٧-١٠).

(٣) فالله تعالى لا يسأل المرء لِمَ أحسن ظنه بل يسأله لِمَ أساء ظنه، ورأس هذا الباب حسن الظن بأنبياء الله تعالى فيما ورد من نسبة معصية من المعاصي إليهم فيجب تأويل ذلك واعتقاد كمالهم وعصمتهم عن الصغائر والكبائر. ويلي ذلك في الخطورة حسن الظن بصحابة سيدنا رسول الله ﷺ فيما شجر بينهم من خلاف، فنحسن الظن بهم ونترضى عنهم جميعًا ونمسك ألسنتنا عنهم.

لم تظفر بحسن الظن والإيمان، وما زال أهل العلم والأخيار والأكابر يلتمسون لكلام هذه الطائفة أحسن المخارج لعلمهم أن بعض كلامها يرتقي عن دائرة العقول، ويشذُّ عن ظواهر النقول، فإما تأويل حسن وإما ظن حسن.

ولقد أخبرني الأخ الصالح الجليل الولي الشيخ عز الدين يوسف بن الواسطي(١) - جدَّدَ اللهُ عليه رحمته ورضوانه، وضاعف له فضله وإحسانه - قال: «كان بناحية قوص والٍ يزور الشيخ الإمام أبا الحجاج الأقصري ﷺ فسمعه وقتًا يقول: جاء في الحديث: «من آذى وليًّا لله فكأنما هَدَمَ الكعبةَ سبعين مرةً»(٢)؛ فاستعظم ذلك الوالي هذا الكلام، ثم اجتمع بالشيخ فخر الدين والد الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد(٣) وكان من العلماء الأكابر، فقال: «يا سيدي، أريد أن تذهب

---

(١) لم أجد له ترجمة للأسف.

(٢) لم أقف عليه، وقريب من لفظه: «لَهَدْمُ الكعبة حَجَرًا حَجَرًا أهونُ من قتل المسلم»، وهذا الأخير قال عنه الحافظ السخاوي في المقاصد (٨٨١) - وتبعه العجلوني في «كشف الخفا» -: «لم أقف عليه بهذا اللفظ، ولكن في معناه ما عند الطبراني في «الصغير» عن أنس رفعه: «من آذى مسلمًا بغير حق فكأنما هدم بيت الله» اهـ ولم أقف عليه في «المعجم الصغير»؛ لكن الصحيح في الباب ما رواه ابن ماجه (٣٩٣٢): «عبد الله بن عمرو قال: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: مَا أَطْيَبَكِ وَأَطْيَبَ رِيحَكِ مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ! وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَحُرْمَةُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ حُرْمَةً مِنْكِ؛ مَالِهِ وَدَمِهِ وَأَنْ نَظُنَّ بِهِ إِلاَّ خَيْرًا». وكان الألباني ذكره في «ضعيف الجامع» (٥٠٠٦)، ثم تراجع وأورده في الصحيحة (٣٤٢٠)، ولفظ صاحب «شعب الإيمان» (٤٠١٤): «مرحباً بكِ من بيتٍ، ما أعظمَكِ، وأعظمَ حرمَتَكِ! وللمؤمنُ أعظمُ حرمةً عند الله منكِ، إن اللهَ حرَّم منكِ واحدةً، وحرَّمَ مِنَ المؤمنِ ثلاثاً: دمَه، ومالَه، وأن يُظَنَّ به ظنُّ السُّوءِ».

(٣) محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري المتفق على أنه المبعوث على رأس المائة السابعة، وتلي ترجمة أبيه في موضع آخر بالكتاب. له المصنفات العديدة أشهرها «شرح عمدة الأحكام»، وشرح

معي إلى زيارة الشيخ أبي الحجاج»؛ فذهبا معًا، فلما حضر الشيخ فخر الدين عند الشيخ أبي الحجاج قال ذلك الوالي للشيخ فخر الدين: يا سيدي، هل جاء في الحديث: «من آذى وليًّا لله فكأنما هدم الكعبة سبعين مرة»[1]، قال: «فقال الشيخ فخر الدين: أما هذا فلا أعلمه، لكني أعلم في هذا الباب ما هو أعظم من هذا: ثبت في الحديث الصحيح [2]: «من آذى وليًا لله فقد حارب الله»[3] وأين محاربة الله من هدم الكعبة؟!»، فقال إذ ذاك الشيخ أبو الحجاج: «تجالسني بالخيانة! لتجدنَّ غِبَّها[4]». فقال: «يا سيدي، في الدنيا؟» قال: «في الدنيا». قال: «فما زالت السَّنَة حتى رأىٰ في نفسه وماله أمرًا عظيمًا».

فانظر -وفَّقَكَ اللهُ تَعَالَى- إلى توفيق هذا العالم في الوفاء بحق الله ورعاية العلم وحفظ أدب الحديث والتأدب مع أولياء الله تعالى؛ فصحَّحَ ما قاله الشيخ أبو الحجاج وأكَّده من حيث المعنىٰ، وأعطى العلم حقه والأدب حقه.

وكما جاء عن ابن سريج[5] إمام الشافعية: أنه جِيء به ليسمع كلام

كتاب «الإلمام» ونال به الثناء العظيم، وله شرح على الأربعين النووية وله غير ذلك كثير. توفي ﷺ سنة ٧٠٢ وترجم له المقريزي ترجمة حافلة في «المقفى» فلتنظر للزيادة: ٦/ ١٩٦-٢٠٧.

(١) سبق تخريجه.

(٢) زيادة من المطبوع.

(٣) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وفي صحيح البخاري (٦١٣٧): بلفظ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ».

(٤) أي مغبتها وعاقبتها.

(٥) بالأصول: ابن شريح، تصحيف. والصواب ما أثبتناه سابقًا. والحكاية وردت في الرسالة القشيرية متعلقة بالإمام الجنيد ﷺ لا بالإمام الشبلي ﷺ.

الشبلي[1]؛ فجاء فسمعه؛ فقيل له: «ما تقول فيه؟» فقال: «أسمع كلامًا له صولة ليست بصولة مبطل»، فحَسَّنَ العبارة وأجمل التأويل، ولم يُبْد نكيرًا.

فما أمكن الإنسان أن يُحْسِنَ الظنَّ ويلتمسَ مخرجًا لمن ينسب لولاية الله تعالى كان أولىٰ فيما أشكل ظاهره؛ فكيف بما لم يشكل وهو ظاهر جلي لمن تأمل؟!

[حرمة المؤمن أعظم عند الله تعالىٰ من حرمة الكعبة]

وقد جاء حديث يدل لما قال الشيخ أبو الحجاج ﷺ رواه الترمذي في باب «تعظيم حرمة المؤمن» عن ابن عمر...، ذكر حديثًا، وقال في آخره: «إنَّ ابن عمر نظر إلى البيت أو الكعبة فقال: «ما أعظمك وأعظم حرمتك! وللمؤمن أعظم حرمة عند الله منك». وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب[2].

وذكر أبو طالب المكي[3] في كتاب «القوت» له عن بعض السلف أنه قال: «إن الله تعالى شرَّف الكعبة وعظَّمها، ولو أنَّ عبدًا هدمها وأحرقها ما بلغ جُرْمَ مَن استخفَّ بوليٍّ من أولياء الله عز وجل، قيل له: «وَمَنْ أولياءُ الله؟» قال: «كُلُّ مؤمن»، أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ (البقرة: ٢٥٧)».

---

(١) انظر الحاشية الأولى.

(٢) حديث صحيح، أخرجه الترمذي (٢٠٣٢) موقوفًا على ابن عمر ﷺ. وقد صح الحديث مرفوعًا من طريقه أخرجه ابن ماجه (٣٩٣٢) ولفظه: «عبد الله بن عمرو قال رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: مَا أَطْيَبَكِ وَأَطْيَبَ رِيحَكِ مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَحُرْمَةُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ حُرْمَةً مِنْكِ مَالِهِ وَدَمِهِ وَأَنْ نَظُنَّ بِهِ إِلاَّ خَيْرًا».

(٣) العارف بالله محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي بلداً العجمي الأصل، صاحب «قوت القلوب» من أمهات كتب التصوف وعليه اعتمد كثيراً الإمام الغزالي في «الأحياء»، وكان صاحب عبادة وزهادة ورواية للحديث. توفي سنة ٣٨٦.

هذا في عموم المؤمنين؛ فما ظنك بالأولياء المقربين؟! جَعَلَنَا اللهُ تعالى وإيَّاك من هُدِي إلى سبيل المتقين، وشرح صدورَنا لمعرفة أوليائه المقربين، وصلى الله على سيد الأولين والآخرين محمد خاتم النبيين وآله وصحبه أجمعين.

الفصل الأول

في شيء من ذكر بعض أوصاف قائل هذا الدعاء، وجلالة مقداره، وفخامة منزلته، وظهور أنواره

فإنَّ صاحب النور[1] الذي قُسِمَ له نصيبٌ [من][2] سعادة إذا ذُكِرَ له شيءٌ من صفات الأكابر ولو طرفًا من أخبارهم، ولاح له لامع[3] من بروق أنوارهم هشَّ بقلبه إليها، وأقبل بالودِّ عليها، وذلك لوجود المجانسة الحقيقية لِما جاء في الحديث: «الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ»[4]؛ فأهل السعادة يعرف بعضهم صفات بعض؛ كما قيل:

يَعْرِفُهُ الْبَاحِثُ عَنْ جِنْسِهِ   وَسَائِرُ النَّاسِ لَهُ مُنْكِرُ

وذلك معلوم عند أهله.

فهو السيد الأجل الكبير، القطب العارف الوارث، المحقق الرباني، صاحب الإشارات العليّة، والعبارات السنية، والحقائق القدسية، والأنوار المحمدية، والأسرار الربانية، والهمم العرشية، والمنازلات الحقيقية، الحامل في زمانه لواء العارفين، والمقيم فيه دولة علوم المحققين، كهف قلوب السالكين، وقبلة همم المريدين، وزمزم أسرار الواصلين، وجلاء قلوب الغافلين، منشئ معالم الطريقة بعد خفاء آثارها، ومُبْدي علومَ الحقيقة بعد خُبُو أنوارها، ومُظْهِر عوارف المعارف

---

(١) أي نور الفهم والتصديق.

(٢) سقط من ب.

(٣) ج: بارق.

(٤) متفق عليه: البخاري (٣١٥٨) من حديث أم المؤمنين عائشة ﵂، مسلم (٢٦٣٨) من حديث أبي هريرة ﵁.

بعد خفائها واستتارها، الدَّال على الله تعالى وعلى سبيل جنته، والداعي على علم وبصيرة إلى جنابه وحضرته، أوحد أهل زمانه علمًا وحالاً، ومعرفة ومقالاً-

قُطْبُ الْوَرَىٰ غَوثُهَا(١) وَجَامِعُهَا زَيــنُ طَرِيــقِ الرِّجَــالِ سَــيِّدُهَا
قُطْـبُ رَحَاهَـا وَرَئِيسُ مَجْلِـسِهَا جُمْلَــةُ تَفْـــصِيلِهَا وَأَوحَــــدُهَا
شَـمْسُ ضُـحَاهَا، هِـلَالُ لَيلَتِهَـا دُرُّ مَقَاصِــــيرِهَا(٢)، زَبَرْجَــــدُهَا

الشريف الحسيب النسيب، ذو النسبتين الطاهرتين: الجسدية والروحية، والسلالتين الطيبتين: الغيبية والشهادية، والولادتين الكريمتين: الملكية والملكوتية، المحمدي العلوي، الحسني الفاطمي، الصحيح النسبين، والكريم العنصرين، فحل الفحول إمام السالكين: عليٌّ الشاذلي.

الَّــذِي تُغْنِيــكَ سُــمْعَتُهُ عَــنْ مَــدْحِ مُمْتَــدِحٍ أَو قَــولِ مُنْتَحِـلِ

الأستاذ المربي الكامل: أبو الحسن علي الشاذلي ابن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن عزيز بن الخاتم بن قصي بن يوسف بن يوشع بن ورد بن بطال بن أحمد بن محمد بن عيسى بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ.

---

(١) الغوث: هو القطب من جهة كونه مَفْزَعَ الناس في حاجاتهم لكونه محل نظر الله تعالى من خلقه ومهبط رحمته إليهم، فهو قطب وغوث وراثةً للنبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم. وفي معنى الغوثية ورد في الحديث قول الأعرابي للنَّبِيِّ ﷺ:

وَلَــيْسَ لَنَــا إِلَّا إِلَيْــكَ فِرَارُنَــا وَأَيْــنَ فِــرَارُ النَّــاسِ إِلَّا إِلَى الرُّسُــلِ

فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَجُرُّ رِدَاءَهُ، حَتَّى صَعَدَ الْمِنْبَرَ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اسْقِنَا غَيْثًا مُغِيثًا مَرِيئًا مَرِيعًا...» الحديث، رواه بهذا اللفظ البيهقي في الدلائل (٢٣٨٦)، وقال الحافظ في الفتح: فيه ضعف ولكن صالح للمتابعة، ورواه بلفظ قريب أبو داود وابن ماجه والطبراني وغيرهم.

(٢) المَقْصُورَةُ: الدَّارُ الواسِعَة المُحَصَّنة بالحِيطَانِ، أَو هِيَ أَصْغَرُ من الدّارِ، وقال اللَّيْث: المَقْصُورَة: مَقَامُ الإِمَامِ. (تاج العروس/ ق ص ر).

جاء في طريق الله تعالى بالأسلوب العجيب، والمنهج الغريب والمسلك العزيز القريب، جمع في ذلك بين العلم والحال، والهمة والمقال، واشتملت طريقته على السلوك والجذب والمجاهدة والعناية، واحتوت على الأدب والقرب والتسليم والرعاية، شُيِّدَت بالعِلْمين الظاهر والباطن من سائر أطرافها، وقُرِنَت بصفات الكمال شريعةً وحقيقةً من جميع أكنافها، تيامنت عن سُكْرٍ يؤدي إلى تعدِّي الآداب الشرعيات، وتياسرت عن صحوٍ يفضي إلى انحجاب الألباب عن ملاحظة حقائق التوحيد وأسرار المشاهدات، وتسامت عن انقباض يوقع في الانكماش وسوء الظن ويحجب عن روح الرجاء ولذاذة الشوق والطلب، وترامت عن انبساط ينزل بصاحبه عن مقام الاحتشام والحياء ويئول به إلى سوء أدب، واستوت بتوفيق الله تعالى في نقطة الاعتدال، وظفرت بهدايته دون كثير من الطرق بين التوسط والكمال- شعر [كما قيل](1):

تَمَسَّك بِحَبْلِ الشَّاذِلِيَّةِ تَلْقَ مَا ... تَرُومُ وَحَقِّق ذَا الرَّجَاءِ وَحَصِّلِ
وَلَا تَعْدُوَنْ عَيْنَاكَ عَنْهُم فَإِنَّهُم ... شُمُوسُ هُدَىً فِي أَعْيُنِ المُتَأَمِّلِ

وقد قيل في وصف هذه الطائفة كثيرٌ من الشعر يتضمن التنبيه على عِظَمِ قَدْرِهَا؛ فإنَّ الشِّعْرَ سِلكٌ ينتظم فيه درر الصفات، وتنجلي في مرآته محاسنُ الهيئات، ويهز الطباع الذكية بالمعاني العلية، ويُشَجِّع جبان(2) الفهوم، ويُهيئ الطبع الإنساني لقبول ما اندفع في الوزن المنظوم(3).

---

(1) زيادة من ط.

(2) في المطبوع: حيات.

(3) ويجمع هذا كله في فضل ما يجوز من الشعر وأزيد قوله - صلى الله عليه وآله وسلم -: «إنَّ مِن الشِّعْرِ حِكْمَةً». والحديث خرَّجه البخاري (رقم ٥٧٩٣) من طريق سيدنا أُبَيِّ بن كعب ﷺ.

[قصيدة الإمام البوصيري ﷺ في مدْح الشاذلية، وبيان معاني السلوك]

والمقصود الاختصار دون التوسع والاستكثار، فأثبت من ذلك قصيدة الأديب الفقيه الفاضل المجيد الشيخ شرف الدين البوصيري[1] ﷺ لوجود شهرته، وتحقيق فضيلته، ولما تضمنته هذه القصيدة من جودة النظم ومحاسن المعاني من التنبيه على أشياء في السلوك والطريق، ومعاني التوصل إلى علم التصوف والتحقيق، وهي هذه:

كَتَبَ المَشِيبُ بأَبْيَضٍ في أَسْوَدِ ... بغْضاءَ ما بَيْني وبينَ الخُرَّدِ[2]
خَجِلَتْ عُيُونُ الحُورِ حِينَ وصَفْتُها ... وصْفَ المَشيبِ وقُلْنَ لي لا تَبْعدِ
ولِذاكَ أَظْهَرَتِ انْكِسَارَ جُفُونِها ... دَعْدٌ[3] وآذَنَ خَدُّها بِتَوَرُّدِ
يا جِدَّةَ الشَّيْبِ الَّتِي ما غادَرَت ... لِنُفُوسِنَا مِنْ لَذَّةٍ بمجدَّدِ
ذَهَبَ الشَّبابُ وسَوْفَ أَذْهَبُ مِثْلَما ... ذَهَبَ الشَّبَابُ وَمَا امْرؤٌ بِمُخَلَّدِ

---

(١) السيد أبو عبد الله شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد البوصيري، ولد ﷺ بدلاص بصعيد مصر لأبوين هاجرا من المغرب، وحفظ القرآن والمتون، ثم رحل إلى الأزهر وتلقى على أكبر الشيوخ، وبرع في النظم حتى فاق أهل عصره. ثم انقطع للتصوف وتلقى الشاذلية عن سيدي أبي العباس المرسي ﷺ وسلك حتى تحقق واكتسى بأنوار الولاية. وقصيدته البردة هي أشهر قصائد المديح بل من أشهر قصائد العربية على الإطلاق، وتليها في الشهرة همزيته وهي في مدح النبي ﷺ. توفي سنة ٦٩٤ ودفن بالإسكندرية قرب مسجد السيد المرسي، وضريحه بمسجد ظاهر يزار. نفعنا الله به. «طبقات الشاذلية الكبرى»: ٧٩-٨٠ بتصرف وزيادة.

(٢) الخَرِيدَةُ من النساء: الحَيِيَّةُ، والجمع خَرائد وخُرُدٌ. وربما قالوا جارية خَرودٌ: أي خَفِرَةٌ. ابن الأعرابي: لُؤْلُؤَةٌ خَريدةٌ: لم تُثقَبْ. قال: وكلُّ عذراة خريدةٌ.(الصحاح في اللغة/ خَرَصَ).

(٣) من نشأت في نعمة وكسيت أحسن كسوة.(لسان العرب/ دَعَدَ). وفي المطبوع (رغدًا) عيشة واسعة طيبة(القاموس المحيط/ فصل الراء).

إنَّ الفَنَــاءَ لكـــلِّ حَـــيٍّ غَايَـــةٌ مَحْتُومَـــةٌ إنْ لَمْ يَكُـــنْ فَكَـــأَنْ قَــدِ
وارْحَمْتَـــا لِمُـــصَوَّرٍ مُتَطَـــوِّرٍ في كُـــلِّ طَـــورٍ صـــورَةَ المُـــتَرَدِّدِ
قَذَفَتْ به أَيـدِي النَّـوَىٰ مِـنْ حَـالِقٍ سَامِي المَحَلِّ إلى الحَضِيضِ الأوهَـدِ[1]
مُـــسْتَوْحِشٍ فِي أُنْـــسِهِ مُتعاهِـــدٌ بحنينِـــهِ شَـــوقًا لأَوَّلِ مَعْهَـــدِ
يَـــا لَيْتَـــهُ لَـــوْ دامَ نَـــسْيًا مَـــا لَـــهُ مِـــنْ ذَاكِـــرٍ أَوْ أَنَّـــهُ لَمْ يُولَـــدِ
حَمَـلَ الهَـوَىٰ جَهْـلاً بأَثْقَـالِ الهَـوَىٰ مُـــسْتَنْجِدًا بعزيمـــةٍ لم تُنْجِـــدِ
مَـــا إنْ يَـــزَالُ بِـــمَا تَكَلَّـــفَ حَمْلَـــهُ فِي خُطَّتَـي خَـسْفٍ يَـرُوحُ وَيَغْتَـدِي
غَرَضًـــا لأَمْـــرٍ لا تَطِـــيشُ سِـــهامُهُ ومُعَرَّضًـــا لِمُعَنِّـــفٍ ومُفَنِّـــدِ
وَخَلِيفَـــةً فِي الأرضِ إلَّا أَنَّـــهُ مُتَوَعَّـــدٌ فيهـــا وعيـــدَ الهُدْهُـــدِ
وَجَـبَ الـسُّجُودُ لـهُ فلـما أنْ عـصَىٰ قَالَـتْ خطيئتُـهُ لـهُ: اركَـعْ واسْـجُدِ
وَنَبَـتْ بِـهِ الأَوطَـانُ فَهْـوَ بِغُرْبَـةٍ مَـــا بَـــيْنَ أَعْـــدَاءٍ يَـــسِيرُ وحُـــسَّدِ
أَنْفَاسُـهُ تُحْـصَىٰ عَلَيْـهِ وعِلْـمُ مَـا يُفْـضِي إليـه غـدًا، لَـهُ حُكْـمُ الغـدِ
أَبَـــداً تَـــرَاهُ واجِـــدًا أَوْ عادِمًـــا فِي حَـــيْرَةٍ لَفَظَاتُهـــا لم تُنْـــشَدِ
يَرْمِـي بِـهِ سَـهْلاً وَوَعْـرًا زاجِـرًا بَطْـــنُ المِـــسَنِّ بِـــهِ كَظَهْـــرِ المِـــبْرَدِ
مُتَخَوِّفًـــا منـــه المـــصيرَ لِمَنْـــزِلٍ مُـــسْتَوْبِلِ المَرْعَـــىٰ وبيـــلِ المَـــوْرِدِ
مَـــا إنْ رأىٰ الجـــاني بِـــهِ أَعْمَالَـــهُ إلَّا تَمَنَّـــى أَنَّـــهُ لَمْ يولَـــدِ
حَـسْبي لَـهُ حُـبُّ النبـيِّ وآلِـهِ عِنْـــدَ الإِلَـــهِ وسِـــيلَةً لَمْ تُـــرْدَدِ
فَـــإذا أَجَبْـــتَ سُـــؤَالَهُ فِي آلِـــهِ سَـلْ تُعْـطَ واسْـتَمْدِد فَلاحًـا تُمْـدَدِ
وأْمَـنْ إذَا قَـامَ النَّبِـيُّ مَقَامَـهُ الـ ـمَحْمُودَ في الأَمْـرِ المُقِـيمِ المُقْعِـدِ
وتَـزَوَّد التَّقْـوَىٰ فَـإنْ لَمْ تَـسْتَطِعْ فَمِـنَ الـصَّلاةِ عَـلَى النَّبِـيِّ تَـزَوَّدِ

---

(١) الوهد: الأرض المنخفضة والحفرة. (الوسيط/ باب الواو).

صَلَّى عَلَيْهِ اللهُ إِنَّ صَلَاةَ مَنْ … صَلَّى عَلَيْهِ ذَخِيرَةٌ لَمْ تَنْفَدِ

وَاسْمَعْ مَدَائِحَ آلِ بَيْتِ المصطَفَى … مِنِّي وَدُونَكَ جَمْعُهَا فِي الْمُفْرَدِ

صِنْوُ النَّبِيِّ أَخُو النبيِّ وزِيرُهُ … وَوَلِيُّهُ فِي كُلِّ خَطْبٍ مُؤَيِّدِ(١)

جَدُّ الإِمامِ الشَّاذِلِيِّ المُنْتَمِي … شَرَفًا إليهِ لِسَيِّدٍ عَنْ سَيِّدِ

أَسْمَاؤُهُم عِشْرُونَ دُونَ ثَلَاثَةٍ … جَاءَتْ عَلَى نَسَقٍ كَأَحْرُفِ أَبْجَدِ

لِعلِي الحَسَنُ انْتَمَى لِمُحَمَّدٍ … عِيسَى وسِرُّ مُحَمَّدٍ فِي أَحْمَدِ

وَاخْتَارَ بَطَّالٌ لِوَرْدٍ يُوشَعًا … وبِيُوسُفٍ وافَى قُصَيٌّ يَقْتَدِي

وبِحاتِمٍ فُتِحَتْ سِيادَةُ هُرْمُزٍ … وغَدا تَمِيمٌ لِلْمَكَارِمِ يَهْتَدِي

وبِعَبْدِ جَبَّارِ السَّمَواتِ انْتَضَى … لِلْفَضْلِ عبد الله أَيَّ مُهَنَّدِ(٢)

وأَتَى عَلِيٌّ فِي العُلَا يَتْلُوهُمُ … فَاخْتِمْ بِهِ سُورَ العُلَا وَالسُّؤْدُدِ

أعْنِي أَبا الحَسَنِ الإِمامَ المُجْتَبَى … مِنْ هَاشِمٍ وَالشَّاذِلِيَّ المَوْلِدِ

إِنَّ الإِمَامَ الشَّاذِلِيَّ طَرِيقُهُ … فِي الفَضْلِ وَاضِحَةٌ لِعَيْنِ المُهْتَدِي

فانْقُلْ وَلَوْ قَدَمًا عَلَى آثَارِهِ … فَإِذَا فَعَلْتَ فَذَاكَ أَخْذٌ بِاليَدِ

واسْلُكْ طَرِيقَ مُحَمَّدِيٍّ شَرِيعَةٍ … وَحَقِيقَةٍ ومُحَمَّدِيِّ المَحْتِدِ

مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ سَنَاهُ يَلُوحُ مِنْ … مِصْبَاحِ نُورِ نُبُوَّةٍ مُتَوَقِّدِ

فَتْحٌ أَتَى طُوفانُهُ بِمَعَارِفٍ … تَنُّورُهَا جُودِيُّ كُلِّ مُوَحِّدِ

قَدْ نَالَ غَايَةَ مَا يَرُومُ المُنْتَهِي … مِنْ رَبِّهِ وَلَهُ اجتهادُ المُبْتَدِي(٣)

---

(١) المقصود في هذا البيت والأبيات التالية سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه.

(٢) الأسماء الواردة في هذا البيت والأبيات التي قبله هي أسماء أجداد الإمام الشاذلي من عامود نسبه الحسني العلوي.

(٣) المقصود من البيت أن الإمام أبا الحسن الشاذلي ﷺ جمع بين السلوك والجذب.

مُتَمَكِّنٌ في كُلِّ مَشْهَدِ دَهْشَةٍ أَوْ وَقْفَةٍ ما فَوْقَها مِنْ مَشْهَدِ
مَنْ لا مَقامَ لَهُ فَإِنَّ كَمالَهُ لِلنَّاسِ يُرْجِعُهُ رُجُوعَ مُقَلِّدِ
قُلْ لِلْمُحاوِلِ في الدُّنُوِّ مَقامَهُ ما العَبْدُ عِنْدَ اللهِ كالْمُتَعَبِّدِ
وَالفَضْلُ لَيْسَ يَنالُهُ مُتَوَسِّلٌ بِتَوَرُّعٍ حَرِجٍ وَلا بِتَزَهُّدِ
إِنْ قالَ ذاكَ هُوَ الدَّواءُ فَقُلْ لَهُ كُحْلُ الصَّحيحِ خِلافُ كُحْلِ الأَرْمَدِ
يَمْشي الْمُصَرَّفُ حَيْثُ شاءَ وَغَيْرُهُ يَمْشي بِحُكْمِ الحَجْرِ حُكْمَ مُصَفَّدِ
مَنْ كانَ مِنْكَ بِمَنْظَرٍ وَبِمَسْمَعٍ أَلْجُالُ منه عَلَى حَدِيثٍ مُسْنَدِ
لِكِلَيْهِما الحُسْنَىٰ وَإِنْ لَمْ يَسْتَوُوا في رُتْبَةٍ فَقَدِ اسْتَوَوْا في المَوْعِدِ
كُلٌّ لِما شاءَ الإِلهُ مُيَسَّرٌ وَالنَّاسُ بَيْنَ مُقَرَّبٍ وَمُشَرَّدِ
وَإِذا تَحَقَّقَتِ الْعِنايَةُ فَاسْتَرِحْ وَإِذا تَخَلَّفَتِ العِنايَةُ فَاجْهَدِ
أَفْدي عَلِيًّا في الوُجُودِ وَكُلُّنا بِوُجُودِهِ مِنْ كُلِّ سُوءٍ نَفْتَدي
قُطْبُ الزَّمانِ وَغَوْثُهُ وَإِمامُهُ عَيْنُ الوُجُودِ لِسانُ سِرِّ الْمُوجِدِ
سادَ الرِّجالَ فَقَصَّرَتْ عَنْ شَأْوِهِ هِمَمُ الْمُؤَوِّبِ لِلْعُلا وَالْمُسْئِدِ
فَتَلَقَّ ما يُلْقِي إِلَيْكَ فَنُطْقُهُ نُطْقٌ بِرُوحِ القُدْسِ أَيِّ مُؤَيَّدِ
إِمَّا مَرَرْتَ عَلى مَكانِ ضَريحِهِ وَشَمِمْتَ رِيحَ النَّدِّ مِنْ تُرْبِ النَّدِ
وَرَأَيْتَ أَرْضًا في الفَلا مُخْضَرَّةً مُخْضَلَّةً مِنْها بِقاعُ الفَدْفَدِ[1]
وَالْوَحْشُ آمِنَةٌ لَدَيْهِ كَأَنَّها حُشِرَتْ إِلى حَرَمٍ بِأَوَّلِ مَسْجِدِ
وَوَجَدْتَ تَغْطِيًا بِقَلْبِكَ لَوْ سَرَىٰ في جَلْمَدٍ سَجَدَ الوَرَىٰ لِلجَلْمَدِ
فَقُلِ السَّلامُ عَلَيْكَ يا بَحْرَ النَّدَى الـ ـطَّامِي وَيا بَحْرَ الْعُلُومِ الْمُزْبِدِ
يا وارِثًا بِالفَرْضِ عِلْمَ نَبِيِّهِ شَرَفًا وَبِالتَّعْصِيبِ غَيْرَ مُفَنَّدِ

---

(١) الفدفد: الأرض الواسعة المستوية لا شيء بها. (الوسيط/ باب الفاء)

الْيَـــوْمَ أَحْمَـــدُ مِـــنْ عَـــلِيٍّ وَارِثٌ حَظِّــيَ عَــلِيٌّ مِـــنْ وِراثَــةِ أَحْمَــدِ
يُعـزَىٰ الإِمـامُ إِلَى الإِمـام وَيَقْتَـدِي لِلمُبتَـدى بِهُـدَاهُ فـضلُ المُقْتَـدِي
وَالمَـــرءُ فِي مِيراثِــــهِ أَتْبَاعُـــهُ فاقْـــدِرْ إِذَنْ فـــضلَ النبـــيِّ مُحَمَّـــدِ
خـيرِ الـــوَرَىٰ صـــلَّى عليـه الله مـا صَـدَعَ الأَسَـىٰ قَلْبًـا بِـسَجْعِ مُغَـرِّدِ
وسَرَىٰ السُّرُورُ إِلَى القلـوبِ فَهَزَّهـا مَسْرَىٰ النَّسِيمِ إِلَى القَـضِيبِ الأَمْلَـدِ[1]
شَـــوْقًا لِمُرْسِـيَّةٍ رَمَـــتْ آساسَـــها بعَــلِي أَبي العَبَّــاسِ فَــوْقَ الفَرْقَــدِ[2]
اليَـــوْمَ قَـــامَ فَتَـــىٰ عَـــلِيٍّ بَعْـــدَهُ كَـــيمَا يُبَلِّـــغَ مُرْشِـــدًا عَـــنْ مُرْشِـــدِ
فكَــأَنَّ يُوشَــعَ بعــدَ موســى قــائِمٌ بِطَرِيقِـــهِ المُـــثْلَىٰ قِيَـــامَ مُؤَكِّـــدِ
فليقــصِدِ المُتَمَــسِّكُونَ بِحَبْلِــهِ دارَ البقـــاءِ مِـــنَ الطَّرِيـــقِ الأَقْـــصَدِ
فــإِذَا عزمْــتَ عــلى اتِّبــاعِ سَبِيلِهِ فَاسْمَعْ كلامَ أَخِـي النَّصيحَةِ تَرْشُـدِ
فنِظَـــامُ أَعْـــمَالِ التُّقَـــىٰ آدابُهـــا فاصْحَـب بهـا أَهْـلَ التُّقَـىٰ والـسُّؤْدَدِ
وَتَجَنَّـــبِ التَّأْوِيـــلَ فِي أَقْـــوالِ مَـــنْ صـاحَبْتَ مِـنْ أَهْـلِ الـسعادَةِ تَـسْعَدِ
قَـــدْ فـــرَّقَ التَّأْوِيـــلُ بَـــيْنَ مُقَـــرَّبٍ يَـــوْمَ الـــسُّجُودِ لآدَم ومُبَعَّـــدِ
وَحَـــذَارِ أَنْ يَثِـــقَ المُرِيـــدُ بِنَفْـــسِهِ وَاحْـزِمْ فـما الإِصْـلاحُ شَـأْنُ المُفْـسِدِ
فالوَصْـفُ يَبْقَـى حُكْمُـهُ مَـع فَقْـدِهِ وَالمَـــرْءُ مَـــرْدُودٌ إِذَا لَمْ يُفْقَـــدِ
إِنَّ الــضَّنِينَ بِنَفْــسِهِ فِي الأَرضِ لا يَلْـوِي عَـلَى أَحَـدٍ ولَـيسَ بمُـصعِدِ
ويظُــنُّ إِنْ رَكَــدَتْ سَــفِينَتُهُ عَــلَىٰ أَمْوَاجِهـــا ورِياحِهـــا لَمْ تَرْكُـــدِ
فاصْـحَبْ أَبـا العَبَّـاسِ أَحمـدَ آخِـذًا يَــدَ عــارِفٍ بِهَــوَىٰ النُّفُــوسِ مُنَجِّــدِ
فــإِذَا سَــقَطْتَ عَــلَى الخَبِـيرِ بِـدَائِها فَاصْـــبِرْ لِمُـــرِّ دَوَائِـــهِ وَتَجَلَّـــدِ

---

(١) الأملد: الناعم اللين من الناس ومن الغصون. (الوسيط / باب الميم).

(٢) الفرقد واحد الفرقدين، وهما نجمان قريبان من القطب. (الصحاح في اللغة/ فرنق).

وإذَا بَلَغتَ بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ مِنْ عِلْمَيْهِ فانْقَعْ غُلَّةَ القَلْبِ الصَّدِي
فَمَتَىٰ رَأىٰ مُوسَىٰ الإرادَةَ عِندَهُ خِضرُ الحقيقةِ نَالَ أقصىٰ المَقصِدِ
وإذَا الفَتَىٰ خُرِقَتْ سَفِينَةُ جِدِّهِ لِنَجَاتِهَا وجَدَ الأسَىٰ غيرَ الدَّدِ[1]
وتَبَدَّلَتْ أَبَوا الغُلام بِقَتْلِهِ بـأبرَّ مِنهُ لِوَالِدَيْهِ وأرْشَدِ
وَأُقِيمَ مُنْتَقِضُ الجِدارِ وَتَحْتَهُ كَنْزُ الوُصُولِ إلى البقاءِ السَّرْمَدِي
فلْيَهنِ جَمْعًا في الفِراقِ ووُصْلَةً مِنْ قاطِعٍ وترَقِّيًا مِنْ مُخْلِدِ
مُغْرىً بِقَتْلِ النَّفسِ عَمْدًا وهْوَ لا يُعْطَىٰ إلىٰ القَوَدِ القِيادَ ولا اليَدِ
للهِ مَقْتُولٌ بِغَيرِ جِنايَةٍ كَلِفٌ بِحُبِّ القاتِلِ المُتَعَمِّدِ
مـا زالَ يَعْطِفُها عَلَىٰ مَكْرُوهِها حتَّىٰ زَكَتْ وَصَفَتْ صفَاءَ العَسْجَدِ[2]
وأجِيبَ داعِيها لِرَدِّ مُشَرَّدٍ مِنْ أمْرِها طَوْعًا وَجَمعِ مُبَدَّدِ
لَمْ تَتْرُكِ التَّقْوَىٰ لها مِنْ عَادَةٍ أَلِفَتْ ولا لِمَرِيضِها مِنْ عُوَّدِ
وَلْتَهْنِ أحْمَدَ كيمياءُ سَعَادَةٍ صَحَّتْ فلا نارٌ عَلَيهِ تَخْتَدِي
جَعَلَتْهُ لَمْ يَرَ لِلحَقِيقةِ طَالبًا إلّا يَمُدُّ إليهِ راحَةَ مُجْتَدِي[3]
ألْفَاظُهُ مَبْذُولَةٌ بَذْلَ الحَيَا وَمَصُونَةٌ صَونَ العَذَارَىٰ الخُرَّدِ
كلٌّ يَرُوحُ بِشُرْبِ رَاحِ عُلُومِهِ طَرَبًا كَغُصْنِ البانَةِ المُتَأوِّدِ[4]
ضَمِنَ الوَقارَ لها اعتِدالُ مِزاجِها فَشَرَابُها لا يَنْبَغِي لِمُعَرْبِدِ
فَضَحَتْ مَعارِفُها مَعارِفَ غَيرِها والزَّيفُ مَفْضُوحٌ بِنَقْدِ الجَيِّدِ

---

(١) الدَّدُ: اللَّهْوُ واللَّعِبُ. (المحيط/ فصل الدال).

(٢) العَسْجَدُ: الذَّهَبُ والجَوْهَرُ كُلُّه كالدُّرِّ والياقوتِ. (المحيط/ فصل العين).

(٣) المجتدِي طالب الجدوى والفائدة. وهي اسم فاعل من اجتدى.

(٤) وهو العطف والانثناء، أَدْتُ الشيءَ عطفتُه، وتأوَّدَ النَبْتُ مثلُ تعطَّفَ وتعوَّج. (مقاييس اللغة/ أوَدَ).

كَشَفَتْ لَهُ الأَسْمَاءُ عَنْ أَسْرَارِهَا ... فَإِذَا الوُجُودُ لِمُقْلَتَيْهِ بِمَرْصَدِ
وأَرَتْهُ أَسْبَابَ القَضَاءِ مُبِينَةً ... لِلْمُسْتَقِيمِ بِعِلْمِهَا وَالمُلْحِدِ
تَأْبَى عُلُومُكَ يَا فَتَى غَيْرَ الَّتِي ... هِيَ فَتْحُ غَيْبٍ فَتْحُهُ لَمْ يُسْدَدِ
قُلْ لِلَّذِينَ تَكَلَّفُوا زِيَّ التُّقَى ... وَتَحَيَّرُوا لِلدَّرْسِ أَلْفَ مُجَلَّدِ
لا تَحْسَبُوا كُحْلَ العُيُونِ بِحِيلَةٍ ... إِنَّ المَهَا لَمْ تَكْتَحِلْ بالإِثْمِدِ(١)
مَا النَّحْلُ ذَلَّلَتِ الهِدَايَةِ سُبْلَهَا ... مِثْلَ الحَمِيرِ تَقُودُهَا لِلْمَوْرِدِ
مَنْ أَمْلَتِ التَّقْوَى عليهِ وأَنْفَقَتْ ... يَدُهُ مِنَ الأَكْوَانِ لا مِنْ مِزْوَدِ(٢)
وأَبِيكَ مَا جَمَعَ المَعَالِيَ وادِعًا ... جَمْعَ الأُلُوفِ مِنَ الحِسَابِ عَلَى اليَدِ
إِلَّا أَبُو العَبَّاسِ أَوْحَدُ عَصْرِهِ ... أَكْرِمْ بِهِ فِي عَصْرِهِ مِنْ أَوْحَدِ
أَفْتَتْهُ فِي التَّوْحِيدِ هِمَّةُ مَاجِدٍ ... شَذَّتْ مَقَاصِدُهَا عَنِ المُتَشَدِّدِ
ولَهُ سَرَائِرُ فِي العُلَا خَطَّارَةٌ ... خَطَّارُهَا ورِكَابُهَا لم تُشْدَدِ(٣)
فَالمُسْتَقِيمُ أَخُو الكَرَامَةِ عِنْدَهُ ... لا كُلُّ مَنْ رَكِبَ الأُسُودَ بِأَسْوَدِ
وَأَجَلُّ حَالِ مُعَامِلٍ تَبَعِيَّةٌ ... أُخِذَتْ إِلى أَدَبِ المُرِيدِ بِمِقْوَدِ
فَأَتَى مِنَ الطُّرْقِ القَرِيبِ مَنَالُهَا ... وأَتَى سِوَاهُ مِنَ الطَّرِيقِ الأَبْعَدِ
سَيْفٌ مِنَ الأَنْصَارِ مَاضٍ حَدُّهُ ... فَاضْرِبْ بِهِ فِي النَّائِبَاتِ وهَدِّدِ
أُثْنِي عَلَيْهِ بِبَاطِنٍ وَبِظَاهِرٍ ... لا سِرَّ منه بِمُغْمَدٍ ومُجَرَّدِ
مِنْ مَعْشَرٍ نَصَرُوا النَّبِيَّ وَسَابَقُوا ... مَعَهُ الرِّيَاحَ بِكُلِّ نَهْدٍ أَجْرَدِ(٤)

---

(١) الإثمد: عنصر معدني بلوري الشكل قصديري اللون صلب هشٌّ يوجد في حالة نقية وغالبًا متحدًا مع غيره من العناصر، يُكتحل به. (الوسيط/ باب الثاء)

(٢) المزود: وعاء الزاد. (الوسيط/ باب الزاي).

(٣) الخطَّارُ: المِقلاعُ. (لسان العرب/ خَطَرَ).

(٤) الأَجْرَدُ: السَّبَّاق، أي الّذي يَسبِق الخَيلَ ويَنجردُ عنها لسُرْعَته.(تاج العروس/ جَرَدَ)، ويقال:

وَثَنَوْا أَعِنَّتَهُمْ وَقَدْ تَرَكُوا الْعِدَا بِالطَّعْنِ بَيْنَ مُجَدَّلٍ ومُقَدَّدِ[1]
وبِكُلِّ أَسْمَرَ أَزْرَقٍ فُولاذُهُ وبِكُلِّ أَبْيَضَ كَالنَّجِيعِ مُوَرَّدِ[2]
شَهِدَ النَّهَارُ لِفَاضِلٍ بِمُسَدَّدٍ مِنْ رأيِهِ ولِطَاعِنٍ بِمُسَدَّدِ
وتَمَخَّضَتْ ظُلَمُ اللَّيَالِي منهمُ عَنْ رُكَّعٍ لا يَسْأَمُونَ وسُجَّدِ
خَافَ الْعَدُوُّ مَغِيبَهُم لِشُهُودِهِم والموتُ يَكْمُنُ فِي الحُسام المُغْمَدِ
السَّاتِرُوا العَوْرَاتِ مِنْ قَتْلَى العِدَا يَوْمَ الحَفِيظَةِ بالقَنَا المُتَقَصِّدِ
والطَّاعِنُوا النَّجلاءَ يُدْخِلُ كَفَّهُ في إثْرِهَا الآسِي مكانَ المِرْوَدِ
سَلْ مِنْ سَلِيلِهِمُ سُلوكَ سَبِيلِهِمْ يُرْشِدْكَ أحمدُ للطَّرِيقِ الأحمدِ
مُسْتَمْطِرًا بَرَكاتِهِ مِنْ رَاحَةٍ أَنْدَى مِنَ الغَيْثِ السَّكُوبِ وأَجْوَدِ
فَمَوَاهِبُ الرَّحْمنِ بين مُصَوَّبٍ منها لِراجِي رحمَةٍ ومُصَعَّدِ
يا مَنْ أَمُتُّ لهُ بِحِفْظِ ذِمامِهِ وبِحُسْنِ ظَنِّي فيهِ لي مُسْتَعْبِدِي
مَوْلايَ دُونَكَ ما شَرَحْتُ بِوَزْنِهِ وَرَوِيِّهِ قَلْبَ الكئيبِ الأكْمَدِ
فاقبَلْ شِهابَ الدِّينِ عُذْرَ خَرِيدَةٍ عَذْرَاءَ تُزْرِي بالعَذَارَى النُّهَّدِ
مَعْسُولَةٍ ألفاظُها مِنْ كامِلٍ أَبْرِدْ حَشَىً مِنْ رِيقِها بِمُبَرَّدِ
طَلَعَتْ مَجَرَّةُ فضلها بِكَواكِبٍ دُرِّيَّةٍ مَحْفُوفَةٍ بالأَسْعدِ
رَامَ اسْتِرَاقَ السَّمْعِ منها مارِدٌ لَمَّا أتَتْكَ فَلَمْ يَجِدْ مِنْ مَقْعَدِ

فرس أجرد سبّاق، ولبن أجرد لا رغوة فيه، وقلب أجرد ليس فيه غل ولا غش. (الوسيط/ باب الجيم)، ورجلٌ أَجْرَدِ: لا شعر عليه. وفرسٌ أَجْرَدُ، وذلك إذا رَقَّتْ شَعْرُهُ، وهو مدحٌ. (الصحاح في اللغة/ جَرَرَ). ولعلَّ المقصود هنا بالنهد الأجرد هو مقابل الولد الأمرد، والله أعلم.

(١) المجدل: تقال للصريع، والمقدد: قطع من اللحم. (لسان العرب/ جَدَلَ-قَدَدَ).

(٢) وأيضًا في موضع هذا البيت في ديوان البوصيري:

مـن كـل ذمـرٍ كالـصباح جبينـهُ ذربٌ بخـوض المـضلاتِ معـوَّدِ

مِـنْ مَنْهَـلٍ عَـذْبٍ صَـفا سلْـسَالُهُ لا مِنْ صَرىً يَشْوِي الوُجُـوهَ مُصَرَّدِ
بَعَثَـتْ إليـكَ بهـا بواعِـثُ خـاطِرٍ مُتَحَبِّـــبٍ لجَنَـــابِكُمْ مُتَـــوَدِّدِ
صـادَفَتْ دُرًّا مِـنْ صِـفاتِكَ مُثْمَنًـا فأَعَرْتُـــهُ منِّـــي صـــفَاتِ مُنَـــضَّدِ
جـاءتْ تُـسَائِلُكَ الأمـانَ لِخَـائفٍ مِـــنْ رِبْقَـــةٍ بِذُنُوبِـــهِ مُتَوَعَّـــدِ
فاضْـمَنْ لهـا دَرْكَ المعـادِ ضَـمانَها بـــالفَوْزِ عنـــكَ لِـــسَامِعٍ وَلِمُنْـــشِدِ
فـإذا ضَـمِنْتَ لـهُ فلـيسَ بِخـائِفٍ مِـنْ مُـبْرِقٍ يَوْمًـا ولا مِـنْ مُرْعِـدِ
جـاهُ النبـيِّ لِكُـلِّ عَـاصٍ وَاسِـعٌ وَالْفَـضْلُ أَجْـدَرُ بـاقْتِرَاحِ المُجتَـدِي

فمَن كان من أهل هذه الطريقة وشاهد منها شيئا فشاهده[1] وجوده، ودليله شهوده، وما بعد العيان بيان، وإلا فالناس بعدُ ثلاثةٌ: محبٌّ، ومبغضٌ، وخالٍ عنهما:

أما المبغض؛ فلا ينفع فيه البيان، ولا يَنْجَعُ[2] فيما قام بقلبه وضوح الدليل والبرهان؛ لأنه قد صرفه الهوىٰ الصادُّ عن اتباع سبيل الهدىٰ وموجب بغضه[3]؛ لأنه إما محبٌّ للدنيا كَلِفٌ بها؛ مشتغل بها عن الله تعالى؛ فهو أبدًا يعادي ويَبْغَضُ الآخرةَ وأهلَها بطبع نفسه، ويعادي عداوة باطنة زرعها الشيطان في قلبه، أو متوسِّمُ بظاهر طريق، راءٍ أثرَ النعمتين الظاهرة والباطنة، فثار من قلبه آثار الحسد

(١) أ: فشاهدها. والمقصود أن وجود المشاهدة بسبب السلوك في الطريق هو شاهد ودليل على سلامة منهج الطريقة.

(٢) أ، ب: ينجح، ولعل ما أثبتناه هو الصواب. ونجع الشيء نجوعًا: نفع وظهر أثره، يقال: نجع الدواء في العليل، ونجع العلف في الدابة، ونجع القول في سامعه، ونجع العقاب في المذنب. (المعجم الوسيط/ نجع).

(٣) أ: بغضته.

لما جبلت الطباع عليه من حسد من كان مماثلاً أو مشاركًا له في صفة؛ كما قال سفيان بن عيينة: «مكتوب في بعض الكتب: عدوك مَن عمل بعملك».

أو نُسِبَ إلى فِقْهٍ وقف مع الظواهر وخمد عن النظر في أرواح المعاني ولباب العلوم، يسمع أسرار العلوم وأراوح الحقائق فلا يجدها تنطبق عليها قوالب الألفاظ ولا بعض الظواهر بمقتضى حظه من الفهم؛ فينقبض عن قبولها.

أو متصلِّح(١) وقف مع ظواهر صور العبادات البدنية دون أسرارها وفقهها، ولم تفتح له أبواب المعارف، ولا عرف العلوم القلبية ولا أعمال القلوب، ولا ذاق شيئًا منها؛ بل يظن أن الله تعالى لا يُعبَد إلا بحركة الجسد واللسان فقط، فتراه إذا سمع العلوم الروحانية والأعمال القلبية والأسرار اللدنية وقف عنها طبعه وقال: «لعل هذا غير دين الله تعالى»، وعادىٰ مَن ظهرت عليه، وظن أنه علىٰ غير هدىٰ، ولا إشكال أن العلوم الكبار لا يَقْبلُها أهلُ العقول الصغار؛ فالرضيع لا يقبل الطعام والشراب ولا يقبلها، وإن عولج بذلك تضرر به، ولهذا يقال: «الرباني الذي يربيِّي بصغار العلم قبل كباره».

وقال الشيخ سيدي أبو الحسن ﷺ: «إذا جالست العلماء فجالسهم بالعلوم المنقولة والروايات الصحيحة؛ فإما أن تفيدهم وإما أن تستفيد منهم، وذلك غاية الربح معهم، وإذا جالست العبَّاد والزُّهاد فاجلس معهم على بساط الزهد والعبادة، وحَلِّ لهم ما استمرروه(٢)، وسَهِّل عليهم ما استوعروه، وذَوِّقهم من

---

(١) كذا بالأصول، والمقصود من يفتعل الصلاح أو من يقوم الصلاح بظاهره دون باطنه أو من يدعي الصلاح.

(٢) أي لم يتذوقوه واعتبروه مرًا.

المعرفة ما لم يذوقوه، وإذا جالست الصديقين ففارق ما تعلم ولا تنتسب بما تعلم تظفر بالعلم المكنون وببصائر أجرها غير ممنون».

فهؤلاء الطوائف يَعِزُّ إيمانهم بأهل الطريق ومحبتهم لهم، وقد نصَّ علىٰ ذلك مشايخ هذه الطريقة.

فأما الفقهاء[1] والمتصلِّحون المنكرون بصدق وحسن نية وعدم هوىٰ لكن لعدم اطلاعهم على ذلك فتُرجىٰ لهم السلامة والعفو[2].

وأما مَنْ أنكر بهوىٰ وحسد وحب دنيا؛ فهؤلاء يُخشىٰ عليهم، والله تعالى وليُّ التوفيق والكفاية.

فأما المحب غير الذائق والمنصف الخالي من الميل والهوىٰ؛ فيُرجىٰ لهما بعد البيان مزيد الخير وقوة الإيمان.

[خصائص الطَّرِيقَةِ الشَّاذِلِيَّةِ]

فليتأمل المنصف من أهل هذه الطائفة من هذه الطائفة الشاذلية شيئين:

أحدهما: أحوال أهلها و سداد طريقهم، وقوة يقينهم، وكثرة أنوارهم، وفتحهم وكشفهم، وذكاء قلوبهم؛ مع استغراق[3] كثيرٍ منهم في الأسباب وتلبسهم ظاهرًا بأحوال العوام، فتراهم أبدًا محفوظين في أحوالهم، محافظين علىٰ أعمالهم، قد انفتق في قلوبهم أسرار العلوم، ولاح لهم حقائق الحكم والفهوم؛ فتَرَىٰ أحدهم في

---

(١) ب: الفقراء.

(٢) وهذا غاية الإنصاف، لا يقوله إلا عالم رباني.

(٣) أ: من غرق.

صورة العامي وهو يلهج بالحقائق وينطق بالحكمة مما يَعزُّ وجوده لأرباب الانقطاع والخلوات، وأهل التجلي والمشاهدات، وهذا يدل علىٰ قوة الأنوار وحصول العناية، وأنهم من الله تعالى في صون وحماية، وأن مشايخ هذه الطريقة لهم من الله نصيب وافر ونور متضافر.

وقد قال أستاذ هذه الطائفة سيدي أبو الحسن الشاذلي ﷺ: «أنا حملتُ التعب عن أتباعي»، وقال سيدي أبو العباس ﷺ: «ليس الرجل مَن دلَّك على تعبه، إنما الرجل من دلَّك على راحته»[1].

وأما الشيء[2] الثاني الذي يتأمله المنصف من أحوال هذه الطائفة: فكلام أهلِها في السلوك والحقائق والمقامات والأحوال والحكم والمواعظ مما لا تكاد تسمعه من غير هذه الطائفة؛ في أسلوب خاص ومنهج غريب وآثار في القلوب؛ فتجد للمنازلة[3] الواحدة سلوكًا تامًّا بلفظ قليل ومعنىٰ جليل، كل منازلة تحمل مجلدًا شرحًا ولا يفي بمعانيها.

---

(١) لطائف المنن: ١٢٠، واللفظ فيه: «تعبك» و «راحتك» بدل ما هو هنا. وما في «لطائف المنن» أقرب للصواب وإن ما هنا سهل تأويله على وجه صحيح، وهو أن الشيخ لا يدل مريده على مجاهداته الشاقة، بل يدله على الوصول من أقرب طريق.

(٢) أ: الأمر.

(٣) المنزل عبارة عن المقام الذي يتنزل الحق فيه إليك أو تنزل أنت فيه عليه، ولتعلم الفرق بين إليك وعليه، والمنازلة أن يريد هو النزول إليك ويجعل في قلبك طلب النزول عليه فتتحرك الهمة حركة روحانية لطيفة للنزول عليه فيقع الاجتماع به بين نزولين، نزول منك عليه قبل أن تبلغ المنزل، ونزول منه إليك أي توجه اسم إلهي قبل أن يبلغ المنزل، فوقوع هذا الاجتماع في غير المنزلين يسمى منازلة. المعجم الصوفي: ٩٤٤، نقلاً عن الفتوحات المكية. وفي الجزء الثالث من الفتوحات عدد من

فتأمل قول الشيخ الأجل الشريف القطب عبد السلام بن مشيش[1] شيخ سيدي الشيخ أبي الحسن ﷺ، وقد سأله رجل فقال له: «يا سيدي، وظِّف عليَّ وظائف وأورادًا. فغضب منه الأستاذ وقال له:

«أرسولٌ أنا فأُوجِبَ الواجبات؟!! الفرائض معلومة والمعاصي مشهورة؛ فكن للفرائض حافظًا وللمعاصي رافضًا، واحفظ قلبك من إرادة الدنيا وحب النساء وحب الجاه وإتيان الشهوات، واقنع من ذلك كله بما قسم الله لك: إذا خرج لك مخرج الرضا فكن لله فيه شاكرًا، وإذا خرج لك مخرج السخط فكن عنه صابرًا، وحُبُّ الله -عَزَّ جلالُه- قطبٌ يدور عليه الخيرات وأصل جامع لأنواع الكرامات، وحصول ذلك كله أربعة: الورع وحسن النية وإخلاص العمل ومحبة العلم، ولا تتم لك هذه الجملة إلا بصحبة أخٍ صالحٍ أو شيخٍ ناصحٍ»[2].

مخاطبات الحق على منوال مخاطبات السيد النفري سماها الشيخ الأكبر بعد الانتهاء منها «منازلات»، ولعل قصد المؤلف بالمنازلة هنا: المقام لا غير.

(١) القطب الكامل سيدي عبد السلام بن مشيش بن أبي بكر الحسني ﷺ. ولد بجبل الأعلام بالمغرب وتلقى عنه الإمام الشاذلي وله كرامات ظاهرة حال حياته وبعد وفاته رضي الله عنه ونفعنا به. توفي شهيداً سنة ٦٢٢، ودفن بموضعه بجبل الأعلام بثغر تطوان بالمغرب. ومقامه من مواطن الإجابة. حتى قيل: مقامه بالمغرب كمقام الشافعي بمصر.

(٢) ليس المقصود من الكلام منع اتخاذ الأوراد مطلقًا، بل معناه أن فرائض الشرع ونوافله معروفة فمن أراد القرب فعليه بها وهذا جواب لمن لوحظ كثرة سؤاله فأراد الشيخ أن يكفه عن ذلك فذكره بأن عليه اتباع ما تقرر شرعًا وألا يكثر من البحث عن نوافل جديدة. ولعل الشيخ رأى الرجل راغبًا في اكتساب الدنيا بالأوراد والأسماء الإلهية كما هو حال أناس، فزجره عن ذلك وأرشده إلى العبودية. وإلا فصيغة سيدي ابن مشيش في الصلاة على النبي ﷺ هي من أشهر الأوراد الصوفية. «وفي الكبريت الأحمر»، نقلًا عن سيدي محيي الدين بن عربي: «إذا ناجيت ربك فلا تناجه إلا بكلامه

فانظر يرحمك الله كيف جمع في كلامه هذه الآداب الباطنة والأفعال الظـاهرة، والتطهر من الأوصاف النفسية، والاتصاف بالأعمال القلبية، وما يعين على ذلـك، والأسباب الموصلة إليه.

وكذلك قول سيدي أبي الحسن ﷺ: «المحبة أَخْذٌ من الله لقلب عبده عن كـل شيء سواه، فترىٰ النفس قابلة لطاعته، والعقل متحصنًا بمعرفته، والروح مأخوذًا في حضرته، والسر مغمورًا في مشاهدته، والعبـد يَستزيد فيُـزاد، ويُفـاتح بـما هـو أعذب من لذيذ مناجاته؛ فيُكسىٰ حلل التقريب عـلى[1] [بـساط القربـة، ويمـس[2] أبكار الحقائق وثيبات العلوم». فمن أجل ذلك قـالوا: أوليـاء الله تعـالى عـرائس، ولا يَرىٰ العرائس المجرمون.

[تفسير سيدي أبي الحسن الشاذلي بعض المصطلحات الصوفية]:

قال له القائل: «قد علمتُ الحب؛ فما شراب الحب؟ وما كـأس الحـب؟ ومـا الساقي؟ وما الذوق؟ وما الشرب؟ وما الري؟ وما السُّكر؟ وما الصحو؟».

قال له: «أجل؛ الشراب هو النور الساطع عن جمال المحبوب.

واحذر أن تخترع من عند نفسك كلامًا فتناجيه به فلا يسمعه منك ولا تسمع له إجابة، فتحفَّظ من ذلك فإنه مزلة قدم». قال الإمام الشعراني معقبًا: «فلا يليق وضع الأحزاب التي يقرؤها المريدون إلا من الكمل الذين يأخذون عن الحق أو عن الرسول ﷺ من الوجه الخاص، كما قال سيدي أبو الحسن الشاذلي ﷺ: أخذت حزب البحر عن رسول الله ﷺ حرفاً بعد حرف. والله أعلم». ص ٢١٦.

(١) من هنا موضع سقط طويل في ج.

(٢) في المطبوع: ولبس.

والكأس هو اللطف الموصل ذلك إلى أفواه القلوب.

والساقي هو المتولي المخصوصين الأكابر[1] والصالحين من عباده وهو الله سبحانه وتعالى العالم بالمقادير والمصالح.

فمَن كُشِفَ له عن ذلك الجمال وخُصَّ بشيءٍ منه نَفَسًا أو نَفَسين ثم أُرخِيَ عليه الحجاب فهو الذائق المشتاق. ومَن دام له ذلك ساعة أو ساعتين فهو الشارب حقًّا. ومَن توالىٰ عليه الأمر وطال عليه الشرب حتىٰ امتلأت عروقه ومفاصله من أنوار الله تعالى المخزونة فذلك هو الرِّي.

وربما غاب عن المحسوس والمعقول فلا يدري ما يقال ولا ما يقول فذلك هو السُكْر.

وقد تدور عليهم الكاسات، وتختلف لديهم الحالات، ويردون إلى الذكر والطاعات، ولا يحجبون عن الصفات مع تزاحم المقدورات؛ فذلك وقت صحوهم، واتساع نظرهم ومزيد علمهم، فهم بنجوم العِلم وقمر التوحيد يهتدون في ليلهم، وبشموس المعارف يستضيئون في نهارهم؛ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ (المجادلة: ٢٢)»[2].

فتأمل ما تضمنه هذا الكلام من كشف حقائق لم يُسبَق إليها، ولا عثر أحد من أهل الطريق عليها، وإنما يشيرون إليها إشارات؛ من إبداء حقائق وبيان

---

(١) بالمخطوط: «الأكبر»، وهي نعت للفظ «المتولي». وفي لطائف المنن المطبوع: «المتولي الأكبر للمخصوصين من أوليائه والصالحين». ص: ٦٠.

(٢) لطائف: ٦٠.

معانيها وجلائها بحيث يرتقي فَهم العوام[1] إليها.

وكذلك قوله ﷺ: «إن أردتَ جهاد النفس؛ فاحكم عليها بالعِلم في كل حركة، وأرهبها بالخوف عند كل خطرة، واسجنها في قبضة الله تعالى أينما كنتَ، واشكُ عجزك إلى الله كلما غفلتَ؛ فهي التي ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ (الفتح: ٢١)، فإن سُخِّرَت لك في قضية ما؛ فجدير أن تذكروا نعمة الله عليكم وتقولوا: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (الزخرف: ١٣)»[2].

وكذلك قوله ﷺ: «إنهما كرامتان جامعتان محيطتان في الدنيا: كرامة الإيمان بمزيد الإيقان وشهود العيان، وكرامة العمل بالاقتداء والمتابعة ومجانبة الدعاوىٰ والمخادعة؛ فمن أُعْطِيهما وجعل يشتاق إلى غيرهما فهو عند الله مفتر كذاب، أو ذو خطإٍ في العلم والعمل بالصواب؛ كمن أكرم بشهود الملك والخدمة[3] على عين[4] الرضىٰ وجعل يشتاق إلى سياسة الدواب وخَرق المرضىٰ. وكل كرامة لا يصحبها الرضىٰ عن الله عز وجل ومن الله والمحبة لله وفي الله فصاحبها مستدرج مغرور، أو ناقص، أو هالك مثبور»[5].

---

(١) بالأصول: «العلوم»، ووجهه ضعيف. وما أثبتناه موافق للسياق.

(٢) انظر كتاب: «الأمين لينجلب لرب العالمين» المسمى «رسالة الأمين في الوصول لرب العالمين» ص: ٦٧. ولها عنوان آخر لم يثبته ناشره أحمد المزيدي، وهو «الطريق القصد إلى الله تعالى». وهذا الكتاب مجموع من كلام سيدي أبي الحسن الشاذلي ﷺ جمعه بعض أصحابه كما أشار إليه العارف السكندري في «لطائف المنن» ص: ٢٣.

(٣) لفظ «الخدمة» ليس في «لطائف المنن» المطبوع.

(٤) في «لطائف المنن» المطبوع: «نعت».

(٥) لطائف: ٦٧.

إلى غير ذلك من جليل منازلاته.

وانظر إلى قول سيدي أبي العباس المرسي ﷺ: «العِبَاد ثلاثة أقسام: عبدٌ هو بشهود ما منه إلىٰ الله، وعبدٌ هو بشهود ما من الله إليه، وعبدٌ هو بشهود ما من الله إلى الله»(١).

وقوله ﷺ: الشوق قسمان: شوقٌ عن الغَيبة لا يسكن إلا بلقاء الحبيب، وهو شوق النفوس، وشوق الأرواح إلى الحضور والمعاينة؛ فإذا رفعك إلى محل المحاضرة والشهود المسلوب عن العلل(٢)، فذلك مقام التعريف: إيمانًا حقيقيًّا،

---

(١) لطائف: ١٦٨. وقد شرح الإمام السكندري هذا القول فقال: ومعنى كلام الشيخ هذا: أن من الناس من يكون الغالب عليه شهود تقصيره وإساءته فيقوم مقام المعتذرين بين يدي الله تعالى وتلازمه الأحزان وتخالفه الأشجان فيستولي عليه الكمد كلما بدت منه سيئة أو كشف له من نفسه عن أوصاف سوء.

وعبد آخر الغالب عليه شهود ما من الله إليه من الفضل والإحسان والجود والامتنان فهذا تلازمه المسرة بالله والفرح بنعمة الله، قال الله سبحانه: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (يونس: ٥٨).

فالأول: حال العباد والزهاد، والثاني: حل أهل العناية والوداد. الأول: شأن أهل التكليف، والثاني: شأن أهل التعريف.

(٢) ولعله هو المعبر عنه في مكتوبات مولانا الإمام الرباني أحمد الفاروقي السرهندي بالوصل العريان. قال في المكتوبات: «نهاية هذه الطريقة [أي النقشبندية] إن تيسرت هي الوصل العريان الذي علامة حصوله حصول اليأس من حصول المطلوب. فافهم». ج ١/ ١٩٥، مكتوب رقم ٢٢١.

وقال أيضًا ﷺ ردًا على سؤال افترضه وهو: «أنت قد كتبت في بعض رسائلك أن فناء الأخفى مخصوص بالولاية المحمدية، فما معنى هذا الكلام؟ أجيبُ: قد علم من التحقيق السابق أن الوصل العريان مخصوص بالولاية المحمدية وأن ما سواها وإن ارتفعت فيها الحجب ولكن لابد من حيلولة حجاب رقيق كالغلالة حاصل من توسط الحقيقة المحمدية كما مر. فالأخفى [أي لطيفة الأخفى كما

وذلك ميدان(١) تنزل أسرار الأزل.

وإذا تركك إلى محل المثاغرة(٢) والجهاد فذلك مقام التكليف المقيد بالعلل، وهو الإسلام الحقيقي: ميدان تجلي حقائق الأبدية.

والمحقق مَن لا يبالي بأي صفة تكون، لأن صفتك تميل لا أنت، والصفة من العين للعين وهو ظهورك، والاسم اللسان وهو نطقك، والاسم حقيقة الصفة، والصفة حقيقة الوجود، والأسرار متنزلة عن الوجودية للصديقية، والحقائق متجلية عن الصفات بالولاية لأهل العلوم الظاهرة، عن الاسم بالدليل لأهل السعاية، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «يا أبا جحيفة، سائل العلماء، وخالط الحكماء، وجالس الكبراء»(٣)

هي معرفة عند السادة النقشبندية قدس الله أسرارهم] الذي هو نهاية المراتب الإنسانية في العلو تبقى منه بقية على قدر تلك الحيلولة، فلا يجوز إطلاق الفناء المطلق فيه بملاحظة تلك البقية، ومَن الذي يجد بقاء تلك البقية غير المحمدي المشرب، بل إن حصلت حدة النظر هذه لواحد من ألوف من المحمدي المشرب فهو أيضًا مغتنم، فإن مشايخ الطبقات تكلم أكثرهم على الروح والسر، لا يُدرَى هل تكلم أحد عن الخفي أو لا، فكيف عن الأخفى؟ والذي خاض في بحر الأخفى وأدرك كل ذرة من ذراته واطلع عليها فهو كبريت أحمر، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم». ١/ ٣٥٤، مكتوب رقم ٢٩٤.

(١) بالمخطوط: «مبدأ أن».

(٢) كذا في أ و ب، وهو مأخوذ من الثغر وهو المكان المطل على البحر الذي يغير منه الأعداء على بلاد المسلمين. وفي «لطائف المنن»: المثابرة.

(٣) ضعيف جدًّا، أخرجه الطبراني (٢٢/ ١٢٥، رقم ٣٢٣)، قال الهيثمي (١/ ١٢٥): «رواه الطبراني في الكبير من طريقين أحدهما هذه والأخرى موقوفة، وفيه عبد الملك بن حسين أبو مالك النخعي وهو منكر الحديث والموقوف صحيح الإسناد»، والديلمي (٢/ ١٠٧، رقم ٢٥٦١)، وذكره الحكيم (١/ ٤٢١).

فالعالِم يدلُّك بالعِلم من الأسماء ونهايته الجنة، والحكيم المقرب يحملك باليقين والحقائق من الصفات ونهايته منازل القربة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ (المائدة: ٣٥)، والكبير[1] يدلُّك بالأسرار من الوجود على طريق الصفاء والنزاهة ونهايته الله.

«وتجتمع المراتب الثلاث في الكبير؛ فيحمل قومًا بالعلم، وقومًا بالحقائق، وقومًا بالأسرار، وهم خلفاء الأنبياء وأبدال الرسل، وهم البصراء ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ (يوسف: ١٠٨) أي: على معاينة، يعاين لكل صنف طريقهم؛ فيحملهم عليها وهم أهل النيابة، وأما هو فقد انفرد بحاله لا يُعرَف لعظيم قربه:

وغَنَّى لِي مِنِّي قَلْبِي وغَنَّيْتُ كَمَا غَنَّى
وكُنَّا حَيْثُ مَا كَانُوا وَكَانُوا حَيْثُمَا كُنَّا»[2]

---

(١) سيتكرر استخدام لفظ «الكبير» في الكتاب للدلالة على مقام معين في الولاية هو مقام الأستاذية الذي قال فيه سيدي محمد أبو المواهب الشاذلي ﷺ: «الأستاذ هو من كمل الدوائر، وانطوى فيه علم الأوائل والأواخر، ويسمى بالعالم المطلق، فكل أستاذ شيخ ولا عكس». أما مصطلح الكبير فلم أجده في كلام سيدي أبي الحسن الشاذلي ﷺ، وإنما هو في كلام الأستاذ المرسي كما هنا وكما في «لطائف المنن»، وقد ورد مرتين في هذا الموضع وورد في موضع آخر في اللطائف. وفي «عيون الحقائق» للمؤلف ﷺ: وقال ﷺ: من صحَّت نسبتُه من رجل كبير، أحاط نورُه بسره سرًا وجهرًا». ص: ٣٩. فهذان اللفظان مما اصطلح عليه متقدمو الشاذلية وشاع في كتبهم ﷺ.

(٢) قال الإمام القشيري ﷺ في الرسالة: «سمعت محمد بن عبد الله الصوفي يقول: سمعت علي بن محمد القزويني يقول: سمعت القنفذ يقول: سئل الجنيد عن التوحيد، فقال سمعت قائلاً يقول:

وغَنَّى لِي مِنِّي قَلْبِي وغَنَّيْتُ كَمَا غَنَّى
وكُنَّا حَيْثُ مَا كَانُوا وَكَانُوا حَيْثُمَا كُنَّا

[مِنْ مَنَاقِبِ الإمَامِ ابن عَطَاءِ الله ﷺ التي عَايَنَهَا المصنِّفُ]:

وأما الإمام الأستاذ الأجل الكبير محيي طريقتهم، ومظهر كلمتهم، وناشر أعلامهم، وباسط كلامهم؛ شيخنا وإمامنا وأستاذنا الشيخ تاج الدين أبو الفضل أحمد بن عطاء الله رضي الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة مأواه، وبلَّغه بفضله ما كان يرجوه ويتمناه من مطلبه وسؤاله، وجمع شمله في دار كرامته بمحمد رسوله ﷺ؛ فهو في ذلك العجب العجاب، والأمر الذي يشهد بتحقيقه وتصديقه قلوب أولي الألباب؛ فتجد الميعاد الواحد أمرًا باهرًا ودليلًا ظاهرًا، وله نتائج وفوائد وأنوار وزوائد ظهرت له في البلاد، وانتشرت بين العباد؛ يجمع الميعاد الواحد بين المواعظ والحكم والحقائق في طريق الأبرار وطريق المقربين؛ دلالةً بالعلم والنور، وتربية بالأقوال والأحوال.

وشاهدُ ذلك شيئان: القلوب الصادقة القابلة لذلك؛ السالمة من الهوىٰ الصَّاد عن طريق الهدىٰ. والأمر الآخر: ما يظهر من الخيرات من الأنوار الباطنة، والأحوال الظاهرة: من الفتح والنور والمعرفة والتوبة والأعمال ومحاسن الأحوال.

فكم من تائبٍ تاب وتغيَّرت أحواله السيئة فأصلح وأناب، وكم من غافلٍ تيقظ، وجاهل تبصر، وكم من قلبٍ قاسٍ مظلمٍ لانَ وتنوَّر، فبنحو هذه الآثار يظهر لذوي الإنصاف أحوال العلماء الأخيار الدَّالين على الله بالله؛ أهل الهمم والأنوار.

فقال السائل: أهَلَكَ القرآنُ والأخبار؟!! فقال: لا، ولكن الموحِّد يأخذ أعلى التوحيد من أدنى الخطاب وأيسره. «الرسالة القشيرية»: ٤٠٨، وقد وقع خطآن في البيتين في طبعة «الرسالة القشيرية» المحال إليها في قائمة المراجع، فليثبت الصواب مما هنا.

فبهذين الأمرين يلوح شيء من فضائل هذه الطائفة وخصوصيتها دون سائر الطوائف، وإن كان طريق القوم يَعِزُّ كشف أمرها إلا لِـمَن اطلع على شيء من سرها؛ لأنها مبنية على المواجيد والأذواق لأمداد أحوال أهلها، ولا يطلع على بيان حقيقتها بالألسنة؛ بل هو أمرٌ خاص لنوع خاص؛ كما قيل:

يَعرِفُه البَاحِثُ مِنْ جِنْسِهِ   وَسَائِر النَّاس لَهُ مُنْكِرُ

[جَلَالَةُ مِقْدَارِ الإِمَامِ أبِي الحَسَن الشاذلي ﷺ وَشَهَادَةُ العُلَمَاءِ لَهُ]

وأما جلالة مقدار هذا السيد الكبير سيدي أبي الحسن ﷺ خصوصًا فهو أمر قد ظهر وانتشر، وشاع في البدو والحضر، وهو مقدَّم هذه الطريقة، وأستاذ هذه الطائفة، ورأس طريقهم، وحامل لواء جيشهم، وعلى يده بسقت أغصانها، وأينعت أثمارها وأزهارها، وبعناية الله تعالى فيه وعظيم همته رسخت أصولها، وقامت أزهارها، ولما أودع الله تعالى فيه وخَصَّه به من النور المحمدي، وهتفت حمائمها، وغرَّدَت على غصونها بغرائب الحِكَم، وانشقَّ فجر هدايتها، وانهزم جيش ظلام غوايتها، وأُطْلِعت في نهار شهودها شمسُ معارفها، وفي ليل رجوعها إلى خدورها نجومُها وأقمارُها؛ أظهر ﷺ، ونَشَرَ أنوارَ مشايخه المتقدمين، وأسَّسَ ومَهَّدَ لأتباعه المتأخرين، اجتمع على إثبات ولايته وعظيم خصوصيته مَنْ كان في زمانه من الأولياء العارفين، واعترف بعلو منزلته من عاصره من أكابر علماء الدين.

أما الأولياء العارفون؛ فقد ذكره الشيخ الصفي بن أبي المنصور ﷺ في رسالته(١)، وأثنى عليه الثناء العظيم على حسب معرفته به.

---

(١) طبعت باعتناء أحمد عبد الرحيم السايح وتوفيق علي رهبة في تحقيق سيء وإنكار لكرامات تقع في حيز الإمكان وما ذلك على الله بعزيز.

وذكره ابن القسطلاني في مشيخته[1].

وذكره الشيخ ابن النعمان وشَهِدَ له بالقطبانية[2].

وقد ذكره الشيخ الإمام الأستاذ الأجل شيخنا وإمامنا وسيدنا تاج الدين أبو الفضل أحمد بن عطاء الله ﷺ في كتابه الموسوم بـ«لطائف المنن في فضائل الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن ﷺ» من ذلك جملةً شافيةً مقنعةً؛ تنشرح بمطالعتها الصدور، ويزداد اللب بسماعها نورًا على نور.

[مَنَاقِبُ الإمام الشَّاذِلِي من سماع المصنِّفِ مِنْ شَيخِهِ]

منشؤه بالمغرب، ومبدأ ظهوره بـ«شاذلة» قرية بالقرب من تونس، له السياحات الكثيرة، ولم يدخل في طريق الله حتى كان يعد للمناظرة، وكان متضلعًا بالعلوم الظاهرة وجامعًا لفنونها - من نحو، وتفسير، وحديث، وأصول،

---

(١) القطب القسطلاني، قطب الدين أبو بكر محمد بن أحمد بن علي المصري. ولد بمصر سنة أربع عشرة وستمائة، وسمع من العارف أبي حفص عمر السهروردي، ومن المحدث أبي الحسن علي البنا وجماعة، وتفقه وأفتى، وكان ممن جمع العلم والعمل، وألف في الحديث والتصوف، وولي مشيخة دار الحديث الكاملية. مات في المحرم سنة ست وثمانين وستمائة. وهو ابن العارف الشيخ أبي العباس القسطلاني تلميذ سيدي أبي عبد الله القرشي ﷺ، ووالدته زوجة سيدي القرشي، تزوجها والده بإشارة الشيخ القرشي قبل وفاته، وولدت له ولدًا كان مكاشفًا من صغره، ثم حضرته الوفاة فحزنوا عليه فبشرهم بمولد القطب القسطلاني. رضي الله عنهم ونفعنا بهم آمين. «مرآة الجنان» لليافعي: ٤/ ٢٠٣. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، حيد آباد الدكن: ١٣٣٩ هجرية.

(٢) ابن النعمان القدوة الزاهد أبو عبد الله محمد بن موسى بن النعمان التلمساني. قدم الإسكندرية شابًا، فسمع بها من الصفراوي، وكان عارفًا بمذهب مالك، راسخ القدم في العبادة والنسك، ولد سنة سبع وستمائة، ومات في رمضان سنة ثلاث وثمانين ودفن بالقرافة. ذكره في العبر. «حسن المحاضرة»: ١/ ٤٢٨، أ: الكتب العلمية، ١٩٩٧، «مرآة الجنان»: ٤/ ٢٠٠.

وفقه، وأدب - ثم جاءه بعدُ العطاء الكبير والفضل الغزير، أُخبِرتُ من ثقات عن الشيخ تقي الدين محمد بن علي القشيري ﷺ قال: «ما رأيتُ أعرف بالله من الشيخ أبي الحسن الشاذلي».

وأخبرنا الشيخ الإمام الأستاذ تاج الدين أبو الفضل أحمد بن عطاء الله ﷺ قال: «أخبرني الشيخ العارف مكين الدين الأسمر(١) قال: «حضرت المنصورة في خيمة فيها الشيخ الهمام مفتي الأنام عز الدين بن عبد السلام(٢)، والشيخ مجد الدين

---

(١) سيدي عبد الله بن منصور مكين الدين الأسمر، كان فقيهاً صوفيًّا عارفًا كبيرًا ذا مقامات ومنازلات ومكاشفات، ومن أجل أتباع سيدي أبي الحسن الشاذلي ﷺ. كان يرى ليلة القدر في كل عام. وقد زين سيدي ابن عطاء الله كتابه «لطائف المنن» بالعديد من أقواله ونقوله عن الإمام الشاذلي. قال الإمام السيوطي: «المكين الأسمر عبد الله بن منصور الإسكندراني، شيخ القراء بالإسكندرية، أخذ عن أبي القاسم بن الصفراوي، وأقرأ الناس مدة. مات في ذي القعدة سنة اثنتين وتسعين وستمائة عن نيف وثمانين سنة». «حسن المحاضرة»: ١/ ٤١٥-٦.

(٢) الشيخ عز الدين بن عبد السلام بن عبد العزيز بن أبي القاسم بن حسن بن محمد بن مهذب السلمي أبو محمد. شيخ الإسلام، سلطان العلماء. ولد سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسمائة، وتفقه على الفخر بن عساكر، وبرع في الفقه والأصول العربية. قال الذهبي في «العبر»: انتهت إليه معرفة المذهب، مع الزهد والورع، وبلغ رتبة الاجتهاد، وقدم مصر، فأقام بها أكثر من عشرين سنة؛ ناشرًا العلم، آمرًا بالمعروف، ناهيًا للمنكر، يغلظ على الملوك فمن دونهم. ولما دخل مصر بالغ الشيخ زكي الدين المنذري في الأدب معه، وامتنع من الإفتاء لأجله». له من المصنفات: «تفسير القرآن»، و«الفتاوى الموصلية»، و«مختصر النهاية»، و«شجرة المعارف»، و«القواعد الكبرى» و«الصغرى»، و«بيان أحوال الناس يوم القيامة» وغيرها. وله كرامات كثيرة، ولبس خرقة التصوف من الشهاب السهروردي. وكان يحضر عند الشيخ أبي الحسن الشاذلي ويسمع كلامه في الحقائق ويعظمه. قال سيدي أبو الحسن ﷺ: «قيل لي: ما على وجه الأرض مجلس في الفقه أبهى من مجلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وما على وجه الأرض مجلس في الحديث أبهى من مجلس الشيخ زكي الدين عبد

علي بن وهب القشيري المدرِّس[1]، والشيخ محمد بن سراقة محيي الدين[2]، والشيخ مجد الدين الأخميمي[3]، والشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ، ورسالة القشيري تُقرأ عليهم وهم يتكلمون، والشيخ أبو الحسن صامت إلى أن فرغ كلامهم؛ فقالوا: «يا سيدنا، نريد أن نسمع منك. فقال: «أنتم سادات الوقت وكبراؤه، وقد

العظيم، وما على وجه الأرض مجلس في علم الحقائق أبهى من مجلسك». توفي الإمام العز سنة ٦٦٠. «حسن المحاضرة»: ١/ ٢٧٢-٣.

(١) والد الإمام تقي الدين بن دقيق العيد. هو علي بن وهب بن مطيع القشيري الشهير بابن دقيق العيد مطهر الصعيد من مذهب الشيعة. توفي سنة ٦٦٧، وله ترجمة حافلة في «الطالع السعيد» للإدفوي: ٤٢٤-٤٣٥.

(٢) محمد بن محمد بن إبراهيم بن الحسين بن سراقة، محيي الدين الأنصاري الأندلسي الشاطبي؛ ولد في رجب سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة بشاطبة، وتوفي سنة اثنتين وستين وستمائة بالقاهرة، ودفن بسفح المقطم.سمع الكثير، وولي مشيخة دار الحديث البهائية بحلب، ثم قدم إلى الديار المصرية ولي مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة إلى حين وفاته، وكان أحد الأئمة المشهورين بغزارة الفضل وكثرة العلم والجلالة «والنبل»، وأحد المشايخ المعروفين بطريق القوم، وله في ذلك إشارات لطيفة، مع ما جبل عليه من مكارم الأخلاق وإطراح التكليف ورقة الطبع ولين الجانب. «فوات الوفيات»: ٣/ ٣٤٥.

(٣) الخطيب مجدُ الدين الإخميمي، خطيب جامع مصر. صحب أبا الحسن مرتضى بن أبي الجود، وأبا العباس بن القسطلاني. وكان صالحًا، عالمًا، مشهورًا بالديانة، وله القبول التام من الناس. وكان حسن السمت، كريم الأخلاق، ساعيًا في حوائج الناس، تام المروءة، كثير النفع للمسلمين، وقبره يُزار بالقرافة، ﷺ. تُوُفِّيَ في ذي القعدة سنة ٦٥٣. «تاريخ الإسلام»: ١٦٠/ ٤٨. قال الشيخ صفي الدين بن أبي المنصور في رسالته: وممن رأيته في المنية (المنيا) الشيخ أبا عبيد الله جبريل، كان من الرجال المشهورين وهو الذي ربى الشيخ الجليل العالم المجد الإخميمي وعلمه القرآن، لو لم يكن له كرامة إلا نشأة هذا الشيخ مجد الدين ببركته [الكفاه]: ١٠٨، وفي الكتاب أخبار أخرى عن الشيخ الإخميمي. وما بين المعقوفين من عندنا لتتميم الكلام.

تكلمتم»، فقالوا: «لابد أن نسمع منك»، قال: فسكت الشيخ ﷺ ساعة؛ ثم تكلم بالأسرار العجيبة والعلوم الجليلة، فقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام - وقد خرج في صدر الخيمة وفارق موضعه -: «اسمعوا هذا الكلام القريب العهد من الله».

وقال الشيخ أبو العباس ﷺ: «كنتُ مع الشيخ أبي الحسن بالقيروان - في شهر رمضان في ليلة جمعة ليلة سابع وعشرين - فذهبنا إلى الجامع؛ فلما دخل الجامع وأحرَمَ رأيتُ الأولياءَ يتساقطون عليه كما يتساقط الذباب على العسل؛ فلما أصبحنا وخرجنا من الجامع قال الشيخ: «ما كانت البارحة إلا ليلة عظيمة، وكانت ليلة القدر، ورأيت رسول الله ﷺ وهو يقول: «يا علي، طَهِّرْ ثِيَابَكَ من الدَّنَسِ تَحْظَ بمدد الله في كُلِّ نَفَس»، فقلت: يا رسول الله، ما ثيابي؟ قال: «اعلَمْ أنَّ اللهَ قَدْ خَلَعَ عليك خمس خلع: خلعة المحبة، وخلعة المعرفة، وخلعة التوحيد، وخلعة الإيمان، وخلعة الإسلام، فمَن أحب الله هان عليه كل شيء، ومَنْ عَرَفَ الله صغر لديه كل شيء، ومَن وحَّد الله لم يشرك به شيئًا، ومَن آمن بالله أَمِنَ من كل شيء، ومَن أسلم لله قل ما يعصيه وإن عصاه اعتذر إليه، وإن اعتذر إليه قبل عذره»، قال: «ففهمتُ حينئذ قوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ (المدثر: ٤)»[1].

وقال الشيخ أبو العباس ﷺ: «جُلتُ في ملكوت الله تعالى؛ فرأيت الشيخ أبا مدين[2] متعلقًا بساق العرش، وهو رجل أشقر أزرق العينين، فقلت له: ما

---

(١) «لطائف المنن»: ٧٨-٧٩.

(٢) هو العارف بالله شعيب بن حسن الأندلسي البجاني الملقب بشيخ المشايخ كان من الفضلاء وأعلام العلماء وحفاظ الحديث خصوصًا الترمذي، وكان يقوم عليه وتأتيه الفتاوى في مذهب الإمام

علومك وما مقامك؟ فقال: «أما علومي فأحد وسبعون علمًا، وأما مقامي فرابع الخلفاء ورأس السبعة الأبدال»، فقلت: فما تقول في شيخي أبي الحسن الشاذلي؟ فقال: زاد عليَّ بأربعين علمًا، وهو البحر الذي لا يحاط بعلمه».

وقال الشيخ الأستاذ تاج الدين أبو الفضل أحمد بن عطاء الله ﷺ: «أخبرنا بعض أصحابنا قال: قيل للشيخ أبي الحسن الشاذلي: مَن هو شيخك يا سيدي؟ فقال: «كنتُ أنتسب إلى الشيخ عبد السلام بن مشيش، وأنا الآن لا أنتسب إلى أحد؛ بل أعوم في عشرة أبحر: خمسة من الآدميين؛ النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وخمسة من الروحانيين؛ جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل والروح»[1].

فانظر - رحمك الله- إلى ما تشير إليه هذه المنازلة من العلم الغزير والعطاء الكبير، وما أعطيه من فضل الله تعالى وواسع نور هذا الرجل الكبير ﷺ.

مالك فيجيب عنها وهو شيخ الشيخ الأكبر سيدي محي الدين بن عربي ﷺ. وله كرامات كثيرة وخلفاء لا يحصون. وكانت إقامته ببجاية ومات وهو متوجه إليها ودفن بتلمسان سنة ٥٩٤. نفعنا الله به. انظر «شجرة النور الزكية» ج ١، ترجمة رقم ٥٤٤.

(١) قد سمعت من بعضهم اعتراضاً سمجاً على هذا القول مفاده أنه لا حاجة لأبحر أخرى مع بحر النبي ﷺ، وهو اعتراض لا ينبغي حتى التعرض له بالرد لنزوله ولكن لعل قائله يقرأ فيرتدع، فأقول: قال ﷺ في الحديث الصحيح: «مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من تعلق بها نجا ومن تخلف عنها هلك» رواه الحاكم (٤٧٢٠). وقال ﷺ في حق صحابته: «وأصحابي أمنة لأمتي» رواه مسلم (٢٥٣١)، ومنه حديث الثقلين كما في الترمذي (٤١٥٧): «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أحدهما أعظم من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتى أهل بيتى ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض فانظروا كيف تخلفونى فيهما». قال: حسن غريب.

الفصل الثاني

في فضيلة هذا الدعاء المبارك، وعظيم بركته، ونجح الداعي به، وما عُهِدَ مِنْ ذلك وجُرِّبَ، وحِفظِهِ وحِرَاسَتِهِ، وانتشارِهِ في الأقطار وشُهْرَتِهِ

أما فضيلة هذا الدعاء فيتبين بوجوه:

الوجه الأول: إن معظمه مأخوذ من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ:

مجموع آيات مباركات، وسنن مأثورات ودعوات مستحسنات؛ فقوله: (يَا عَلِيُّ، يَا عَظِيمُ، يَا حَلِيمُ، يَا عَلِيمُ) الأربعة الأسماء من القرآن؛ الأولان مجموعان في موضع آخر في آية الكرسي، وأول ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ والآخران كذلك مجموعان في مواضع في «النساء» و«الأحزاب».

وقوله: (أَنْتَ رَبِّي، وَعِلْمُكَ حَسْبِي) مأخوذٌ من قول الخليل ﷺ: «حَسْبِي مِنْ سُؤَالِي عِلْمُه بِحَالِي».

وقوله: (وَأَنْتَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) الاسمان مقرونان في القرآن، مكرران في سورة الشعراء.

وقوله: (نَسْأَلُكَ الْعِصْمَةَ) سؤال العصمة دعاء مأثور في الحديث.

وقوله: فَقَدْ ﴿ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ لِيَقُولَ[1] الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا) كلام فيه لفظ القرآن

---

(١) وفي الرواية الأخرى للحزب بموافقة نص الآية، أي قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ (الأنفال: ٤٩) الآية.

إلا قوله: «فَقَدْ ابتُلِيَ»، وقوله: «وَلِيَقُولَ»؛ فإنهما لسياق الكلام.

وقوله: (فَثَبِّتْنَا وَانْصُرْنَا) دعاء القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٧).

وقوله: ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ أول سورة كريمة.

وقوله: (انْصُرْنَا) من قوله تعالى: ﴿ وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾؛ وكذلك ما بعده إلى قوله: (وَنَجِّنَا مِن الْقَومِ الظَّالِمِينَ) كله دعاء من القرآن. قال تعالى: ﴿ فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٨٦)، ﴿ ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ ﴾ (الأعراف: ٨٩)، ﴿ وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا ﴾ (البقرة: ٢٨٦)، وقال تعالى: ﴿ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ (المائدة: ١١٤)، و﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الفاتحة: ٦)، وقال تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (يونس: ٨٥-٨٦)]؛ فأصول هذه الدعوات مأخوذة من دعاء القرآن العظيم.

وقوله: (وَكُنْ لَنَا صَاحِبًا فِي سَفَرِنَا وَخَلِيفَةً فِي أَهْلِنَا) من قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالْخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ»(١).

وقوله: (وَاطْمِسْ عَلَى وجُوهِ أَعْدَائِنَا) إلى قوله: (وَلَا يَرْجِعُونَ)

---

(١) أخرجه الإمام مسلم (٢/ ٩٧٨، رقم ١٣٤٢)، وأبو داود (٣/ ٣٣، رقم ٢٥٩٩)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٤١، رقم ١٠٣٨٢)، وأحمد (٢/ ١٥٠، رقم ٦٣٧٤)، وابن خزيمة (٤/ ١٤١، رقم ٢٥٤٢)، وابن حبان (٦/ ٤١٣، رقم ٢٦٩٦).

مأخوذ من القرآن[1].

وقوله: ﴿ يسٓ ﴾ إلى قوله ﴿ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ ناهيك بعظيم قدر هذه السورة ومفتاحها، واختصاصه هذا القدر منها كما جاء في الحديث أن النبي ﷺ قرأ نحوًا من هذا على النَّفَرِ الكفار الذين أجمعوا على قتله، وذَرَّ على رؤوسهم التراب وخرج عليهم ولم يروه، فلها سرٌّ عظيمٌ، وجلال في النفع جسيم.

وقوله: («شَاهَت الوجُوه») هو القول الذي قاله النبي ﷺ يوم حنين[2]، وسيأتي مفصلًا في الفصل الثالث إن شاء الله تعالى.

وقوله: ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ (طه: ١١١) من القرآن في «سورة طه». وما بعد ذلك كله قرآن إلى قوله: (حُمَّ الأَمْرُ)، وأول «سورة غافر» جاء الأمر في تخصيص فضلها[3].

وقوله: (سِتْرُ الْعَرْشِ مَسْبُولٌ عَلَيْنَا) فيه أثرٌ نقله الحافظ أبو نعيم في كتاب «عمل يوم وليلة»[4]. وما بعد ذلك من قوله ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴾ (البروج: ٢٠) إلى آخره كله قرآن، وآيات عظيمة.

---

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾ (يس: ٦٦).

(٢) أخرجه الإمام مسلم (١٧٧٧)، وأحمد (٢٢٥٢٠) والطيالسي (١٣٧١)، الطبراني (٧٤١) قال الهيثمي (٦/ ١٨٢): «رواه البزار والطبراني، ورجالهما ثقات».

(٣) إشارة للحديث الضعيف، الذي أخرجه الترمذي (٢٨٧٩) وقال: «غريب» والدارمي (٣٣٨٦): «من قرأ حم المؤمن إلى ﴿ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (آل عمران: ٢٨)، وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتى يمسي ومن قرأهما حين يمسي حفظ بهما حتى يصبح».

(٤) لم أقف عليه.

وقوله: («بِسمِ اللهِ الَّذِي لَا يَضرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ») من قوله ﷺ[1].

فالأمر كما تَرَى آيات من كتاب الله تعالى وأحاديث من كلام نبيه ﷺ، ولخصوص هذه الآيات ومنافعها وترتيبها فضلٌ عظيم؛ لا يطلع عليه إلا العارفون بالله عز وجل أهل التخصيص والعناية كشفًا ومشاهدةً، ويعلمون شيئًا][2] من تأثيراتها وعجائب قدرة الله تعالى عند تلاوتها، ونور من الله تعالى وهداية؛ فقد تضمن نحوًا من ست وثلاثين آيةً من كتاب الله تعالىٰ، ومن الأذكار المأثورة ستة أحاديث، ونحوًا من أربعين اسمًا من أسماء الله تعالى المعظَّمَة.

ولقد سمعت عن بعض الأكابر الأولياء أنَّ فيه اسم الله تعالى العظيم الأعظم في ثلاثة مواضع. حتى جاء عن الشيخ ﷺ أنه قال: «لو ذكر في بغداد ما أُخِذَت» ولعل قائلًا يقول: «قد كان يقرأ في بغداد كتاب الله، وهو بهذا أولىٰ؟»

فمن هذا أجوبة:

منها: «نعم، ولكن لعله لم يقرأ في حال أخذها، وغفلوا عنه حتى نفذ فيهم حكم الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١).

---

(١) صحيح، رواه الترمذي (٣٣٨٨) وقال: «حسن صحيح غريب»، و أبو داود (٥٠٨٨)، وابن ماجه (٣٨٦٩)، والحاكم (١٨٩٥) وقال: «صحيح الإسناد». ابن أبي شيبة (٢٩٢٧٥)، وابن حبان (٨٥٢).) الطيالسي (٧٩)، ولفظ الترمذي: «عن أبان بن عثمان قال: سمعت عثمان بن عفان ﷺ يقول قال ﷺ: ما من عبد يقول في صباح كل يوم ومساء كل ليلة: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ثلاث مرات لم يضر بشيء ...» الحديث.

(٢) نهاية السقط الطويل من ج.

وجواب آخر: يحتمل أن يكون في جميع هذه الآيات والآثار وَنَظْمِهَا هَكَذا خصوصيةٌ في التأثير لمنع العدو من التسلط اطلع عليها أولياء الله تعالى، وترتيب القرآن العظيم للهداية العامة ونور القلب، وتعريف سلوك طريق الآخرة، وتهذيب النفوس، وخصائص لا يعلمها إلا الله تعالى مجموعًا بجملة لفظه.

وقد تكون للآية وحدها أثر ما لم تنضم إلى غيرها، فإذا انضمت ذهب ذلك الأثر الخاص وجاء أثر غيره، وهذا ظاهر؛ كما تأتي آية رحمة ينشرح القلب لها وينبسط، ثم تأتي بعدها آية عذاب فينقبض لذلك، والتأثير في القلوب كالتأثير في الظواهر، ومن ذلك أنه شُرِعَ أن نقول عند الذبح: «بسم الله»(1) ولا نقول: «بسم الله الرحمن الرحيم»؛ لمناسبة الموطن.

وقد قرأ النبي ﷺ أول «سورة يس»؛ فغُشِّيَت عنه أبصار الذين جلسوا لاغتياله، وما يدريك أنه لو قرئت بقية السورة لخصوص أثر آية أخرىٰ لاندفع ذلك الأثر، وتخصيص النبي ﷺ بعض السورة يدل على ذلك. ومن ذلك ما جاء أنه يُقرَأ علىٰ المصروع بآخر آية في «سورة المؤمنين» ولم يقل بـ«كل السورة»(2).

---

(1) إشارة للحديث المتفق عليه من حديث سيدنا أنس ﷺ: «عن أنس قال: ضَحَّى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين ذبحهما بيده وسمَّى وكبر، قال: رأيته واضعًا قدمه على صفاحهما ويقول: «بسم الله، والله أكبر».

(2) إشارة إلى ما رواه أبو يعلى عن حنش الصنعاني عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قرأ في أذن مبتلى فأفاق فقال له رسول الله ﷺ: ما قرأت في إذنه؟ قال: قرأت ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (المؤمنون: ١١٥) حتى فرغ من السورة، فقال رسول الله ﷺ: «لو أنَّ رجلًا موقنًا قرأها على جبل لزال». أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة - برقم (٦٢٥)، والنووي في «الأذكار النووية» - برقم(١٢٠)، والبيهقي وابن حاتم والحكيم الترمذي وأبو يعلى وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية.

وإياك أن تجول بعقلك فتقول: «السورة كلها مشتملة على جزئها، والقرآن كله مشتمل على كل فوائده»؛ فليس للعقول هنا مجال، والأمر أعظم من ذلك، وليس هذا موضع قياس، وقد تبيّن أنه قد يكون للشيء خصوصية بانفراده لا تكون له حال جمعه.

وقد تقرر في العادة أن الدواء إذا انفرد أثّر أثرًا خاصًّا لا يؤثره حال تركيبه مع غيره، وكذلك إذا رُكِّبَت الأدوية تركيبًا خاصًّا كالشيء وما يقاربه في المزاج ويقويه أثرت تأثيرًا خاصًّا، وإذا اجتمعت مع غيرها مما يضادها تدافعت خواصها وصار لها تأثير حصول الصحة واعتدال أصل المزاج، وذلك ظاهر كَمَيلِ[1] المزاج إلى الحرارة والبرودة.

وجواب آخر: يحتمل أن يكون الشيخ ﷺ اطَّلَعَ من أسرار الله تعالى على وجه يجوز له أنه لو قرئ في بغداد ما أخذت، لا لخصوصية في الحزب بل كرامة لولي، ويجوز أن يكرم الله تعالى وليًا من أوليائه ويحفظ لأجله بلدة أو إقليمًا.

وقد نُقل عن الشيخ أبي العباس [الرأسي ويعرف بالمرسي][2] ﷺ نزيل الإسكندرية أنه كان يقول: «هذا الساحل محفوظ مادمتُ أنا حيًّا»، يعني ساحل إسكندرية إلى دمياط، حتى كان يقال: «إن الإفرنج يأتون بمراكبهم لقصد القتال فيحبسون»؛ فيقولون: «مادام هذا القسيس ها هنا لا سبيل لنا عليهم»، وليلة مات ﷺ نزل الإفرنج إلى دمياط النوبة المشهورة[3]، وذلك مشهور من أمره، ومن هذا

---

(١) في المخطوط: كَتَمَيُّل.

(٢) زيادة من المطبوع.

(٣) أي سنة ٦٥٦ هجرية.

الجنس كثير مما أكرم الله تعالى به أولياءه.

[تفصيل في احتواء الحزب على اسم الله تعالى الأعظم]

ومما يبين ذلك بيانًا ظاهرًا: أن القرآن العظيم مشتمل على أسماء عظيمة لها خصائص وآثار، قال العارفون بالله تعالى إن فيه أسماء يُمشى بها على الماء، وأسماء يُسَارُ بها في الهواء، وغير ذلك.

وعلى الجملة، فلا إشكال أن فيه الاسم الأعظم؛ لأنه المحتوي على كل عِلْم؛ فلابد أن يكون فيه الاسم الأعظم، وهو يشمل ذلك كله، فإن أهل التفسير وعلماء الحقيقة ذكروا أن فيه الاسم الأعظم، وربما عيَّنوا موضعه، ومع ذلك فإن كثيرًا من الناس يقرأ القرآن كله ويدعو بالاسم الأعظم الذي جاءت فيه الآثار ولا يرى أثر الإجابة ظاهرًا، وما ذلك إلا أنه لسرٌّ في التَّالي، وأمر وراء عقل العقلاء، وكذلك تسمع القرآن من الرجل الصالح فترى له أثرًا وفائدة، وتسمعه من غيره فلا يؤثر عندك؛ فتعلم بذلك أنَّ الأمر خلاف ما يُظنُّ، والله تعالى يخص من يشاء بما يشاء.

وأخبرُك يا أخي بأمرٍ عجيبٍ بعد كتابتي هذا الكلام في هذا الوجه المذكور فيه هذه المسألة بيوم أو يومين عند ذكر «مثال الأدوية، وقد يكون القرآن كله خاصية ولمفرداته خواص لا تكون للمجموع»، رأيت في كتابٍ فيه أخبار الصالحين:

قال أبو الحسن بن سالم: «إنَّ لله تعالى أسماءً يُمشى بها على الماء، وأسماءً يُطار بها في الهواء، وأسماءً لو كتبها على ريشة وطرح في نهر انشقَّ الماء إلى الأرض

وغاصَ الاسم فيها»، ثم قال: «وفي «يس» اسم يبرئ به الأكمه والأبرص، وفيها اسم مَنْ دعا به طار في الهواء».

قال: «ولله عباد أودعهم هذه الأسماء؛ منهم الصديقون والأبدال والأوتاد والقطب، وهي في القرآن مجتمعة الأحرف وبعضها متفرقة مثل ﴿الٓر﴾ ﴿حمٓ﴾ ﴿نٓ﴾ بمجموعها «الرحمن».

قيل له: «أرأيتَ لو دعا إنسان بـ «يس» والقرآن كله أن يُعطى شيئًا يمكن ذلك؟».

قال: «يا بني، أرأيتَ لو أتىٰ إنسان إلى دكان صيدلاني فأخذ كل شيء عنده فشربه لدائه أكان ينفعه ذلك؟! كذلك هذه الأسماء لا تفتح إلا لمن عرفها بأعيانها، وعرف كل اسم وما يصلح له، فإذا كان كذلك ودعا بها استجيب له على المكان بإذن الله تعالى».

فرأيتُ هذا الكلام تصديقًا لما وقع لي، وشاهدًا علىٰ تحقيقه، وهو أمر ظاهر، والحمد لله رب العالمين.

الوجه الثاني: انتشاره وشهرته في الأقطار

حتى لقد اتهم وأغار[1]، وطار في الآفاق كل مطار، وشاع في البدو والحضر، وسار إلى الناس مسير الشمس والقمر، مشرقًا ومغربًا وشامًا وعراقًا وحجازًا ومصرًا، فكم ترىٰ من بلد هو يقرأ في مساجدها ونواحيها، وكم من قرية هو مشهور فيها قد حفظه كثير من الصالحين والأولياء والصديقين، يكررونه في

---

(١) في المخطوط: غار.

الحاجات وعند الضرورات، وفي المساء والبكرات، ويستعيذون به عند المخافات.

قد حفظه أكابر العلماء، واعتنى به الأخيار والصلحاء، حتى صار تمائم على الصدور، وحروزًا(١) على النُّحور؛ حتى على الدواب والحيوان، ومسطورًا في البيوت وعلى الجدران، وشاع في الناس وذاع، وملأ الأفواه والأسماع، والأماكن والبقاع، كما قيل:

وأتاهُم حِزبُ الشَّاذِلِيَّةِ مُشرِقًا ... كبَدرٍ تَمَامٍ فِي الأنَامِ وَانْجَدَا
وسَارَ بِهِ مَنْ لا يَسِيرُ مُشمِّرًا ... وفَاهَ بِهِ مَن لا يَفُوهُ مُرَدَّدًا
فتَسمعه إنْ سرتَ شرقًا ومغربًا ... وشهرته في الخَلْقِ كالنَّجْمِ موقدًا
فَفِي الرَّكبِ إنْ ساروا تَلوه تَبركًا ... وفي القومِ إنْ خَافُوا بِهِ يَأمَنُوا العِدَا
وفي الطِّفلِ إنْ يُقْرَأْ تَجِدْهُ مُبَاركًا ... وفي الحَاجِ إنْ يُرجَ تَرَ النَّجمَ قَدْ بَدَا
وَفِي البَحرِ فَاذْكُرهُ يُرِيكَ عَجَائِبًا ... وتَيْسِيرَ أسْبَابٍ وَأمرًا مُسدَّدًا
تَرىٰ البحرَ مِطوَاعًا تَرىٰ الريح لَيِّنًا ... تَرىٰ اللطفَ مِن قُربٍ تَرىٰ الوقتَ مسعدا
فَأكْرِم بهذَا مِن دعاءٍ مُبَاركٍ ... كريم مجاب ظاهر النَّفْعِ والجِدَا

وهذه الكثرة والانتشار سرٌّ باطنٌ وعناية من الله تعالى، ولولا وجود نفع خاص وتجربة حاضرة لمنافعه لما كان هذا الانتشار:

والنَّاسُ أكْيَسُ مِن أنْ يَمْدَحُوا أحدًا ... لَم يَرَوا عندَهُ آثَارَ إحْسَانِ

الوجه الثالث: تجربته في الحاجات والتعويذات وعند الضرورات

وهذا بابٌ متسعٌ جدًّا، فكثير من الناس وجد له بركةً وحالةً صادقة وخواصًا

---

(١) جمع حرز وهو: الموضع الحصين. يقال: هذا حِرزٌ حَرِيزٌ. ويُسمى التعويذُ حِرزًا. (الصحاح في اللغة/ حَرَزَ)، والسنة قد جاءت بالرقية، وما في الحزب لا يبتعد عن السنة بل ألفاظ الحزب من نصوص القرآن والسنة.

ظاهرة، ومن عجائب خصائصه في البحر وعند سكون الرياح، وهو باب مفتوح، لمن أراد بيان ذلك ينظر أمره مع حسن الاعتقاد وصفاء الوداد؛ فجَرِّب إن شئتَ مع حسن الظن بالله تعالى وسلامة الصدر لأوليائه تجد نجاحًا[1] ظاهرًا وأمرًا باهرًا.

ذِكْرُ بَعْضِ قَبُولِ الله للداعِي بالحزبِ مما جَرَىٰ للمصنِّف وإخوانِهِ

وحكايات تجربته كثيرة منتشرة يضيق الكتاب عن نقلها، ولنذكر لك منها ما تستدل به على يقينها:

١- فمن ذلك: ما ذُكِرَ عن جمع من الفقراء أنهم كانوا يذكرونه - ولم يكونوا من أهل هذا البيت - فقال لهم قائل: «من أين عرفتم بهذا؟» قالوا: «مرَّ بنا قومٌ من المغاربة ذكروا أنهم مروا بطريق «برقة» فوجدوا دابة ميتة قد أحاط بها سباع الطير وأحدقت بها عقاب الوحش وأحدقوا به، ولم يقدر واحد منهم على الوصول إليها، فعجبوا من أمرها، وجاءوا ونظروا فوجدوا الحزب معلقًا عليها، فلما أزاحوه هجم أولئك عليهم».

٢- وأخبرني بعض الإخوان المباركين قال: «أتيتُ إلى بعض الأجناد بالقاهرة المُعِزِّية أتقاضاه دَيْنًا لي عليه فرأيتُ على حائط داره بالقاهرة هذا الحزب المبارك مكتوبًا، وقد جعله محيطًا عليه، فقلتُ له: «أنتَ من الشاذلية؟»، فقال: «أنا أخبرك قصة هذا وسبب كتابتي له، وذلك أني أرسلتُ جماعة عُمَّال لشراء غنم؛ فنزلوا قرية فشعر بهم بعض القُطَّاع؛ فراقبوهم إلى أن ساروا فتبعوهم؛ فلما شعروا

---

(١) في المخطوط: نجحًا، والمثبت من المطبوع.

بالقُطَّاع كان فيهم غلام لي يحفظ هذا الحزب، فأخذ يقرأه، قال: «فلم يروني»؛ فصاروا يمرون بنا ويقولون: «أين ذهبوا، والساعة قد خرجوا أمامنا»، وبقوا متحيرين من أمرنا، ونحن نسمع كلامهم ونراهم وهم لا يرون، فلما أعياهم ذلك كَرُّوا راجعين لينظروا أمرنا، فتقدمنا إلى قرية أخرىٰ، وسلِمنا بفضل الله تعالى وببركات هذا الدعاء؛ فلأجل هذا كتبته حرزًا على منزلي».

قال المخبر: «فأتيتُ الشيخ ﷺ فأخبرتُه(١)» فقال: «نعم فيه آيات الإخفاء».

٣- وأخبرني بعض الإخوان قال: «كنتُ بالمسجد الحرام فاجتمعنا وقرأنا هذا الحزب، فعند قيامي أخذ بيدي شيخ من أهل العراق، وقال لي: «أنا أخبرك بخبر هذا الدعاء»، وهو أنّا سافرنا ببلاد الهند - وكنا جماعة في مركب - فأحاط بنا العدو وأشرفوا على أخذنا، ولم يبق إلا ذلك، فتشهدنا وتهيأنا للموت، وكان بعض الناس كتب لي هذا الحزب في ورقة؛ فجعلتُ أقرأه وأدعو به؛ ففي الوقت جاءت ريح ففرَّقتهم عنا، ونجونا بفضل الله تعالى وببركة هذا الحزب».

٤- وأخبرني بعض الفضلاء عن شيخه: أنه كان في قرية له فيها جَمْع رِزْقَتِهِ(٢) قد جمعها وجعلها جُرُونًا(٣)؛ فجاء أمير من قِبل السلطان يأخذ أرزاق القرية،

---

(١) الظاهر أن المراد هو شيخ المؤلف سيدي أحمد بن عطاء الله ﷺ.

(٢) الرِّزْقَةُ: الرزق، وما يعطاه الجند في المرة الواحدة. وأيضًا: أرض أو غيرها مما يغل، يصرف ريعها على المسجد وخدمه. (الوسيط/ باب الراء).

(٣) الجُرْنُ: الموضع الذي يداس فيه البُرُّ ونحوه، وتجفف فيه الثمار، (ج): أجران. (الوسيط/ باب الجيم) والجرون من: جَرَنَ جُرونًا: تَعَوَّدَ الأمرَ، ومَرَنَ، و الثَّوْبُ والدِّرْعُ: انسَحَقَ ولانَ، والحَبُّ: طَحَنَهُ. (المحيط/ فصل الجيم)

قال: فجاء حتى وقف على الرِّزَقِ، وقال: «خذوا هذه»، فقلتُ: لأقرأنَّ حزب سيدي أبي الحسن علي ﷺ؛ فقرأته فعند ذلك قال لمن بحضرته: «لا تستطيع أن تأخذ هذه وهذا صاحبها هنا»، قال: «فأتوا إليَّ فأعرضتُ عنهم وقمتُ وذهبتُ إلى موضع آخر، فجاءه الأمير يعتذر إليَّ فأعرضتُ عنه، وربما رميته بشيء من الأرض، فما زال بي حتى رضيتُ عنه على ألا يتعرَّض لأرزاق القرية كلها، وأن يراجع السلطان في أمرها، فراجعه، فأمره بردِّ ذلك على أهله، وما أرى ذلك إلا من بركات هذا الحزب».

٥- **ومما رأيتُه منه**(١): أنّا كنّا في طريق الحج المبارك، وكنّا جماعة كثيرة نجتمع فنقرأه؛ فلم نر إلا خيرًا وحِفظًا وإلطافًا وحراسة وننام آمنين؛ حتى كانت ليلة تأخر بعض الإخوان لم يأت لقراءته فهجم عليه السُّرَّاقُ تلك الليلة فأخذوا له متاعًا كثيرًا وُهِبَ له(٢).

٦- وكنَّا ليلة في مدرسة بالإسكندرية فقرأنا الحزب على عادتنا قبل الدرس، وجاء بعض الطلبة فقعد ناحية لشغل له حتى انقضى الحزب، ثم جاء فجلس فجاءت عقرب فَضَرَبَتْهُ دون الجمع كله، فقال مَن حضر - وكان من الصالحين -: «هذا لتركه قراءة الحزب»(٣).

---

(١) المتكلم هو سيدي داود بن ماخلا عليه الرضوان.

(٢) في المطبوع: وشيئا له، وعبارة المطبوع غير واضحة ولا اتساق لها مع المعنى.

(٣) ومن بركات الحزب الشريف: ما حكاه المقريزي ﷺ في السلوك عند ذكر دخول القبرسي الصليبي الإسكندرية سنة سبع وستين وسبعمائة: حدثني الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن يوسف حارس القصر المذكور - ويعرف بابن قراجا - قال: «كنت فيه بمفردي لما دخلت الفرنج الإسكندرية، فأغلقت بابه، وقرأت حزب سيدي الشيخ الصالح أبي الحسن الشاذلي، وإذا بالفرنج

الوجه الرابع: بركة قائِلِهِ

ولا إشكال أنَّ دعاء الأولياء والأكابر والصالحين له بركة زائدة على غيرهم؛ لأن ألستهم كريمة، وأنوار قلوبهم عظيمة، وهممهم عليَّةٌ، وإشاراتهم سنيَّةٌ؛ حتى إن القرآن يكون له أثر عظيم عند سماعه منهم، وللأحاديث بهجة وجلالة زائدة إذا أُخِذَت عنهم، وللمواعظ منهم تأثير في القلوب ظاهر، ولعلومهم وفِقْهِهِم أنوار ونَفْع متظاهر؛ حتى تجد الرجل منهم له العمل القليل والعلم القليل وينتفع به لحسن نيته ووجود ببركته النفع الكثير، وغيره له أكثر من ذلك ولا ينتفع به مثله؛ لأنه دونه في منزلته.

ومن تأمل ذلك وجده أمرًا ظاهرًا معهودًا وشيئًا مجرَّبًا موجودًا، فانظر إلى نفع الناس بكتاب ابن الجلاب في مذهب مالك ﷺ(١)، وكتاب «التنبيه» في

أتوا إلى الزربية، فيهم خيالة ومشاة، وكنت صعدت أعلى القصر، فعدت أنظر إليهم من شقوق في حائط، فطلع بعضهم على زلاقة بابه، وصاروا يتشاورون في أمره، وكنت أعددت لنفسي مكاناً أختفي فيه إن دخلوه، ولكن خفت بأن يحرقوه فأهلك بالنار، فوقفوا ساعة وتركوه ومضوا، فرأى أحدهم صبيا بالزربية يعدو سريعا حين معاينته لهم، فعدى الإفرنجي، فلما أحس به الصبي ووقف باهتا من الخوف، فضربه الإفرنجي، فالتقى الصبي الضربة بيده اليسرى. فطارت يده إلى الأرض، ثم ضربه ضربة أخرى على عاتقه، فوقع على شقه الأيمن مستقبل القبلة، ومضى وتركه. فصار الصبي ينمق الذباب بيده اليمنى عن وجهه وجراحه وهو راقد، وما أمكنني النزول إليه من القصر، خوفًا من رجوع الفرنج إلى الزربية فصار الصبي مطروحًا بالأرض إلى أن مات شهيدًا، ﷺ. انتهى.

قلت: هذا هو المقريزي الذي يعتني الوهابية بكتابه: «تجريد التوحيد» لكونه جرى على مذهب ابن تيمية في مسائل دون مسائل. غفر الله للجميع.

(١) هو كتاب «التفريع» لأبي القاسم عبيد الله بن الحسن بن الحسين الجلاب البصري المشهور بابن الجلاب، وقد اشتهر الكتاب باسم صاحبه فيعرف بـ«كتاب ابن الجلاب»، وللعديد من علماء المالكية شروح عليه. توفي ابن الجلاب سنة ٣٧٨ هجرية.

مذهب الشافعي[1]، وكتاب «الجمل» في العربية[2]، و«الإرشاد» في علم الكلام[3]، وانتشارها مع أنَّ ما حوته من العلم في فنونها قليل، وقد جمع غيرهم أضعاف هذه الكتب مع تحذيق [وتحقيق في][4] العبارة، وتشقيق المعاني وتلخيص الحدود، ومع هذا فالنفع بهذه أكثر، وهي أظهر وأشهر؛ لأنَّ العلمَ بمزيد التقوىٰ وقوة بِرِّ الإيمانِ، لا بكثرة الذَّكَاء وَفَصَاحَةِ اللسان؛ كما بيّن مالك ﷺ بقوله: «ليس العلم بكثرة الروايات، وإنما العلم نور يضعه الله في القلب»[5].

فبهذا يُعلم بركة دعاء الأكابر إذا أخذ عنهم وتُلُقِّيَ منهم، ولا إشكال في عظيم بركة قائل هذا الدعاء، وأنه من أكبر الأولياء، بل هو القطب في زمانه كما شهد بذلك العارفون بالله شرقًا وغربًا، ولم يَمْتَرِ في ذلك ذو بصيرة من أهل الطريق؛ فما ظنُّك بدعاء يبرز عن هذا القلب المستنير، ولفظٍ يخرجُ مقرونًا بهمَّةِ هذا الرجل الكبير؟!

---

(١) كتاب التنبيه في الفقه الشافعي متن ألفه الإمام أبو إسحق الشيرازي الفيروزآبادي المتوفى سنة ٤٠٦ هجرية. وألف على التنبيه العديد من الشروح كشرح الإمام السيوطي وشرح العلامة الخطيب الشربيني.

(٢) كتاب الجمل في النحو لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي المتوفى سنة ٣٤٠ هجرية. وقد شرحه العديد من العلماء كابن عصفور وابن هشام. وللمؤلف- أي سيدي داود بن باخلا شرح عليه وصفه الإمام السيوطي في ترجمته بأنه «بديع»، كما سبق في مقدمة التحقيق.

(٣) للإمام أبي المعالي عبد الملك ابن الإمام أبي محمد الجويني المتوفى سنة ٤٧٨ هجرية.

(٤) ليست في المطبوع.

(٥) وهذا من أظهر الأدلة على أن الشيخ داود ﷺ لم يكن أميًا؛ بل عالم مشارك في جملة من علوم الشريعة؛ فما ذكره ﷺ من الكتب تتضمن جملة من العلوم لغوية وشرعية.

وقد ذكر الشيخ الصَّفِي بن أبي المنصور رحمه الله في رسالته: «عن الشيخ أبي العباس الحرار رضي الله عنه في قصة ذكرها أنَّه: كُشِفَ له عن رجلين في دائرة وهما يصليان أحدهما مغربي، قال: فقيل لي: القطب أحدهما. فقلت: مَنْ هو؟ فقيل لي: الذي يرفع رأسه أولًا هو القطب. فرفع أحدهما أولًا فعلمت أنه القطب، قال: فرأيته تَفَلَ، تَفْلَةً فلم يَبْقَ وليٌّ لله إلا أخذ بقسطه من تلك التَّفْلَةِ»(١).

فانظر - رحمك الله- في تَفْلَةٍ بَرزت من قطب كيف أثَّرت ونفعت، فكيف إذا كان كلامًا؟! فكيف إذا كان قرآنًا وأمرًا من السنة؟!! فيجتمع مجامع الخيور، ويزداد الأمر باجتماع هذه الخصائص نورًا على نور.

الوجه الخامس: سببه الذي جُمِعَ لأجله، والحال المبارك الذي هو قُرِنَ بأصلِهِ

اعلم أن الله تعالى يربطُ الخيرات والاستجابات بأوقات وحالات وأماكن وصفات:

فالأوقات: كرمضان وليلة قدره، ويوم عرفة، وعاشوراء، والأوقات التي كرمها الله.

والحالات: كالسفر، والمرض، ونزول الغيث، وعند القتال.

والأماكن: كالحَرَم، والأرض المقدَّسة، ومواطن الخيرات.

والصفات: كحال الاضطرار، وحضور القلب، ونزول الفاقات ونحوها،

---

(١) ودليل التبرك ببعض ما يخرج من الصالحين ما أخرجه البيهقي في الشعب (١٥٥١): «أن رسول الله ﷺ كان إذا توضأ أو تنخم ليبتدروا نخامته يمسحوا بها وجوههم و جلودهم فقال رسول الله ﷺ: لم تفعلون هذا؟ قالوا: نلتمس به البركة فقال رسول الله ﷺ: من أحب أن يحبه الله و رسوله فليصدق الحديث، و ليؤد الأمانة، ولا يؤذ جاره».

فهذه الأحوال يُرجىٰ عندها وجود الإجابة ونزول الرحمة؛ فاجتهد في أمر هذا الدعاء.

[قصة إِسْلَامِ القس وأولادِهِ على يَدِ سيدي أبي الحسن الشَّاذلي ﷺ برؤيتهم بَرَكَة الحزب]

كما أخبرنا الشيخ الأجل سيدنا وقدوتنا شرف الدين ولد الشيخ سيدي أبي الحسن ﷺ قال: «سافرنا مع الوالد ﷺ في الحجة التي توفي فيها، وكان قد ضاق الوقت وركبنا مع قوم نصارىٰ - قسيس وأولاده - وكانت لهم كنيسة في أسفل المركب وكانوا بحَّارةَ تلك المركب، فرأينا من عجائب قدرة الله ما يُقْضَى منه العجب؛ وذلك أننا كنَّا ننظر جبل القاهرة والريح ساكنة والشيخ ﷺ داخل الكيب[1].

قال: فخرج من الكيب واستفتح هذا الدعاء[2]؛ ثم قال لأحد هذه البحارة من ولد القسيس - واسمه مسمار -: «يا مسمار الخير، افتح القلع وسَمِّ الله تعالى». ففعل؛ فجاءت في الوقت ريح عاصف شديدة بحيث لم يبق على ظهر البحر مركب، وأقام جماعة كثيرة في الوحل وهي لا تكاد تتحرك، وبقي المركب يرتفع على الماء ويحطُّ فيه كأنه يطير طيرانًا، حتى إننا لننظر إلى الشبح البعيد ففي الوقت يصير وراءنا، وبقي الْعُرْبَانُ على البرِّ بالخيل يسوقون ينتظرون غَرَقَنَا؛ لتحققهم أن المركب لا تثبت على تلك الحال.

---

(١) لم أعثر على معنى هذه الكلمة ولعل معناه المخدع.

(٢) أي دعا الشيخ ﷺ بحزب البحر الشريف محل الشرح.

فلما حان وقت العصر رأينا سوادًا وآثارًا فتبين ذلك من يعرف تلك البلاد؛ فإذا هي أخميم، فلما وصلنا حطَّ القلع ودخلنا بين المراكب والناس يتعجبون من السفر في تلك الريح الشديدة والسلامة مع ذلك، وخرج أهل البلد يتلقون الشيخ ﷺ وأَسْلَمَ أولاد القسيس لما شاهدوا من عظيم قدرة الله تعالى، وتلكأ والدهم لشديد كفره، فدعاه الشيخ ﷺ وأجلسه بين يديه، فصار يتلوَّنُ، فأمرنا فقرأنا عليه سورة المائدة، فشرح الله تعالى صدره وأسلم، وجعل تلك المركب باسم الشيخ ﷺ».

قلت: وفي القصة طُولٌ، نقلتُ بعضها بنحو معناه، والله أعلم.

ﮨﮩ

الفصل الثالث

في بيان ما أشكل من ألفاظه والكشف عنها، وإيضاح شيء من معانيها، وبيان ما تيسر منها

قوله: (يَا عَلِيُّ يَا عَظِيمُ يَا حَلِيمُ يَا عَلِيمُ) هذه الأسماء الأربعة من أجلِّ الأسماء وأعظمها قدرًا؛ إذ هي مشتملة على أصول المعارف وقواعدها، وقد اشتمل على الاسمين الأولين سيدة آي القرآن «آية الكرسي» وخُتِمَت بهما.

وفي كتاب «الاستيعاب» لأبي عمر بن عبد البر: «إنهما الاسم الأعظم»[1].

وقد دلَّا على الوصفين الجليلين: العلو والعظمة، اللذين هما حقيقة في الأوصاف، وأسرار معاني الأسماء مقرونة بهما؛ فهو «الرَّبُّ الْعَلِيُّ» في ربوبيته، وهو «الملِكُ الْعَلِيُّ» في ملكه، وهو «الْقَادِرُ الْعَلِيُّ» في قدرته، وهو «الرَّحِيمُ الْعَلِيُّ» في رحمته وكذلك في جملة الأسماء. وفي العظمة كذلك.

ونور الاسمين يبدو للقلب منه أنواع المعارف؛ فإذا لاح للقلب أنوار العلوم والعظمة تحقق معرفة خالقه، والعبد مكلَّفٌ بمعرفة مُوجِدِهِ وبعبوديته، والوجودان[2] خُلِقَا للمعرفة والعبودية، وهما -أعني[3] المعرفة والعبودية- نهاية

---

(١) لم أجد هذا الكلام في «الاستيعاب»، ولقد وهم المصنِّف رحمه الله في العزو إليه.

(٢) لعله يقصد الوجود الشهادي والوجود الغيبي الحادث، أي عالم الشهادة وعالم الغيب دون أسماء الله وصفاته، أو يقصد عالم الخلق وعالم الأمر. ولعله يقصد الإنس والجن كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦).

(٣) أ: أعلى

شرف الآدمي إذا حصل عليهما فبشهود العلو والعظمة - إيمانًا ويقينًا - يقتبس نور المعرفة، ويجتني ثمار التحقيق.

وبالحلم والعلم تَمَّ نظام العالمين؛ إذ لولا علمه لما ثبت وجود الدنيا؛ ولولا حلمه ما وصل أحد إلى جنته. وعن العلم تقرَّرت السوابق وظهرت العلائق، ووُجِدَتْ الموجودات لما سبق من علمه، وانساقت العوالم بمن فيها إلى إبداء ما انطوىٰ في العلم الأول، وعن العلم كان العمل والجزاء والحساب والثواب؛ فاشتملت الأسماء الأربعة علىٰ علم المعرفة وعلم العبودية.

والمناجي بهذه الأسماء كشفًا متحقق بالمقامين، وسائح في البحرين، والدَّاعي بهما تصديقًا وإيمانًا حاصل على ثواب الحالين، سالك في نهج الطريقين، والكلام بكل الأسماء بحر لا آخر له، والمقصود التنبيه على جلاله قدر هذا الدعاء، وخصوصية جمع هذه الأربعة أسماء.

ولها أيضًا خصوصية جمع في سرعة الإجابة، وفي أمر البحر أيضًا.

وذكر الحافظ أبو نعيم، وأبوا لفرج ابن الجوزي: «عن العلاء بن الحضرمي صاحب رسول الله ﷺ أنَّه حال البحر بينه وبين عدو يقصده، فدعا: «يَا عَلِيُّ يَا عَظِيمُ»؛ فاقتحم البحر وخاضه هو وجيشه، وما بَلَغَ لُبُودَ(1) خيلهم»(2).

---

(1) اللبد: كل شعر أو صوف متلبد، وما يوضع تحت السرج. (الوسيط/ باب اللام).

(2) أخرجه ابن أبي شيبة (29804)، والبيهقي في دلائل النبوة (6/ 51)، ولفظه عن سيدنا أنس ﷺ: «ثم جهَّزَ عمر بن الخطاب - يعني جيشًا - واستعمل عليه العلاء بن الحضرمي، قال: وكنت في غزاته،... ثم أتينا عدوَّنا وقد جاوزوا خليجًا في البحر إلى جزيرة فوقف على الخليج وقال: «يَا عَلِيُّ، يَا عَظِيمُ، يَا حَلِيمُ، يَا كَرِيمُ»، ثم قال: «أجيزوا باسم الله»، قال: فأجزنا ما يبل الماء حوافر دوابنا

والاسمان الأولان مقرونان في مواضع من القرآن، والآخران كذلك.

وقوله: (أَنتَ رَبِّي وَعِلْمُكَ حَسْبِي) نهايةٌ في التَّسليم والاكتفاء؛ والانخلاع عن رقِّ الدعوى بين يدي مالك الأرض والسماء، وهو مأخوذ من قول الخليل ﷺ: «حَسْبِي مِنْ سُؤَالِي عِلْمُهُ بِحَالِي»(1)؛ إذ مِن تحقُّق الإيمان بالربوبية تنبعث

فَأَصَبَا العدوُّ غِيلَةً، فقتلَنَا وأسرَنَا وسبينا ثم أتينا الخليج فقال مثل مقالته فأجزنا ما يبل الماء حوافر دوابنا...».

(1) ذكره العجلوني في «كشف الخفا» (1136)، فقال: «ذكره البغوي في تفسير سورة الأنبياء بلفظ «ورُوي» عن كعب الأحبار أن إبراهيم». اهـ. وقد ثبت في صحيح البخاري (4287): عن ابن عباس ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ (آل عمران: 173) قالها إبراهيم ﷺ حين أُلقِيَ في النار، وقالها سيدنا محمد ﷺ حين قالوا ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ (آل عمران: 173). ويلاحظ هنا أن الحسبلة تفويض لله تعالى وليس دعاء. وإن قام مقام الدعاء.

ويشهد لهذا كذلك قوله تعالى على لسان نبيه ﷺ مخاطبًا سيدنا أبي بكر الصديق ﷺ ((إن الله معنا)) فاكتفى بمعية الله تعالى لهما عن سؤاله. وخصوم الصوفية متفقون على أن المعية تعني العلم وتعني النصر والتأييد، فالعلم داخل في معناها، فيكون النبي ﷺ اكتفى بشهوده علم الله تعالى بحالهما واطلاعه عليهما واثقًا من نصر الله وتأييده.

ومنه قول النبي ﷺ للضرير الذي جاءه يطلب دعاءه: «إن شئت دعوتُ وإن شئتَ أخرتُ».

وفي «جامع العلوم والحكم»: «قال الخلال: أخبرنا محمد بن أحمد بن منصور قال: سأل المازني بشرَ بنَ الحارث عن التوكل، فقال: المتوكل لا يتوكَّل على الله ليُكفى، ولو حلَّت هذه القصة في قلوب المتوكلة، لضجُّوا إلى الله بالندم والتوبة، ولكن المتوكل يَحُلُّ بقلبه الكفاية من الله تبارك وتعالى فيصدق الله - عز وجل- فيما ضمن. ومعنى هذا الكلام أنَّ المتوكل على الله حقَّ التوكل لا يأتي بالتوكل، ويجعله سبباً لحصول الكفاية له من الله بالرِّزق وغيره، فإنَّه لو فعل ذلك، لكان كمن أتى بسائر الأسباب لاستجلاب الرزق والكفاية بها، وهذا نوعُ نقص في تحقيق التوكُّل». فهل الاكتفاء بعلم الله توكلاً عليه شيءٌ سوى هذا؟ بل ليس للتوكل معنى إلا تيقن المرء من اطلاع الله تعالى على حاله وأنه لا يكله إلى سواه.

ملاحظة شهود الألطاف[1] والرفق والرحمة.

والاكتفاء بالعلم مُغْنٍ عن تفصيل السؤال، وبثّ وجوه الشكوى.

قال ابن رجب السلفي: «وذكر إبراهيم بن أدهم عن بعضهم قال: ما سأل السائلون مسألة هي ألحف من أن يقول العبد: ما شاء الله. قال: يعني بذلك التفويض إلى الله عز و جل. وقال سعيد بن سالم القداح: بلغني أن موسى عليه الصلاة و السلام كانت له إلى الله حاجة فأبطأت عليه فقال: ما شاء الله. فإذا حاجته بين يديه، فعجب، فأوحى الله إليه: أما علمت أن قولك «ما شاء الله» أنجح ما طلبت به الحوائج؟! وأيضًا فإن المؤمن إذا استبطأ الفرج وأيس منه بعد كثرة دعائه وتضرعه ولم يظهر عليه أثر الإجابة فرجع إلى نفسه باللائمة وقال لها: إنما أتيت من قبلك ولو كان فيك خير لأجبت، وهذا اللوم أحب إلى الله من كثير من الطاعات؛ فإنه يوجب انكسار العبد لمولاه واعترافه له بأنه أهل لما نزل من البلاء، وأنه ليس أهلًا لإجابة الدعاء، فلذلك تسرع إليه حينئذ إجابة الدعاء وتفريج الكرب؛ فإنه تعالى عند المنكسرة قلوبهم من أجله».

فهذه هي آي القرآن وأحاديث النبي ﷺ وآثار السلف شاهدة بأن السكون تحت مجرى الأقدار والتوكل على الله تعالى والرضا ما نزل منه هي أحوال الأكابر من الأولياء المقربين.

فالتشنيع بعد هذا على سيدي أبي الحسن الشاذلي بأن في كلامه مخالفة للسنة سوء ظن بولي من أولياء الله تعالى، ووقوع في ما لا ينبغي الوقوع فيه حمل فاعله عليه قلة توفيقه وعظم خساره. ثم كيف يكون صاحب الحزب تاركاً الدعاء مع أن الحزب كله دعاء؟! وقد أبى بعض المعترضين إلا الوقوع في العارفين وكتب كلامًا عاريًا عن التحقيق قال فيه إن عبارة: «حسبي من سؤالي علمه بحالي» التي يجعل لفظ الحزب دائرًا عليها «كلام باطل خلاف ما ذكره الله عن إبراهيم الخليل وغيره من الأنبياء من دعائهم له سبحانه ومسألتهم إياه، وخلاف ما ثبت عنهم عليهم السلام في السنة، وخلاف ما أمر الله به عباده من سؤالهم له لصلاح الدنيا والآخرة، وأدعية الأنبياء في الكتاب والسنة لا تكاد تحصى»... وفي باقي كلامه إساءة صريحة للإمام الشاذلي رضي الله عنه وأرضاه أُنزه صفحات هذا الكتاب عن أن تتضمنه. نعوذ بالله تعالى من الغرور والتجرؤ والوقاحة مع أولياء الله تعالى. وكون القرآن والسنة متضمنين للدعاء والأمر به لا يتنافى مع الأدلة الأخرى التي سقناها لأن هذا محمول على اختلاف الأحوال؛ إما باختلاف الناس أنفسهم وإما باختلاف الأوقات على الشخص الواحد.

(١) في المخطوط: الألفاظ، وهو تصحيف، والمثبت من المطبوع.

وردُّ عِلْم الحال إلى مَن هو أعلم بها من مبديها، والاشتغال بشهود عظمة مَن هو بين يديه عن بث أحواله وعرضها عليه، ورعاية أدب الحضرة أن تشوبها تفرقة بعد ضرورات النفس وشهود أحوالها- هذا في حال مَن اصطلمه التحقيق، وكأنه في بحار أنوار التوحيد كالغريق.

وأما أهل البدايات فشأنهم طلب الحاجات وسؤال الضرورات وبَثُّ الشكايات، وإنْ لمحوا بَرْقَ هذا الحِمىٰ ومالوا إلى سماع هذا النداء فمن بعيد؛ تذكُّرًا وعلمًا وكياسة وفهمًا.

وربما كان حال أرباب الكمال بعضهم[1] في كل أحواله، وبعضهم في بعضها: ذكرُ العدِّ والتفصيل، وكل منهم له في ذلك من[2] حاله دليل.

وقوله: (فَنِعْمَ الرَّبُّ رَبِّي وَنِعْمَ الحَسْبُ حَسْبِي) دلَّ على معناه القرآن العزيز بقوله تعالى: ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ (الحج: ٧٨).

وقوله: (نَسْأَلُكَ الْعِصْمَةَ في الْحَرَكَاتِ وَالْكَلِمَاتِ وَالْإِرَادَاتِ وَالْخَطَرَاتِ مِنَ الشُّكُوكِ وَالظُّنُونِ، وَالأَوهَامِ السَّاتِرَةِ لِلْقُلُوبِ عَنْ مُطَالَعَةِ الْغُيُوبِ)، هذا سؤال يؤذن بعظيم المعرفة، جامع لمعانٍ كثيرة يحتاج العبد لمعرفتها؛ ليستحضر وقت سؤاله ما له يطلب وما عنه يهرب، ولهذا يختص العلماء والأولياء بمعرفة الحقائق، وملاحظتها: شهودًا للأولياء[3]، وعلمًا حقيقيًّا للعلماء؛ إذ بمعرفة الحقائق تحصل

---

(١) بالأصول: معهم، وهي قريبة في الرسم مما أثبتناه، وما أثبتناه موافق للسياق، وما في الأصول تصحيف.

(٢) أ: في.

(٣) بالأصول: وشهود الأولياء، تصحيف.

حالة الاضطرار المنوطة بها الإجابة؛ فكثيرٌ من الناس يسأل، ولا يعرف مَن يسأل ولا ما يسأل، ولهذا كثيرًا ما يحصل لأهل الغفلة سؤال الاضطرار في أمر دنياهم لعلمهم بها، ولا يحصل لهم ذلك في أخراهم لغفلتهم عنها.

وقال بعض السلف: «لو خفتم من النار كما تخافون الفقر لنجوتم منهما جميعًا، ولو رجوتم الجنة كما ترجون الغنىٰ لفزتم بهما جميعًا»[1]، ولهذا يُستَحبُ دعاء العلماء والأولياء[2] لعلمهم بحقائق الأشياء؛ فيندرج الدَّاعِي وإن كان غافلًا في بركات دعائهم، فانظر رحمك الله إلى هذا الدعاء وجمعه لذلك.

قوله: (نَسْأَلُكَ الْعِصْمَةَ) فلفظ «الْعِصْمَة» جامع لمعانٍ لا توجد في غيرها؛ فلو قال: «السلامة» أو «الحفظ» مثلًا لم يكونوا كلفظ العصمة؛ لأن السلامة والحفظ يؤذنان بأنه لا يَعرِض له شك ولا ظن ولا وهْم يستر قلبه عن مطالعة الغيب، وتلك حالة ليست لغير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وقد بينه الشيخ ﷺ في غير ما موضع من ذلك قوله ﷺ: «كنتُ أطالع مرة ملكوت السماء فوقعت مني هفوة؛ فحجبتُ عن شهود ذلك؛ فتعجبتُ كيف حجبني هذا الأمر الصغير عن ذلك الأمر الكبير؟! فإذا النداء عليَّ يقول لي: البصيرة كالبصر، أدنىٰ شيء يقع فيها يعطل النظر، وإن لم ينته الأمر به إلى العمىٰ»[3].

---

(١) لم أهتد لقائله بعد البحث.

(٢) أي يستحب طلب الدعاء منهم.

(٣) لطائف المنن ص: ٥٩.

فالخطرة من الشر تشوش النظر وتكدر الفِكَر[1]، والإرادة له تذهب بالخير رأسًا، والعمل به يذهب بصاحبه عن سهم من الإسلام فيما هو فيه ويأتي بضدِّه؛ فإن استمر على الشر تفلَّتَ منه الإسلام سهمًا سهمًا، فإن انتهىٰ به إلى الوقيعة في الأئمة وموالاة الظَّلَمَةِ حُبًّا في الجاه والمنزلة، وحُبًّا للدنيا على الآخرة؛ فقد تفلَّتَ منه الإسلام كله، ولا يغرنَّك ما يرسم به ظاهرًا[2] فإنه لا روح له، وروح الإسلام: حبُّ الله ورسوله، وحبُّ الآخرة، وحبُّ الصَّالحين من عباده.

وكذلك قوله ﷺ: «الولي مُصانٌ في أربعة مواطن: في الخواطر، والوسواس في الصلاة، ووقت الدعاء والْلَجَأِ إلى الله تعالى، ووقت نزول الشدائد وعند تفريجها، فهذه المواطن لا يخطر بقلوبهم ولا يتعلق فيها بشيء سوى الله تعالى.

«وهي[3] محروسة مصانة إلا من أربعة أصناف: من ذكر الآخرة وضدها، ومن ذكر الأولياء وأضدادهم، ومن ذكر الطاعات وأضدادها، ومن ذكر حقائق الإيمان وأضدادها؛ فهو مصان من جميع الخواطر كلها إلا من هذه الأربعة؛ لما فيها من فوائد الاشتغال بالعبودية المحضة من النهوض عن الضدِّ، وكيف لا يكون ذلك ورسالات ربنا على لسان نبينا ﷺ محشوة بذكر ذلك كله؟! فلا تنازع في دفع شيء من هذا الباب، وأعط الأدب حقه فيما يخطر بقلبك، واعتصم بالله وتوكل على الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

---

(١) في المطبوع: الفكرة.

(٢) أي لا يغرنك ما يأتي به المعترض من رسوم العبادات وأشكالها دون أرواحها لأن روح الإسلام المحبة في الله ولله، وهي محبة الله وأنبيائه وأوليائه.

(٣) الضمير يعود على قلوب الأولياء.

«وعليك بالتقوى في ثلاثة منازل: تقوىٰ العزائم، وتقوىٰ الاقتضاء، وتقوىٰ التجريد في الأحوال والأماكن، والتوكل رأس الأعمال، والزهد أساسها.

«وتفسير التقوى في العزائم: أن تعزم في جانب الخير أن تفعله، وفي جانب الشر ألا تفعله؛ ثم تقتضي من نفسك في وقت ثانٍ بتقوىٰ مجدَّد أن تفعل كما عزمت وأن تترك كما عزمت؛ ثم تعترضك في الأحوال الظاهرة والباطنة أحوال كالعز والذل والغنىٰ والفقر والصحة والمرض والبؤس والنعماء وغير ذلك، وفي الباطن كالقبض والبسط والخوف والرجاء وغير ذلك، ومنه أيضًا: الكبر والتواضع وخوف الفقر والأمن وسائر الأضداد؛ فتعطي التقوى حقها في الأحوال، وفي الأوصاف بالتحويل من بلد إلى بلد ومن موضع إلى موضع وغير ذلك.

«وانظر قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ (الطلاق: ٢)، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ (الطلاق: ٤)، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ (الطلاق: ٥)، إلى غير ذلك من آيات التقوىٰ؛ فاستعن بالفهم، وأَنْزِلْ كلَّ تقوىٰ منزلتها تـرَ العجب العجاب وأسرار الله، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ (الطلاق: ٣) ومَن يزهد في الدنيا يحبه الله[1]، ومَن أحبه الله كفاه الله وَكَلَاه وجعله في حرزه وفي كفالته ومأمنه، ﴿يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [نفَسًا أو نفَسين، أو زَمَنًا أو زَمَنين، أو ساعةً أو ساعتين][2] ﴿نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ٣٦ وَإِنَّهُمۡ

---

(١) إشارة لقوله ﷺ: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس»، رواه ابن ماجه (٤١٠٢)، والحاكم (٧٨٧٣) والقضاعي (٦٤٣)، وفي لفظ: «ازهدْ في الدنيا يحبَّك الله، وأما الناسُ فانبذْ إليهم هذا فيحبوك». رواه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٤١) بسند صحيح.

(٢) غير موجود في المخطوط، مثبت من المطبوع.

﴿لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (الزخرف: ٣٦، ٣٧)»[1].

ولفظ (الْعِصْمَة) أيضًا يُشْعِر أن ذلك بعناية من الله تعالى وتخصيص.

وقوله (في الحرَكَاتِ .... إلى آخره)[2]؛ لأن الصفات الصادرة من العبد نوعين:

من قلبه وقالبه، فالتي من قلبه نوعان: شيء ورد عليه قبل أن يعزم عليه وهو الخطرة، وشيء صمم عليه وهو الإرادة.

والتي من قالبه نوعان: نطق باللسان وهو الكلمات، وفعل بالأركان وهو الحركات.

فشملت هذه الكلمات سائر صفات العبد الاختيارية؛ ظاهرًا وباطنًا، قلبًا وقالبًا، طاعة أو معصية، غفلة أو يقظة.

وجاء بلفظ (في) بمعنى الحال؛ كأنه قال: «اعْصِمْني في حَالِ وجُودِ هَذِهِ الصِّفَاتِ، وَتَرَدُّدِي فيها، وَوُرُودِهَا عَلَيَّ».

[قَلْبُ الْعَبْدِ مِرْآة؛ كُلُّ خَطْرَة فما دونها تنتج فيه نُورًا أو ظُلْمَةً]

وقوله: (مِن الشُّكُوكِ وَالظُّنُونِ وَالْأَوهَامِ) اعلم أن قلب العبد مرآة تنتقش فيها صور ما يبدو عليه ظاهرًا وباطنًا؛ فما من خطرة ولا حركة من ظاهر ولا لحظة من ناظر إلا ولها أثر في القلب، إما بنور إن كانت من دائرة الأنوار، وإما بظلمة إن

(١) هنا ينتهي كلام الإمام الشاذلي، وبدايته من قوله: «الولي مصان في أربعة مواطن».

(٢) وتمام الجملة: «نسألك العصمة في الحركات والسكنات والكلمات والإرادات والخطرات».

كانت من دائرة الظُّلَمِ، وأدلة ذلك ظاهرة من الكتاب والسنة وطريق الطائفة وشهود أهل العلم والكشف والسلوك.

والقلب في أصله ساذج قابل للدائرتين قبولاً أوليًا، وهو المسمى بـ«الفطرة»، فإن وردت عليه الأنوار صار بوصفها وقابل عالم[1] الغيب فرأىٰ ما فيه بالنور الوارد عليه على حسب مقامه، وإن وردت عليه الظُّلَم صار بوصفها وحُجِبَ عن عالم الغيب ورُدَّ إلى عالم الشهادة.

ثم النور أيضًا قد تشُوبُهُ ظُلْمَةٌ، وقد يكون صافيًا، وقد يعم القلب، وقد يكون في جزء منه؛ فإن ورد النور صافيًا فعمَّ القلب فذلك «اليقين التام»، وإن وردت عليه ظلمة -والعياذ بالله تعالى- فعمت القلب فذلك هو الحجاب العظيم وهو «الكفر»، وأصل الكفر: التغطية، وهو أن يُغطى القلب كله بسواد الحجاب فيجتمع الغطاء والسواد، وهو المسمَّىٰ «كفرًا»؛ كما قال في صفة تغطية الشمس بالليل:

حَتَّى إِذَا أَلْقَتْ يَدًا فِي كَافِرٍ[2]

ومنه قوله تعالى في صفة الحالين: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ (آل عمران: ١٠٦)؛ فجعل سواد الوجه يوم

---

(١) في المخطوط: علم.

(٢) البيت للبيد:

حتى إذا ألقَتْ يَدًا في كافِرٍ وأجَنَّ عَوْراتِ الثُّغُورِ ظَلامُها

يعني بدأت الشمس في المَغِيب، فجعل للشمس يَدًا إلى المَغِيب لما أراد أن يَصِفَها بالغُروب. (لسان العرب/ كفر).

القيامة عنوان الكفر، فاتصفت وجوههم هناك بصفة قلوبهم في الدنيا؛ بأنَّ ذلك اليوم تتصف[1] الوجوه بصفة القلوب، ويظهر على الظواهر ما كان في القلوب محجوبًا.

وإن كان القلب يَرِدُ عليه نورٌ وظلمةٌ على السواء، فصار النور يجرُّه إلى عالمه والظلمة إلى عالمها؛ فصار مترددًا بينهما فهو «الشَّكُّ».

وهذا في النور الأصلي والظلمة الأصلية اللذين يغلبان أصل القلب، وأما غير ذلك فقد يكون النورُ نورَ طاعةٍ ضعيفًا، فلا يهجم بالقلب على كشف الغيب. وقد تكون الظلمة أيضًا ضعيفة كظلمة المعصية مع وجود نور الإيمان، فلا يقع القلب بها في ظلمات الجحود والكفران.

وبالجملة؛ فمراتب الأنوار والظُّلَم بصفاتها ومقاديرها وآثارها مع القلوب ومقاماتها وأحوالها فيها العجب العجاب، ومسارها قلب العارف كشفًا أو حال المريد سلوكًا، وبسط إشاراتها لا يفي به مجلدات؛ فإن زاد أحد الأمرين فهو في مَورِدِه الراجح ظن، والمرجوح وهم؛ كما إذا غلب على قلبٍ نورٌ مع ظلمةٍ فيه فهو في محل الأنوار ظَانٌّ، وفي محل الظُّلَمِ وَاهِمٌ، والعكس].

[تَلَوُّنُ الْقُلُوبِ عَلَى الدَّوَامِ خَطَرٌ عَظِيمٌ فَوَاجِبٌ طَلَبُ التَّوفِيقِ وَالثَّبَاتِ مِنْهُ تَعَالَىٰ]

إذا علمتَ ذلك؛ فاعلم أن [تَلَوُّنَ][2] القلب في مَحَالِّ هذه الحركات والكلمات

(١) ب: تبيض.

(٢) ب: تكون.

والإرادات والخطرات بوصف الشك والظن والوهم أمرٌ عظيمٌ، والقلب في ذلك كله على خطر، ولهذا جاء في الحديث: «قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف شاء»[1] إشارةً إلى تعظيم هذا الأمر وتحذيرًا من تقلب القلوب، والأحاديث في ذلك كثيرة مشهورة، فسأل الشيخ ﷺ أن يحفظه الله تعالى في هذه الأحوال والأوصاف والأقدار النازلة به من الله تعالى، والفتن المبتلي بها هذا الآدمي من أن يتغير قلبه فيها بشك أو ظن أو وهم تحجبه عن الإيمان بالغيب المطلوب منه الذي مدح الله المتصفين به في كتابه العزيز.

[فصل: جواز طلب نوع عصمة بشروطها]

[العصمة المسئولة من الله تعالى في الحزب مقيدة لا مطلقة]

وأحْسِنْ تأملَ هذا الفصل جدًّا؛ فإنه ما سأل أنْ يُعصَم من المعصية ولا من الشك والظن والوهم مطلقًا؛ فإن العصمة من ذلك كله خاصة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

أما أنه لم يسأل العصمة من المعصية فظاهر من قوله: (مِن الشُّكُوكِ والظُّنُونِ ...) إلىٰ آخره؛ لأن (مِن) يتعلق بـ(الْعِصْمَةِ) وهي معمولها، و«عصم» يتعدىٰ

---

(١) لم أقف على لفظه، لكن الحديث أخرجه مسلم (٢٦٥٤) وأحمد (٦٥٦٩) بلفظ: «إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء». ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك». وصحَّ أيضا بلفظ: «إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها» رواه أحمد (١٢١٢٨)، والترمذي (٢١٤٠)، والحاكم (١٩٢٧)، وصحَّ من رواية الترمذي (٣٥١٧) بلفظ عن أم سلمة ﷺ: «كان أكثر دعائه [ﷺ] يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك، قالت: قلتُ: يا رسول الله، ما أكثر دعاءك يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك! قال: يا أم سلمة، إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ...» الحديث.

بـ(مِن) لمجروره؛ فإنَّ هذا الفعل متعد لمفعول بنفسه، كما تقول: «عـصم الله تعـالى زيدًا من الشر»؛ فالذي وقعت العصمة عنه هو المقرون بحرف (مِنْ)؛ فـإذا قلـت: «عصمني الله تعالى في قراءتي من اللحن»؛ فـالقراءة واقعـة واللحـن غـير واقـع؛ فالمقرون بـ(في) واقع، والمقرون بـ(مِن) غير واقع.

قوله: (نَسْأَلُكَ الْعِصْمَةَ فِي الحرَكَاتِ وَالْكَلِمَاتِ وَالإِرَادَاتِ وَالخطَـرَاتِ مِـن الشُّكُوكِ وَالظُّنُونِ وَالأَوهَامِ)؛ فالمسئول السلامة منه هو الشكوك فما بعـده؛ لأنـه المقـرون بحـرف (مِـنْ)، والحركـات والكلـمات والإرادات والخطـرات مقرونـة بحرف (في) وهي أعم من أن تكون طاعة أو معصية، وذلك ظاهر لمن تأمله.

وأما أنه ما سأل العصمة من الـشك والظـن والـوهم مطلقًـا فلأنـه وصـفها بقوله: (السَّاتِرِ لِلْقُلُوبِ)؛ لأنَّ الشَّكَّ والظَّنَّ نوعان:

نوعٌ: يَرِد فيَسلَم القلب منه بعد وروده ويعود إلى حالته الأولى وربما زاد يقظة،وزواله إما بتذكر أو بنور من الله تعالى، وقد أشير إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٠١).

وَنَوعٌ آخَرُ: يرد على القلب فيكسبه ظلمةً وحجابًا يستره عن مشاهدة حقـائق الإيمان بالغيب، فسأل الشيخ ﷺ العصمة من الشكوك والظنون والأوهـام التـي هي النوع الساتر عن مطالعـة الغيـب لا عـن هـذه الأشـياء مطلقًـا، ولهـذا قيـده بالصفة؛ تقول: «اللهم سلِّمني من الكسب الحرام»؛ فما سألتَ السلامة من كسب المال مطلقًا، وإنما سألتَ السلامة من كسب المال الذي هو حرام.

فهو ﷺ ما سأل العصمة من المعصية؛ وإنما سأل العصمة من الشكوك والظنون والأوهام، ولا سأل العصمة من هذه الأشياء مطلقًا، وإنما سأل العصمة من النوع الذي يصد القلب عن الإيمان بالغيب، وهذا أمر متعيّن على كل عبد، ومطلوب من كل مكلفٍ أن يكون بهذه الصفة، ولولا رحمة الله تعالى لكان العبد مكلفًا بأن لا يخطر بقلبه شك ولا وهم ولا خاطرة، ولكن الله خفَّفَ عنه بأنه إذا خطر ولم يثبت ورجع إلى وصف إيمانه أن ذلك لا يضره؛ كما قال ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما حدثت به نفوسها(١) ما لم تعمل أو تتكلم به»(٢).

انعطافٌ وبَيَانٌ:

[قَد يقعُ للعارف شَكٌّ أو ظَنٌّ أو وَهْمٌ في متعلقات علوم الكشف، لا في أصول العَقَائِدِ]

اعلم أن الشكَّ والظنَّ والوهمَ من الألفاظ الإضافية؛ فهي تنصرف - بحسب متعلقها إلى: ما يُشك فيه ويُظن ويُتوهم.

---

(١) قال الإمام النووي رحمه الله: «ضبطه العلماء بالنصب والرفع، وهما ظاهران، إلا أن النصب أشهر وأظهر، قال القاضي عياض: «أنفسَها» بالنصب، ويدل عليه قوله: «إن أحدنا يحدث نفسه» قال: قال الطحاوي: وأهل اللغة يقولون: «أنفسُها» بالرفع، يريدون بغير اختيارها، كما قال الله تعالى: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ (ق: ١٦).

(٢) بلفظ: «إن الله تجاوز لي عن أمتي ما وَسْوَسَتْ به صُدُورُهَا ما لم تعمل أو تَكَلَّمْ»، أخرجه البخاري (٢٣٩١) مرفوعًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به»، ولفظ الإمام أحمد (٧٤٦٤): «تجوز لأمتي عما حدثت في أنفسها أو وسوست به أنفسها ما لم تعمل به أو تكلم به». والظاهر أن لفظ الشارح رحمه الله مركب من تلك الروايات.

فأما ما كان من شك أو ظن أو وهم في أصل الإيمان بالله تعالى وصفاته وكلماته ووحيه وخبره والنبوة وسائر قواعد الإيمان فالأولياء وخواص المؤمنين مطهرون من ذلك من النوعين جميعًا: من أصلها ومن آثارها؛ وإنما يرد شيء من ذلك في المراتب والخصائص والوعود ومتعلقات علوم الكشف والسلوك وغير ذلك، كما قال الجنيد ﷺ: «أدركتُ سبعين عارفًا كلهم يعبدون الله على ظَنٍّ ووهمٍ، حتى أخي أبا يزيد[1] لو أدرك صبيًا من صبياننا لأسلم على يديه».

قال سيدي أبو العباس ﷺ: قوله «يعبد الله على ظنٍّ ووهمٍ» ليس ذلك في المعرفة؛ إذ المعرفة تنافي الظنَّ والوهمَ، وإنما ذلك أنهم ظنُّوا أنَّ من المقامات ما لا يصحُّ أن يكون فوقه مقامٌ، وليس كذلك، فلو تحققوا لعلموا أن فوق ذلك المقام مقامًا إلى ما لا نهاية له، وقوله: «لأسلم على يديه» أي: لَانْقَادَ لَه، والإسلام: الانقياد، فقد استعمل الشك والوهم في المقامات ومتعلق علوم الكشف لا في حقيقة الإيمان، فقد يقع للعارف شكٌّ أو ظنٌّ، أو وهمٌ في وعد أو كشف، أو علم حال أو مقام أو حال يزيد[2]، أما في أصول العقائد فلا.

[اشْتِرَاكُنَا مَعَ الأنبيَاءِ عليهم السَّلَامُ في الأَلْفَاظِ الإِضَافِيَّةِ، لا يلزمُ منه مُمَاثَلَتَنَا لهم في حقائقها]

فإن قيل: فقد تبين أن هذا الكلام بوصفه يدل على أن المسئول العصمة من الشكوك إلى آخره، لا من المعاصي والذنوب؛ فهلَّا عدل عن لفظ «العصمة» لأنها صفة تكون للأنبياء عليهم السلام؟

---

(١) مولانا أبو يزيد البسطامي طيفور بن سروشان. توفي سنة ٢٦٤، رضي الله عنه ونفعنا به.

(٢) في المطبوع: حال مريد.

قيل: هذا سؤال بَرَزَ عن غير معرفة وتأمل لحقائق الشرع ومعانيه وأصول الدين، وذلك أن **الشركة في الألفاظ الإضافية والصفات الظاهرة لا يلزم منها شركة بين المتصفين، لتباين الوصفين حال قيامها بالمتصفين.**

وبيان ذلك: أن الصفة من حيث هي عرية عن المحل حقيقةٌ متحدةٌ، [فإذا قامت بمحل تنوعت بحسب حاله؛ فالنور مثلاً حقيقةٌ متحدةٌ](1) من حيث هو هو، (2)فإذا كان في الشمس كان على حسب حالها، وإذا كان في القمر كان على حسب حاله، وإذا كان في السراج كان على حسب حاله، فهذه حقيقة تنوعت باعتبار محالّها.

فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام أُمروا بالصلاة والصيام وأنواع العبادات، وهي من حيث هي حقيقةٌ متحدة، وعموم العِباد أُمروا بمثل ذلك، ولكن أين عبادات الرسل من عبادات الأنبياء؟ وأين عبادات الأنبياء من عبادات الأولياء؟ والأولياء من الصالحين؟ وكذلك إلى آخر مراتب المؤمنين.

ولا جائزٌ أن الحقائق في أنفسها تختلف؛ وإنما تختلف باعتبار حال مَن قامت به؛ حتى قال ﷺ: «**إنَّ لله عبادًا التسبيحةُ من أحدهم مثل جبل أحد**»(3)، وكذلك مطالبهم وسؤالهم؛ فيسأل صاحب المقام العلي ومن دونه بلفظ واحد وحقيقة واحدة، ولكن تختلف باختلاف المقامين: الأنبياء عليهم الصلاة والسلام سألوا المغفرة وعموم العباد يسألون المغفرة وشتان ما بين السؤالين، فمعلوم بالقطع أن

---

(1) ساقط من خ.

(2) ليست في المخطوط، مثبت من المطبوع.

(3) لم أقف عليه.

المغفرة التي سألها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام غير المغفرة التي يطلبها من سواهم، وليس ذلك الفرق من حيث حقيقة المغفرة؛ إذ المغفرة حقيقة واحدة لا تختلف في نفسها، بل باعتبار محالّها.

وقد قال علماء الكلام ما هو أعظم من هذا: بأن العلم القديم والحادث شمله حد واحد، وكذلك الإرادة والقدرة؛ فلا تختلف بالحد شاهدًا و غائبًا[1]؛ وإنما تختلف بالوصف الأخص أو بغيره، على الخلاف في ذلك[2].

وعلى كل تقدير إن الحقيقة الواحدة إذا قامت بمحلين وهي في أحدهما أقوىٰ وأولىٰ فذلك الالتباس إما بـ«الاشتراك» المحض كمذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري ﷺ في الوجود[3]، أو بـ«التشكيك» كمذهب المتأخرين؛ كالنور

---

(١) يقصد بالشاهد الإنسان، وبالغائب ذات الله جل وعلا.

(٢) قال الشيخ عبد الله الشرقاوي ﷺ مُعَرِّفًا العلم: «العلمُ صفةٌ ينكشف بها ما تتعلق به انكشافًا لا يحتمل النقيض بوجه من الوجوه... وهذا التعريف شامل لمطلق العلم الشامل للقديم والحديث». الفوائد الكبرى، ص: ٥١. ووقفت على مثله في صفة الحياة التي عرفها علماء الكلام بأنها صفة تصحح لمن قامت به وصف الإدراك، وهذا يشمل الحادث والقديم. وقالوا: إذا أردنا التفرقة بينهما نضيف وصف «الأزلية» لكلمة «صفة» فيكون هذا تعريفًا بالجنس القريب. ولكن هذا التعريف رسم لأنه لا يستخدم الفصل وهو جزء الماهية المميز لها عن غيرها، ولكننا نعجز عن العلم بذاتية الله تعالى وحقيقته وهو ما يسمى بالماهية، وإن كان العلماء تحرزوا عن استخدام لفظ الماهية عند الحديث عن الله تعالى. لذا نعرف صفة الحياة بالخاصة المميزة لها وهي قولنا: «تصحح لمن قامت به وصف الإدراك»، فتشمل بذلك القديم سبحانه والحادث المخلوق. أما القدرة والإرادة الأزليتان فلم أقف على تعريف لأهل السنة يجمعها مع القدرة والإرادة الحادثتين، وذلك لأن الإرادة والقدرة الإلهيتين الأزليتين صفتا تأثير في الممكن، والحادث لا تأثير له في الممكن.

(٣) المقصود بالاشتراك هنا الاشتراك اللفظي المحض، بحيث إن مسمى الوجود في الحالين مختلف.

بالنسبة إلى السراج و الشمس[1]، أو بـ«التواطؤ»[2] والتباين بالوصف الأخص فيمن قال به[3].

وبالجملة؛ إذا أطلقت صفة بقيد محلها نُظِرَ إلى محلها فهي تختلف باختلافه؛ فتبين لكل محل على ما يليق به، وذلك ظاهر عقلاً وشرعًا لا خفاء فيه، فإذا جاز لنا أن نسأل [المغفرة][4] والتوبة والهداية والعلم والإسلام والصلاح والإيمان وغير ذلك مما سأل مثل جنسه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولم نَستَوِ معهم في مقام من ذلك ولا صفة، كذلك نسأل العصمة على ما يليق بنا ولا يلزم أن نستوي معهم فيها؛ فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام لهم عصمة تخص مقاماتهم وللأولياء عصمة تخصهم، وكذلك الصالحون والمؤمنون كلٌّ على حسب حاله.

والفرق بين عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وعصمة غيرهم - وإن كنَّا لا نستطيع أن نعلم عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالحقيقة؛ ولكن على حسب ما يفهم العبد مما يفهم ويعتقد:

أنَّ عصمتهم من الذنوب كبائرها وصغائرها، قبل النبوة وبعدها على ما هو الحق الصحيح عند المحققين من العلماء، وعند علماء هذه الطائفة: أنهم

---

(١) التشكيك هو الاشتراك بين شيئين أو أكثر في معنى كلي مع تفاوته فيها قوة وضعفاً. فالنور معنى مشترك بين الشمس والسراج، إلا أنه في الشمس أقوى منه في السراج.

(٢) التواطؤ ما استوت أفراده في صدقه عليها، فكلمة إنسان تصدق على جميع الآدميين صدقاً متساوياً.

(٣) والتباين بالوصف الأخص هنا كما أشرنا إليه في الحاشية أعلاه عند تعريف العلم يكون في هذا المقام بإضافة لفظ الأزلي أو لفظ القديم أو لفظ الواجب، مقابل لفظ الحادث.

(٤) في المخطوط: نسأل الشيخ عن الدين. والمثبت من المطبوع.

معصومون من المعاصي الظاهرة والباطنة، البدنية والنفسية والقلبية، وعن الغفلة والنسيان والشغل بغير الله تعالى، وعن أوصاف النفوس الدَّنِيَّةِ كلها، وعن ميل القلوب لشيء من العالم الأدنى، وعن كل نقص في درجة المقامات كلها، وعن الحجب قليلة وكثيرة، وعن كل جهل خفي أو جلي، وعن فكرة في معرفة، وعن كثير من الأوصاف البشرية، بل وما تلبسوا به من أوصاف البشر فليسوا فيها كغيرهم.

وقد قال سيد الأولين والآخرين ﷺ: «إِنِّي لَسْت كَأَحَدِكُمْ، إِنِّي أَبِيْت عِنْد رَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي»[1]. وكما قال سيدي أبو الحسن ﷺ: إن قلتَ: «بشرًا» أقولُ لك: «بشر لا كالبشر، كما أنَّ الياقوت حجر لا كالأحجار»[2].

وبالجملة، ما تعلمه هذه الطائفة من بعض أوصاف النبين والمرسلين عليهم الصلاة والسلام شهودًا وكشفًا من خصائصهم وأوصافهم وعلى مقاماتهم لا تصل إليه العبارات ولا تنالها الإشارات، ولا تسعه العقول ولا تنتهي إليه النقول، هذا ما وصلوا إليه على حسب علمهم، والأمر أعظم من ذلك؛ لأنه لا يعرف المقام إلا من اطلع عليه، ولكن يصل إليه من معرفته على حسب قسمته وطاقته؛

---

(١) متفق عليه من حديث الشيخين: البخاري (٦٨١٤) بلفظ: « إني لست مثلكم..»، «أيكم مثلي..»، ومسلم (١١٠٤)، بلفظ: «إنكم لستم في ذلك مثلي..»، وبلفظه رواه الإمام أحمد (٧٢٢٩) (ط- الرسالة) قال محققه: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

(٢) ومنه ما أخذه الشيخ محمد أبو المواهب الشاذلي منه كما ذكره الإمام الشعراني في الطبقات: «محمد بشر لا كالبشر ولكنه ياقوت بين الحجر». وكنت أحسب أن هذا القول هو لسيدي أبي المواهب حتى وقفت على هذا الموضع فعلمت أنه للإمام الشاذلي في الأصل.

كما قال بعض العارفين: «الأعلىٰ يشرف علىٰ الأدنىٰ ويُحيط به، والأدنىٰ يشرف علىٰ الأعلىٰ ولا يحيط به».

كما أنه لا سبيل إلى أحد من الخلق إلى مقامات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام غيرهم؛ كذلك لا يعرف أوصافهم حق معرفتها من الخلق غيرهم[1]، كما قال أبو يزيد: «ما أخذ الأولياء مما للأنبياء إلا كزق مملوء عسلاً أخذ الأنبياء ما في بطنه والأولياء ما في ظاهره».

وقال سيدي أبو الحسن ﷺ: «لو كُشِفَ عن نور المؤمن العاصي لطبق ما بين السماء والأرض؛ فما ظنك بنور المؤمن المطيع؟!». وكان الشيخ ﷺ يقول بعدُ: «فما ظنك بنور العبد الصالح؟! ثم بنور الشهيد! ثم بنور الولي! ثم بنور الصدِّيق! ثم بنور القطب! ثم بنور النبي! ثم بنور الرسول!!».

وأيضًا[2]: عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واجبة لهم شرعًا.

وقال بعض العلماء: وعقلًا، ومَن دونهم ليس كذلك بل جائزة.

وأيضًا: إن عصمة غيرهم تُسأل لتُنال، وعصمتهم عليهم الصلاة حاصلة من غير سؤال.

---

(١) هذا هو الحق والأدب الواجب مع حضرات الرسل خواص الله في خلقه عليهم صلوات الله وسلامه، وقد ورد عن السلف ﷺ توقفهم في تفسير ما يتعلق بجنابهم الشريف ومنها: أن أحدهم سُئل عن حديث: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ سَبْعِينَ مَرَّةً فِي الْيَوْمِ»، فقال: عمن يُروَى؟ فقال السائل: عن النبي ﷺ؛ فقال: «لو كان على قلبِ غير النبي فسَّرتُ لك، وأمَّا قلبه فلا أدري». اهـ

(٢) أي من الفروق بين عصمة الأنبياء عليه الصلاة والسلام وما جاز أن يُسمَّى عصمة لغيرهم.

[الدَّليلُ على جَوَازِ سؤَالِ الْعِصْمَةِ النِّسبِيَّةِ مُطْلَقًا من الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالنَّظَرِ والْأثَرِ]

والدليلُ على جواز سؤال العصمة مطلقًا بعد عِلْم الفرق بما يستحقه كل سائل - وإن كان لا يتضمنها كلام الشيخ ﷺ - بل إنما نَفْرِضُ مسألة: الكتاب[1]، والسنة، والنظر، والأثر.

أما الكتاب ففيه أدلة كثيرة:

منها: قوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾ (آل عمران: ١٠٣)، ووجه الدليل: أنه سبحانه وتعالى أمرنا أن نعتصم، وهو افتعال من «العصمة»؛ كما إذا قيل: «اكتسب» هو أمر بالكسب، و«حبل الله تعالى»: القرآن والإسلام على الخلاف، وذلك أمر بالعصمة في جميع الأحوال، كأنه قال: «انحازوا إلى نور القرآن عن كل ظلمة أو إلى الإسلام عن كل معصية»، كما نقول: «جاء السيل فاعتصمتُ بالجبل» أي: لم ينلني منه شيء، وما أُمرنا به جائز سؤاله؛ فالعصمة يجوز سؤالها.

ونَظْمُ الدليل هكذا[2]: العصمة مأمور بها، وكل مأمور به يجوز سؤاله؛ فالعصمة يجوز سؤالها.

بيان المقدمة الأولى من القرآن، والثانية: إجماع الأمة على جواز سؤال التوفيق

---

(١) لفظ «الكتاب» خبر للفظ «الدليل»، ونسق الكلام هكذا: الدليل على جواز طلب العصمة الكتاب والسنة والنظر والأثر.

(٢) هذا قياس منطقي من الشكل الأول وهو ما كان الحد الأوسط فيه محمولاً في المقدمة الصغرى موضوعًا في المقدمة الكبرى. والحد الأوسط في هاتين المقدمتين هو «مأمور به/ بها».

لما كُلِّفَ به العبد، وإن اختلفوا في صفة التوفيق.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (آل عمران: ١٠١)، ومادة دليله كالأولى[1]؛ فإذا كان الحق تعالى جعل مَن يتصف بالعصمة مهديًا إلى صراط المستقيم، و«مَن» من ألفاظ العموم فكيف لا يجوز أن يتصف بها مَن أراد به العناية من سائر عباده؟! وهو تعالى لم يخص به أحدًا دون أحد، بل جعل ذلك موردًا عامًا لمن سبقت له السعادة، وكيف لا يجوز سؤالها والأمر كذلك؟ لكن يتصف بها، ونسأل عن الشروط المتقدم بيانها[2].

ومنها: قوله تعالى: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (الحج: ٧٨): وهذه من أنصّ الآيات على جواز سؤال العصمة. فقد قال الواحدي في تفسيره عن ابن عباس ﷺ ترجمان القرآن أنه: قال في هذه الآية: «سلوا الله تعالى العصمة»[3].

ومنها: قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ (هود: ٤٣):

---

(١) أي هو قياس من الشكل الأول كالسابق.

(٢) التي هي أن يكون سؤال العصمة مقيدًا لا مطلقًا، وأن يعلم أنها غير واجبة لغير الأنبياء بينما هي واجبة للأنبياء شرعًا وعقلًا، وأن يعلم أن الأنبياء ينالونها نيلًا أصليًّا بغير سؤال، بينما قد ينالها الأولياء بالسؤال مع كونها مقيدة في حقهم ببعض الأنواع دون البعض، وكون لفظ العصمة إما مشترك لفظي تختلف حقيقته بين الأنبياء والأولياء، وإما محمول تشكيكاً على الفريقين بحيث يكون في الأنبياء أتم وفي الأولياء أقل، وإما محمول بالتواطؤ على الفريقين أي يتساويان فيه ولكن يختلف الأنبياء بوصف عن خاص عن الأولياء فيه، كأن تكون عصمة الأنبياء واجبة وعصمة الأولياء جائزة.

(٣) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣٢/ ٦٦) عند تفسير الآية الكريمة.

وفي هذه الآية دليل ظاهر على جواز الاتصاف بالعصمة لغير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وفي هذه الآية غريب البيان ولطيف الفصاحة أمر عظيم؛ لأن من الناس من قال: «عاصم» بمعنى «معصوم» كـ«دافق» بمعنى «مدفوق» ونحوه؛ حتى يتمشَّى الاستثناء.

والذي يظهر غير ذلك، وهو: أن هذا من غريب الفصاحة والإيجاز؛ لأن نفي العاصم لمقابلة قول مَن أثبت للجبل عاصمًا لقوله: ﴿يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ (هود: ٤٣)؛ فأثبت عاصمًا وهو الجبل، ومعصومًا وهو الآوي له، فقيل في جوابه: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ﴾ (هود: ٤٣) مطلقًا، جبلٌ[١] ولا غيره، ولا معصوم مطلقًا ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ (هود: ٤٣) استثناء من العاصم والمعصوم، المنتفيين باللفظ الصريح؛ أما العاصم فمن المنطوق، وأما المعصوم فمن المفهوم؛ لأن «عاصمًا» فاعل فعل متعدٍ بنفسه فكأنه قيل: «لا عاصم إلا الله ولا معصوم إلا مَن رحمه الله»، كقولك: «لا مقروء اليوم إلا القرآن»، أي: «لا قارئًا يقرأ شيئًا من الكتب إلا القرآن».

وهذا من بديع الإيجاز، هذا إذا كان في ﴿رَّحِمَ﴾ ضمير فاعل يعود إلى الله تعالى، وضمير الموصول مفعول محذوف على القاعدة، فكأنه قيل: «لا عاصم اليوم من أمر الله إلا مَن رحمه الله تعالى»، فإن كان من مدلولها اسم الله تعالى وعائدها ضمير فاعل فيكون الاستثناء على بابه من عاصم، كأنه قيل: «لا عاصم إلا الراحم، وهو الله تعالى»، والمعصوم محذوف.

وعلى كل تقدير فقد أثبت المعصوم؛ ففيه دليل على ثبوت العصمة عمومًا وخصوصًا؛ أما عمومًا: فإن مَن رحم فقد عصم؛ لقوله عز وجل من قائل: ﴿إِلَّا

---

(١) أي لا جبل ولا غيره.

﴿مَن رَّحِمَ﴾ (هود: ٤٣)، وأما خصوصًا: فلأن ذلك كان في أمر أهل السفينة أنهم كانوا في ذلك الوقت هم الناجون المرحومون، وإليهم توجهت الإشارة بقوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾، ولم يكن في السفينة إذ ذاك غير نوح عليه السلام وكان معه فيها - كما قال المفسرون- ثمانون بين رجل وامرأة [وأهله وولده وغيرهم](١)؛ فسُمُّوا كلهم معصومين وهم غير أنبياء؛ بل وكان فيها من الوحش والطير وغيرهما زوجان زوجان كما أخبر الله تعالى، وأطلق لفظ العصمة، وذلك ظاهر لا خفاء فيه.

[الأَدِلَّةُ مِنَ السُّنَّةِ الشَّرِيفَةَ عَلَى جَوَازِ طَلَبِ الْعِصْمَةِ المقيدة]:

وأما السُّنَّة؛ ففي الصحيح عنه ﷺ من الدعاء المأثور: «اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي إِلَيْهَا مَعَادِي، وَاجْعَلْ الحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلْ المَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ»(٢)، وهذا ظاهر في بيان جواز سؤال العصمة.

وبيان ذلك: أن تعلم أولًا أنَّ الدين عبارة عن: «جميع ما يتوجه به العبد إلى الله تعالى من فعل مأمور أو ترك محظور؛ بل ومن المباحات أيضًا، وحاله مع الله تعالى فيها وأدبه، وسائر الأفعال الاختيارية، وكذلك ما يرد عليه من الله تعالى مما لا خيرة له فيه - من رخاء أو بلاء أو غنىً أو فاقة أو مرض أو صحة - وحال قلبه مع الله تعالى في ذلك كله؛ ليقوم بالعبودية لله تعالى في ذلك كله من شكر للنعماء وصبر للبلوىٰ ورضاء بالقدر وتوكل على المولىٰ وغير ذلك».

---

(١) في المخطوط، ليست في المطبوع.

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٨٧، رقم ٢٧٢٠)، والديلمي (١/ ٤٧٤، رقم ١٩٣٤).

فصلاح دينه يثمر له ذلك كله؛ فإذا فعل ذلك وأصلح الله تعالى له دينه فقد عُصِمَ؛ لأن النبي ﷺ وصف الدين الـمُصْلَح بأنه «عصمة الأمر»، فمَن صلُحَ دينُه فقد عُصِم أمره، فالدين الصالح هو الدين المعصوم، ومَن سأل شيئًا موصوفًا فقد سأل تلك الصفة؛ لأن الصفة جزء الموصوف، ومَن سأل كل أمر فقد سأل جزء ذلك الأمر بالضرورة؛ كما تقول: «اللهم ارزقني من المال الذي هو حلال»، فكأنك قلتَ: «اللهم ارزقني الحلال».

وترتيب الدليلِ هكذا- [من الشكل الأول] [1]-: العصمة جزء الدين الصالح، والدين الصالح مسئول، فالعصمة مسئولة [2].

بيان المقدمة الأولى ما تقدم، والثانية من الحديث.

فإن قيل: لعل هذا خاص بالنبي ﷺ.

فاعلم أنَّ هذه مسألة مبسوطة في «علم أصول الفقه» يطول ذكر فروعها هاهنا.

وحاصل ذلك: أن ما كان من فعله ﷺ وكان من جنس القرب في حقنا - لأنه ﷺ أفعاله كلها قرب - لكن ما يتميز بالنسبة إلينا؛ فالعلماء من الشافعية والمالكية وغيرهم على شرع الاقتداء به فيه إلا ما دلَّ الدليل على تخصيصه ﷺ، لكن اختلفوا هل ذلك على جهة الوجوب أو الندب: فعند مالك رحمه الله وغيرهم للوجوب، وعند الشافعي للندب.

---

(١) من المطبوع وليست في المخطوط.

(٢) أي تسأل من الله تعالى.

والمعلوم من الصحابة مبادرتهم إلى الاقتداء به ﷺ في أقواله وأفعاله؛ لاسيما في الدعوات والعبادات المرجو قبولها ببركة الاقتداء به حتى في جنس المباحات - من صفة أكله وشربه ولباسه ﷺ - لأن الله تعالى أظهره رحمة للعالمين ليقتدوا به؛ لأن السعادة في الدار الآخرة تكون بأسباب - مع توفيق الله تعالى وسبق عنايته - منها تَشبُّه هذا العبد بصفات[1] العالم الأعلى، وعمله عملًا يحصل به الفوز هناك، وتلك الصفات لا يطلع عليها عموم الخلق إلا مَن شاء الله تعالى؛ لحجبهم بظلمات عالم الشهادة، فأَطْلَعَ الله تعالى أنبياءه المرسلين عليهم الصلاة والسلام على عوالم الغيب، وأظهرهم بين خلقه معلمين لهم بأقوالهم وأفعالهم؛ ليحصل لمن أطاعهم في أقوالهم واقتدى بهم في أفعالهم السعادة والفوز في الدنيا والآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ (آل عمران: ١٧٩) الآية؛ فالأصل إذًا وجوب الاقتداء به إلا ما دلَّ الدليل، وما زال العلماء الصالحون يدعون بأدعيته هذا الدعاء وغيره من غير تفصيل.

كيف وقد جاء ما هو أنصُّ في الباب وأظهر، وهو:

قوله ﷺ لمن علمه الدعاء: «اللهم إني أسألك من خير ما سألك نبيك محمد ﷺ»[2]؛ فهذا نص على أنَّ ما سأله منه يجوز سؤاله، لكن على الفرق والتفصيل - كما تقدم من حيث - المقام والمنزلة.

---

(١) ب: صفات.

(٢) جزء من حديث صحيح، أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٢٦٤، رقم ٣٨٤٦) قال البوصيري (٤/ ١٤١): «هذا إسناد فيه مقال»، أحمد (٦/ ١٣٣، رقم ٢٥٠٦٣)، وابن حبان (٣/ ١٥٠، رقم ٨٦٩)، ابن أبي شيبة (٦/ ٤٤، رقم ٢٩٣٤٥)، وأبو يعلى (٤٤٧٣).

ومن ذلك أيضًا ما رُوِيَ في الترمذي وغيره: عن ابن عباس أنه ﷺ كان يدعو بعد صلاة الفجر بهذا الدعاء: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ تَهْدِي بِهَا قَلْبِي، وَتَجْمَعُ بِهَا أَمْرِي، وَتَلُمُّ بِهَا شَعْثِي، [وَتُصْلِحُ بِهَا دِينِي، وَتَحْفَظُ بِهَا غَائِبِي](1)، وَتَرْفَعُ بِهَا شَاهِدِي، وَتُزَكِّي بِهَا عَمَلِي، وَتَرُدُّ بِهَا أُلْفَتِي(2)، وَتَعْصِمُنِي بِهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ...»(3) الحديث، وقد نص العلماء - الغزالي(4) ....

---

(١) بالأصل: «وتصلح بها غائبي»، والمثبت من متن الحديث الشريف.

(٢) قال الإمام المناوي في «فيض القدير»: بضم الهمزة وكسرها مصدر بمعنى اسم مفعول أي أليفي أو مألوفي: أي ما كنت آلفه.

(٣) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٨٢، رقم ٣٤١٩)، والطبراني (١٠/ ٢٨٣، رقم ٣٤١٩)، وابن خزيمة (١١١٩)، وابن عساكر (١٧/ ١٥٧)، ولفظه: «عن ابن عباس قال: بعثني العباس إلى رسول الله ﷺ فأتيته ممسيًا، وهو في بيت خالتي ميمونة بنت الحارث فقام رسول الله ﷺ يصلي من الليل فلما صلى ركعتي الفجر قال: اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي...» الحديث. وقد ضعفه بعضهم. وقال العراقي: الحديث بطوله رواه الترمذي وقال: غريب، ولم يذكر في أوله بعث العباس لابنه عبد الله ولا نومه في بيت ميمونة، وهو بهذه الزيادة في الدعاء للطبراني. قال الحافظ الزبيدي: وأورده بطوله صاحب القوت فقال: رواه ابن ليلى عن داود بن علي عن أبيه عن ابن عباس. اهـ. ثم قال الزبيدي: وبسياق المصنف [أي صاحب الإحياء ﷺ] رواه محمد بن نصر في كتاب الصلاة، والبيهقي في كتاب الدعوات، كلهم من طريق داود بن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه عن جده، وداود هذا عم المنصور، ولي المدينة والكوفة للسفاح، حدث عنه الكبار كالثوري والأوزاعي، ووثقه ابن حبان وغيره. وقال ابن معين: أرجو أنه لا يكذب إنما يحدث بحديث واحد. كذا روى عثمان بن سعيد عنه، وأورده ابن عدي في الكامل وساق له بضعة عشر حديثًا. ثم قال: عندي لا بأس برواياته عن أبيه عن جده. واحتج به مسلم وخرج له الأربعة.

(٤) حجة الإسلام الإمام أبي حامد الغزالي. سئل الشيخ إسماعيل الحضرمي عن قراءة كتبه من عدمه فقال: «سبحان الله! محمد بن عبد الله ﷺ سيد الأنبياء، ومحمد بن إدريس سيد الفقهاء، ومحمد الغزالي سيد المصنفين». ألف «إحياء علوم الدين»، و«المستصفى» في أصول الفقه، وله في فقه

والسهروردي[1] وغيرهما - : على استحباب هذا الدعاء لكل أحد، ووجود بركته وحصول نورٌ لمن لازمه، وقد نص فيه على جواز سؤال العصمة، وسبيل الدليل منه وجواز الاقتداء ما تقدم.

ومن ذلك ما ثبت في الصحيح أيضًا من قوله ﷺ: «مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبِيٍّ، وَلاَ اسْتَخْلَفَ مِنْ[2] خَلِيفَةٍ إِلَّا كَانَ لَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بالمعروفِ[3]، وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ، وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَالمَعْصُوم مَنْ عَصَمَ اللهُ»[4] فقد أثبت ﷺ جواز

الشافعية «الوسيط» و«الوجيز»، وله في علم التوحيد «الاقتصاد في الاعتقاد» وغيرها من الكثير النافع، نفعنا الله به ورضي الله. توفي بطوس سنة ٥٠٥، وهو مجدد القرن السادس. بل لو قيل إنه مجدد نصف الألف الثاني ما كان ذلك مبالغة. وكون الألف ونصف الألف لهما اعتبار في الدين مأخوذ من قوله ﷺ فيما أخرجه أبو داود (٤٣٥٢): «عن سعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ قال « إني لأرجو أن لا تعجز أمتي عند ربها أن يؤخرهم نصف يوم ». قيل لسعد: وكم نصف يوم؟ قال: خمسمائة سنة». ومنها قوله ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه الترمذي (٢٥٢٧): «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام؛ نصف يوم».

(١) بضم السين، شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد بن عمويه ابن أخي السيد أبي النجيب عبد القاهر السهروردي ﷺ، وعنه أخذ التصوف. له تآليف حسنة منها «عوارف المعارف» و«كشف الفضائح اليونانية، ورشف النصائح الإيمانية». توفي سنة ٦٣٢ ببغداد، وصلي عليها بجامع القصر وحمل إلى الوردية فدفن بها رضي الله عنه وأرضاه. «طبقات الأولياء» لابن الملقن: ٢٠١-٢٠٣.

(٢) بالأصل: «ما استخلف»، والمثبت من متن الحديث.

(٣) بالأصل: الخير.

(٤) أخرجه البخاري (٦/ ٢٦٣٢، رقم ٦٧٧٣)، والنسائي (٧/ ١٥٨، رقم ٤٢٠٢)، وابن حبان (١٤/ ٧١، رقم ٦١٩٢)، وأحمد (٣/ ٣٩، رقم ١١٣٦٠)، ومن غريب الحديث: «بطانةٌ»: بطانة الرجل: صاحب سرِّه الذي يُشاوره في أحواله، «وبطانة لا تألوه خَبالًا»: لا تُقَصر في إفساد حاله.

صفة العصمة الذي هو آكد من سؤالها؛ لأن السؤال مُعرَّض للقبول وعدمه بخلاف الاتصاف بذلك.

وفي هذا الحديث دليل على جواز حصول العصمة الجائزة لغير الأنبياء والمرسلين على ما يليق بهم من الأمور المكلفين هم بتركها، والحديث أيضًا يدل على ذلك في أمر صهيب ﷺ: «لو لم يخف الله لم يعصه»[1]، وهذا دليل على سلامة صهيب ﷺ من المعصية.

وقد نُقِلَ عن الإمام فخر الدين أنه قال: لا أقول بأن أبا بكر لم يكن معصومًا، وليس في العقل ما يدل على منع ذلك، وقد ثبت في الشرع جواز الوقوع، والتعلل بالمنع لمساواة الأنبياء عليهم السلام؛ فقد تقدم جوابه.

وقوله ﷺ: « مَا اسْتَخْلَفَ اللهُ خَلِيفَةً» له مفهومان: منها أن يكون الخليفة الذي هو الإمام العام، وهو ما يظهر بادي الرأي، والدليل يحصل بذلك.

ويُفهَم منه أيضًا: أنه كل خليفة؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ

---

(١) قال الشوكاني في «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» (١٦٥): «قال السيوطي: لم نظفر به في شيء من كتب الحديث. قلت: بل لفظ السيوطي في «الدرر المنتثرة»: لا أصل له، لكن في الحلية من حديث ابن عمر مرفوعًا: «إنَّ سالمًا شديد الحب لله لو لم يخف الله ما عصاه». ثم قال الشوكاني: قال ابن حجر: إنه ظفر به لابن قتيبة، لكن بغير سند». اهـ. وقال السخاوي في «المقاصد» (١٢٥٩): «اشتهر في كلام الأصوليين وأصحاب المعاني وأهل العربية من حديث عمر، وذكر البهاء السبكي أنه لم يظفر به في شيء من الكتب»، ونسبه ابن مالك صاحب الألفية وغيرُه من النُّحاة إلى عُمَرَ ﷺ، وذكر السيوطي في «تدريب الراوي» (٢/ ١٧٥): أنه من كلام النحاة ولا أصل له في الحديث النبوي، وأشهر النحاة المتأخِّرين الذين استدلوا به بعد ابنِ مالكٍ هو ابنُ هشامٍ الأنصاريّ في كتابه «مغني اللّبيب عن كتُب الأعاريب» في حديثه عن «لو» ونَسَبَه إلى عُمَرَ ﷺ.

﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ (الأنعام: ١٦٥)، و«خلائف» جمع: «خليفة»، و﴿جَعَلَكُمۡ﴾ لجميع بني آدم. والقواعد الحقيقة تدل أيضًا على أن: كل عبد خليفة؛ لتقلده الأمانة، وثبوت اختياره وعمله وجزائه، ونسبة الأشياء إليه، وتحكيمه في المخلوقات، وكذلك علم الكشف بمقتضى ذلك، وقد قال ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[1]، وكذلك هو مستخلف على عوالم وجوده - من سمع وبصر ويد وغير ذلك - ولهذا يسأله [سبحانه][2] عنها، وتنطق شاهده عليه يوم القيامة.

فإن قيل: فما بطانتنا غير الخليفة العام؟

فيقال: كل سبب جر إلى طاعة مولاه فهو بطانة خير، وكل سبب جر إلى طاعة نفسه وشيطانه وهواه فهو بطانة سوء.

[فَهْمُ الطَّائِفَةِ لِلْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ لَيسَ خُرُوجًا بالنَّصِّ عَنْ ظَاهِرِهِ]

ويُفهم منه أيضًا: أن الخليفة هو القلب.

فإن قيل: هذا يُخرج الحديث عن ظاهره؟!

قيل: ليس كذلك؛ فإن فَهْم الطائفة للقرآن والسنة إذا لم تنطبق عليه ظاهر الألفاظ اللغوية والمعاني العادية لا يريدون بذلك حمل القرآن والأحاديث على ذلك؛ بل هي فهوم يجدونها في قلوبهم عند سماع ذلك؛ مع أنها لا تخرج عن الظواهر مطلقًا؛ بل تُنسب إليها بمعنىً ما.

ومَن قال لهم إن كل كتاب الله تعالى لا مفهوم له إلا ما وصل إلى عقول

(١) متفق عليه: البخاري (٢/ ٨٤٨، رقم ٢٢٧٨)، ومسلم (٣/ ١٤٥٩، رقم ١٨٢٩).

(٢) ليست بالمخطوط.

العموم، والله تعالى يقول: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ (الكهف: ١٠٩) وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (آل عمران: ٧)؟!

فالظواهر تُقَرُّ على ظواهرها؛ وفُهوم العلماء والحكماء والأولياء تقع[1] كلٌّ على حسب نوره وقسمته؛ مع أنَّ ما يرد من الفهوم ليس مخالفًا لقواعد الإيمان ولا مصادمًا لصرائح العقائد، وإنما هو[مدد][2] من جنس أصول القرآن والسنة ومزيدٌ من بحر نوره؛ كمن يأخذ من بحر واسع لا آخر له قطرةً، وآخر يأخذ ملء إناء، وآخر نهرًا، وآخر يستنبط منه بحرًا؛ فهو جنس واحد ولكن ثَمَّ مُقل ومكثر، وواصل ومقصِّر.

أفترى فَهْم أبي بكر ﷺ كفَهْم غيره من الصحابة، ولا فهم الصحابة كغيرهم؛ كل على حسب مقامه.

وكيف وعلي ﷺ يقول: «لو شئتُ لأوقرتُ من تفسير «سورة الفاتحة» حمل كذا كذا بعير»[3].

[الْقَوْلُ بِتَحْجِيرِ الْفَهْمِ الموافِقِ لأُصُولِ الإيمانِ وَالْعَقَائِدِ إِلْغاءٌ لبلاغَةِ النَّصِّ الشَّرْعِيِّ وَفَصَاحَتِهِ]

وقال الشيخ ﷺ: «كلام المحيط لا يُحاط به»؛ فإن كان لا معنى للقرآن كله

---

(١) أ: تسع، ب: تتبع. وما أثبتناه فاجتهادًا.

(٢) سقط من ب.

(٣) لم أقف عليه.

إلا ما تدل عليه الألفاظ اللغوية المعهودة فتلك مشتركٌ معرفتها بين الفصحاء فمن أين وقع هذا التفاوت العظيم في الفهوم إلا بما يعطي الله تعالى القلوب من أنواره ومعرفة خفايا أسراره؟ ولهذا قال تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ (العنكبوت: ٤٩)؛ فَأَعْلَمَكَ أن سرَّه وحقيقته كائنةٌ في الصدور، كلٌّ على حسب وسع صدره ووسع نوره.

ولنقبِض العنان عن[1] بسط هذا الشأن؛ فإنه بحر من العلم عظيم، وسرٌّ عند أهله مصون كريم.

وكذلك قوله ﷺ: «أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَاخْتُصِرَ لِي الْكَلَامُ اخْتِصَارًا»[2] لابد من خصوصية له ﷺ ترتقي على كلام الفصحاء، ويزيد على بلاغة البلغاء ويُحشَى قليل الكلام بها حشوًا، وتُطوى في ظواهر الألفاظ حتى تصل إلى أهليها طيًّا، وقد نص ﷺ على ذلك بقوله: «رُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»[3]، و«رُبَّ حَامِلِ

---

(١) ب: على.

(٢) أخرجه العقيلي (٢/ ٢١، رقم ٤٣٧)، والضياء (١/ ٢١٥، رقم ١١٥). قال الهيثمي (١/ ١٨٢): «رواه أبو يعلى وفيه عبد الرحمن بن إسحاق الواسطي ضعفه أحمد وجماعة»، وقال السخاوي في «المقاصد الحسنة» (٢٦٦): «رواه العسكري في الأمثال، من طريق سليمان بن عبد الله النوفلي، عن جعفر بن محمد عن أبيه، أن النبي ﷺ قال: وذكره، وهو مرسل في سنده من لم أعرفه، وللديلمي بلا سند عن ابن عباس مرفوعًا مثله، بلفظ: «أعطيت»، و«الحديث» بدل «الكلم»، وعند البيهقي في الشعب من طريق عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن أبي قلابة، أن عمر مرَّ برجل يقرأ كتابًا من التوراة، فذكر الحديث». اهـ. ورواه الشيخان – البخاري (٦٨٤٥)، ومسلم (٥٢٣) – لكن بلفظ: «بعثتُ بجوامع الكلم»، ومن غير جملة: «واختصر لي اختصارًا».

(٣) أخرجه الإمام البخاري (٥٢٣٠)، والنسائي (٤٠٩٣)، وابن حبان (١/ ٢٧١، رقم ٦٨) وغيرهم.

فِقْهٍ، إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ»[1].

إذا علمت ذلك فاعلم أن قوله: (خَلِيفَة) لفظ يصلح لكل محل حصل فيه معنى من الخلافة عملًا بأصل الاشتقاق، ومن لاحظ أسرار لسان العرب وجد فيه من غريب الاشتقاق الكثير[2] ما يُقضيْ منه العجب؛ من ملاحظة قلب الألفاظ وإبدالها بحسب مراعاة المعاني وتغييرها.

والقلب له معنى من الخلافة بل أصل الخلافة له؛ لأنه مدبر الهيكل الظاهر والحاكم عليه بتدبير الله تعالى، والهيكل حاكم على ظواهر العالم، فهو[3] حاكم على الحاكم فهو أولى باسم الخلافة.

وقد قال ﷺ: «أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ»[4].

ويفهم أيضًا من البطانتين: دائرة يمينه، ودائرة شماله: داعي الشيطان والنفس والهوى، والقلبُ بينهما؛ هذه تشير إليه وهذه تشير إليه، وهو بأصل طبعه قابل لإلقائهما[5] حتى يحكمَ اللهُ تعالىٰ له أو عليه، فيميل إلى إحدى الدائرتين، إما إلى دائرة اليمين بتوفيقه وفضله، وإما إلى دائرة الشمال بخذلانه وعدله.

---

(١) جزء من حديث صحيح، أخرجه أبو داود (٣/ ٣٢٢، رقم ٣٦٦٠)، وابن ماجه (١/ ٨٤، رقم ٢٣٠)، والطبراني (٥/ ١٥٤، رقم ٤٩٢٥)، وأحمد (٤/ ٨٠، رقم ١٦٧٨٤)، والدارمي (١/ ٨٦، رقم ٢٢٨)، وغيرهم.

(٢) بالأصول: الكبير، وما أثبتناه أنسب للسياق.

(٣) الضمير يعود على القلب.

(٤) أخرجه الشيخان: البخاري (١/ ٢٨، رقم ٥٢)، ومسلم (٣/ ١٢١٩، رقم ١٥٩٩).

(٥) بالمخطوط: لالتقائهما.

فافهم هنا قوله ﷺ: «وَالْمَعْصُوم مَنْ عَصَمَ اللهُ»، أي: لا حيلة للعبد بينهما؛ لأنه لا يعلم أيهما يقبل منه، حتى يعصمه الله تعالى بفضله فيمده ببيان الشرع ومدد النور الباطن حتى تقبل من دائرة يمينه ويُعرض عن دائرة شماله. ثَبَّتَ الله قلوبنا بتوفيقه وتسديده، وأمدنا من لطفه وتأييده. وقد ثبت بهذا الحديث جواز اتصاف العبد بالعصمة؛ فلا جرم جاز له سؤالها من باب أولى.

ومنها: قوله ﷺ: «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يُشَارَ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ فِي دِينِهِ أَوْ دُنْيَاهُ، إِلا مَنْ عَصَمَ اللهُ» رواه الترمذي[1]، وسبيله في الدليل والبيان سبيل ما تقدم، وهذا أنص وأعم بظاهره.

وأدلة الكتاب والسنة في ذاك كثيرة، وفي هذا مقنع.

ولقد ذكَّرني بعض الطلبة من أهل المغرب: أن بعض علماء المغرب استنبط من الكتاب والسنة نيفًا وعشرين[2] موضعًا فيه دلالة على جواز سؤال العصمة.

وأما ما يدل من جهة النظر: فاعلم أن الله تعالى كلَّف الخلق أجمعين بطاعته ونهاهم عن كل معصية، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ (آل عمران: ١٠٢) جاء في التفسير مرفوعًا: «[أن يُطاع] فلا يعصى وأن يُذكر فلا

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث سيدنا أنس ﷺ (٢٤٥٣)، بلفظ «في دين أو دنيا»، ورواه من طريقه أيضًا البيهقي في شعب الإيمان (٦٩٧٧)، ومن حديث سيدنا أبي هريرة ﷺ رواه الطبراني في «الأوسط» (٦٨٩٠) قال الهيثمي (١٠/ ٢٩٦): «فيه عبد العزيز بن حصين، وهو ضعيف»، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٩٧٨) وإسحاق بن راهويه (٣٧٨)، ومن حديث الحسن مرسلاً ذكره الحكيم (١/ ٣٩٩)، وأخرجه ابن المبارك في الزهد (٤٥).

(٢) في المخطوط: (نيف عشر) ولا يقال نيف إلا بعد عقد، فقد يكون المراد مما في المخطوط: (عشرة ونيف) وهذا يصح، أما المثبت فهو من المطبوع.

يُنسىٰ، وأن يُشكر فلا يُكفر»[1]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ (آل عمران: ٣٠) الآية، وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ (الأنبياء: ٤٧)، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ (الزلزلة: ٧، ٨).

وفي ذلك أعظم دليل أن الله تعالى كلَّفنا أن نخرج عن كل ذنب نهىٰ عنه وأن نفعل كل طاعة أمرنا بها، والكتاب والسنة مشحونان بذلك وذلك معنىٰ العصمة وهو أن الله تعالى أمرنا بالعصمة عن ترك أوامره، وبالعصمة من فعل نواهيه، وذلك ظاهر لا خفاء فيه.

وإذا كان كلَّفنا بذلك فكيف لا يجوز أن نسأله التوفيق لما به أمرنا، والعصمة عمَّا نهانا عنه؟! وهل[2] يفعل ذلك أو يقدر عليه سواه؟! وهل يسأل العبد غير مولاه؟! أفترىٰ إذا لم يعطه مولاه الإعانة على ذلك مَن يعطيه، وإذا حرمه ذلك مَن يوفقه له ويكفيه؟! مَن ذا الذي يمنع العبد أن يسأل سيده أن يوفِّقه لما يكلِّفه وينصره ويعضده وهو تعالى يقول: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ (النساء: ٣٢) والنبي ﷺ يقول: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ باللهِ»؟![3].

---

(١) انظر ما ورد في تفسير الآية الكريمة في تفسير القرطبي، وتفسير الثعالبي، وصفوة التفاسير للصابوني، وغيرهم.

(٢) بالمخطوط: هو.

(٣) صحيح، أخرجه الترمذي (٤/ ٦٦٧، رقم ٢٥١٦) وقال: «حسن صحيح»، وأحمد (١/ ٢٩٣،

كما قيل:

وَمَا لِي لَا أَدْعُو وَأَسْأَلُ ضَارِعًا   إِلَهِي تَوفِيقًا وَفَضْلاً وَنَائِلا
وَمَنْ ذَا الَّذِي يَقْضِي وَيَفْعَلُ غَيْرُهُ   وَيُعْطِي جَزِيلَ الْفَضْلِ مَنْ جَاءَ سَائِلا

ولا مسئول إلا هو، ولا مطلوب إلا منه.

ونظم الدليل هكذا: العصمة مكلَّف بها، وكل مكلَّف به يجوز سؤاله؛ فالعصمة يجوز سؤالها.

[الآثار الواردة عن السلف في سؤال العصمة]

وأما الآثار:

فقد جاء عن جماعة من السلف من الصحابة والتابعين والأئمة والعلماء والصالحين سؤال ذلك، ومن جاء عنهم الصحابي الجليل أبو عبد الرحمن عبد الله ابن عمر بن الخطاب ﷺ، وعن عثمان ﷺ، وعن الإمام الولي عمر بن عبد العزيز ﷺ، وعن التابعي الجليل مطرف بن عبد الله[1] ﷺ، وعن التابعي الجليل ابن المنكدر ﷺ، وعن الإمام الجليل القدوة أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي

رقم ٢٦٦٩)، والحاكم (٣/ ٦٢٣ رقم ٦٣٠٢) وقال: «عال من حديث عبد الملك بن عمير عن ابن عباس»، والضياء (١٠/ ٢٥، رقم ١٥)، وأبو يعلى (٤/ ٤٣٠، رقم ٢٥٥٦).

(١) سيدنا أبو عبد الله مطرف بن عبد الله بن الشخير، كان فقيهًا، وكان لوالده عبد الله صحبة، وكان مطرف من أعبد الناس وأنسكهم، فذكروا أنه وقع بينه وبين رجل منازعة، فرفع يديه، وكان ذلك في مسجد البصرة، وقال: اللهم إني أسألك ألا يقوم من مجلسه حتى تكفيني إياه، فلم يفرغ مطرف من كلامه حتى صرع الرجل فمات، وأُخذ سيدنا مطرف وقدموه إلى القاضي، فقال القاضي: لم يقتله، وإنما دعا عليه فأجاب الله دعوته، فكان بعد ذلك تُتقَى دعوته، مات في سنة سبع وثمانين للهجرة. «فوات الوفيات»: ٥/ ٢١١.

رضي الله عنه(١)، وعن السيد الجليل إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه، وعن السيد الجليل سهل بن عبد الله التستري رضي الله عنه(٢)، وعن الإمام سيف المناظرين القاضي أبو بكر بن الطيب رضي الله عنه(٣)، وعن الإمام الجليل أبي حامد الغزالي رضي الله عنه، وعن القاضي الجليل أبي الفضل عياض(٤) رضي الله عنه، وعن الفقيه الجليل أبي محمد بن عطية(٥) رضي الله عنه، وعن الإمام الكبير

---

(١) إمام المذهب وناصر السنة رضي الله عنه، ولد سنة ١٥٠ وتوفي سنة ٢٠٤.

(٢) سيدي أبو محمد سهل بن عبد الله التستري الصوفي الكبير رضي الله عنه ونفعنا به. توفي سنة ٢٨٣.

(٣) القاضي أبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر أبو بكر البصري ثم البغدادي الملقب بشيخ السنة ولسان الأمة. تتلمذ على يديه القاضي عبد الوهاب البغدادي وغيره وله تآليف جليلة منها «التقريب» و«الإرشاد» في أصول الفقه و«أمالي إجماع أهل المدينة» وكتاب «التمهيد» وكتاب «إعجاز القرآن» و«الإنصاف»، وغير ذلك. قال القاضي عياض: كان حصنًا من حصون المسلمين وما سر أهل البدعة بشيء مثل سرورهم بموته. وله التصانيف الكثيرة المنتشرة في الرد على المخالفين من الرافضة والمعتزلة والجهمية والخوارج وغيرهم. توفي سنة ٤٠٣. «جمهرة تراجم فقهاء المالكية: ٣/ ١٠٩٧».

(٤) أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي. أخذ بقرطبة عن أبي عبد الله محمد بن علي بن حمدين وأبي الحسين بن سراج وغيرهما. وأخذ بالمشرق عن القاضي أبي علي الصدفي وغيره. وعني بلقاء الشيوخ والأخذ عنهم، وأخذ عن أبي عبد الله المازري. وأجاز له الشيخ أبو بكر الطرطوشي. وله التصانيف المفيدة البديعة منها: «إكمال المعلم في شرح صحيح مسلم» و«الشفا بتعريف حقوق المصطفى» صلى الله عليه وسلم، أبدع فيه كل الإبداع ولم ينازعه أحد في الانفراد به ولا أنكروا مزية السبق إليه، وطارت نسخه شرقًا وغربًا، وكتاب «مشارق الأنوار في تفسير غريب حديث الموطأ والبخاري ومسلم»، و«الإعلام بحدود قواعد الإسلام»، و«الإلماع في ضبط الرواية وتقييد السماع»، وغير ذلك. كان مولده بسبتة في شعبان ٤٩٦ وتوفي بمراكش سنة ٥٤٤. وقيل إنه مات مسمومًا؛ سمه يهودي. ودفن بباب إيلان داخل المدينة. انتهى بتصرف واختصار من «الديباج المذهب» لابن فرحون.

(٥) أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن ابن تمام بن عطية المحاربي، عالم مجاهد وفقيه جليل، عارف بالحديث والتفسير والأحكام. لغوي وأديب. ولد بغرناطة بالأندلس مع بداية عهد دولة

أبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي[1]، وعن الأستاذ أبي القاسم القشيري[2] ﷺ، وعن الشيخ شهاب الدين السهروردي ﷺ، وعن الإمام محمد مكي[3]..

المرابطين. هاجرت أسرته من المشرق، وتهيأت له أسباب طلب العلم، فتتلمذ على كبار علماء الأندلس. وجمع بين العلم والعمل إذ كان كثير الخروج للجهاد، وتولى القضاء في أواخر حكم المرابطين. ترك ابن عطية كتابين فقط، أحدهما فهرست في ترجمة شيوخه، وقد ترجم فيه لنفسه. وكتاب المحرر الوجيز في التفسير. توفي ابن عطية في لورقة من بلاد الأندلس. توفي سنة ٥٤٦.

(١) حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب، الإمام أبو سليمان الخطابي البستي. ويقال: إنه من سلالة زيد بن الخطاب أخي سيدنا عمر ﷺ، ولم يثبت. كان إمامًا في الفقه والحديث واللغة. أخذ الفقه عن أبي بكر القفال الشاشي وأبي علي بن أبي هريرة. وسمع الحديث من أبي سعيد بن الأعرابي بمكة وإسماعيل الصفار ببغداد وأبي العباس الأصم بنيسابور وطبقتهم. روى عنه أبو حامد الإسفرايني والحاكم وعبد الغافر بن محمد الفارسي وغيرهم.

وذكره ابن السمعاني في كتاب «القواطع» في أصول الفقه عند الكلام على العلة والسبب والشرط وقال: «قد كان من العلم بمكان عظيم وهو إمام من أئمة السنة صالح للاقتداء به والإصدار عنه». انتهى، ومن تصانيفه «معالم السنن» وهو شرح سنن أبي داود، وله «غريب الحديث» و«شرح الأسماء الحسنى» و«كتاب العزلة» و«كتاب الغنية عن الكلام وأهله» وغير ذلك. توفي ببست سنة ٣٨٨. بتصرف من «طبقات الشافعية» للسبكي: ٢/ ٢٨٢.

(٢) الإمام العارف بالله عبد الكريم بن هوازن القشيري، أخذ التصوف عن أبي علي الدقاق. وألف الرسالة المشهورة الموسومة بالقشيرية، وله غيرها تفسيره الموسوم «لطائف الإشارات» و«نحو القلوب الكبير» و«نحو القلوب الصغير» وغير ذلك. توفي سنة ٤٦٥. «طبقات الأولياء» لابن الملقن: ١٩٨-٢٠١.

(٣) مكي بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار الأندلسي القيسي، أبو محمد: مقرئ، عالم بالتفسير والعربية. من أهل القيروان. ولد فيها، وطاف في بعض بلاد المشرق، وعاد إلى بلده، وأقرأ بها. ثم سكن قرطبة سنة ٣٩٣ وخطب وأقرأ بجامعها وتوفي فيها. له كتب كثيرة، منها «مشكل إعراب القرآن» و«الكشف عن وجوه القراءات وعللها» وهو شرح «التبصرة»، و«الهداية إلى بلوغ النهاية»

وعـن الإمام أبي بكر الطرطوشي[1] ﷺ، وعن ابـن نباتـة الخطيـب[2] ﷺ، وعـن الفقيه الإمام ناصر الدين بن المنير[3] ﷺ.

فانظر هؤلاء السادة رحمك الله مَن سلف وخلف واتفاقهم على ذلك.

في معاني القرآن وتفسيره، و«التبصرة في القراءات السبع» و«المتقى» في الأخبار، أربعة أجزاء. ولـه غير ذلك. «الأعلام» بتصرف: ٧/ ٢٨٦.

(١) أبو بكر محمد بن الوليد القرشي الفهري المعروف بابن رَنْدَقة الطرطوشي الإسكندري، إمام فقيه حافظ عالم. صحب أبا الوليد الباجي ورحل إلى المشرق ودخل بغداد وسمع من أبي بكر الشاشي وغيره. وعنه أخذ محمد بن مسلم المازري والقاضي عياض بالإجازة. له تآليف منها: «سراج الملوك» وهو أشهرها، ومختصر تفسير الثعالبي وكتاب كبير في مسائل الخلاف ورسالة في تحريم جبن الروم وكتاب في البدع وشرح على رسالة ابن أبي زيد وغير ذلك. توفي سنة ٥٢٠ بالإسكندرية. قال ابن مخلوف: وقبره بها معروف متبرك مستجاب الدعاء عنده. بتصرف من «شجرة النور الزكية»: ١/ ١٨٣-٤، ترجمة رقم ٣٩٧.

(٢) عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل ابن نباتة الفارقي، أبو يحيى: صاحب الخطب المنبرية. كان مقدما في علوم الأدب، وأجمعوا على أن خطبه لم يعمل مثلها في موضوعها. ولد في ميافارقين (بديار بكر) ونسبته إليها، وسكن حلب فكان خطيبها. واجتمع بالمتنبي في خدمة سيف الدولة الحمداني. وكان سيف الدولة كثير الغزوات، فأكثر ابن نباتة من خطب الجهاد والحث عليه. وكان تقيًّا صالحًا. توفي بحلب سنة ٣٧٤ هجرية. والشاعر جمال الدين بن نباتة من ذريته. انظر الأعلام: ٣/٣٤٧.

(٣) قاضي القضاة ناصر الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن منصور بن أبي القاسم الجذامي السكندري الأبياري المعروف بابن المنير، الفقيه المحدث المفسر الخطيب المتبحر في الكثير من العلوم. من مؤلفاته: «البحر الكبير في نخب التفسير» و«الانتصاف من الكشاف» و«المقتفى في آيات الأسرى»، وغير ذلك. كان العز بن عبد السلام يقول: «مصر تفتخر برجلين في طرفيها: ابن المنير بالإسكندرية وابن دقيق العيد بقوص». ولد سنة ٦٢٠ هجرية وتوفي في سنة ٥٨٣. «شجرة النور الزكية: ١/ ٢٩٦)، ترجمة رقم:٦٥٩، بتصرف.

أما صنيع ألفاظهم في ذلك، ومَحالُّ النقل عنهم:

فقد ذُكِرَ عن عبد الله بن عمر ﵄ أنه كان يدعو على الصفا يقول: «**اللهم اعصمنا بدينك وطواعيتك وطواعية رسولك ﷺ**»(١).

وعن عثمان ﵁ أنه قال - حين بلغه عن الزبير ما بلغه حين كان محصورًا -: «**الحمد لله الذي عصم أخي**»(٢).

وعن عمر بن عبد العزيز أنه قال - حيث عاتبه مَسلمة في ولده -: «**إني لم أمنعهم شيئًا هو لهم، وما كنتُ بالذي أُفْقِرُ نفسي عند الله لغناهم؛ إن يكونوا أتقياء فسيجعل الله لهم مخرجًا، وإن يكونوا منكبين على الدنيا والمعاصي فما كنت بالذي أقويهم على ذلك**»، ثم نظر إليهم وهم بضعة عشر ذكرًا، فقال: «**بنفسي الفتية الذين تركتُهم عالة، أي بَنِيَّ إني مثَّلتُ نفسي بين أن تستغنوا ويدخل أبوكم النار، أو تفتقروا ويدخل أبوكم الجنة، فكان أن تفتقروا أحب إليَّ من أن تستغنوا ويدخل النار، قوموا عصمكم الله**»(٣).

وعن التابعي الجليل مطرف بن عبد الله(٤) أنه قال: «نظرتُ في هذا الأمر(٥) من أين هو؟ فإذا هو من عند الله سبحانه، ثم نظرتُ ما مِلاكُه؟ فإذا هو الدعاء، ثم

---

(١) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (٩١٢٩).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «فضائل الصحابة» (٨٣٦)، وابنه عبد الله في «فضائل عثمان بن عفان» (١٢٨).

(٣) ذكره الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» (٩/ ٢٣٥) مختصرًا، لكنه يحوي محل الشاهد. وفي مختصر تاريخ دمشق (٦/ ٨٥).

(٤) تقدمت ترجمته.

(٥) أي: الصلاح والولاية.

نظرتُ في ابن آدم فإذا هو ملْقَىٌ بين ربه وبين الشيطان؛ فإذا أراد به خيرًا جذبه[1] إليه بعصمته، وإلا خُلِّيَ بينه وبين الشيطان».

وذكر الأستاذ أبو القاسم القشيري ﷺ في «شرح الأسماء الحسنىٰ» له عن التابعي الجليل ابن المنكدر ﷺ قال: «قلتُ في الطواف: «اللهم اعصمني» وأقسمت علىٰ الله طويلًا؛ فرأيتُ في المنام كأن قائلًا [يقول لي][2]: أنتَ الذي قلتَ: «اللهم اعصمني»؟، قلتُ: نعم. فقال: إنه لا يقبل. فقلتُ: لمَ؟ قال: يريد أن يُعصىٰ حتى يَغفر».

وقد جاء عن الإمام الجليل أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي ﷺ في «رسالته» أنه سأل الله العصمة والتوفيق، وناهيك بهذا الإمام الجامع بين النظر والأثر قدوةً، وقد نَصَّ على ذلك في دعائه، ولو لم يكن إلا هذا لكان فيه كفاية ومقنع.

وكذلك جاء عن الإمام الجليل إبراهيم بن أدهم الكبير المقدار، صاحب المقامات والأنوار، أنه قال: «طفتُ ذات ليلة بالبيت الحرام وكانت ليلة ممطرة شديدة الظلمة، وقد خلا الطواف، وطابت نفسي، فوقفتُ عند الملتزم وقلت: «اللهم اعصمني حتى لا أعصيَك»؛ فهتف بي هاتف وقال: «يا إبراهيم، أنتَ تسألني أعصمك، وكلُّ عبادي يسألني العصمة؛ فإذا عصمتهم فعلى مَن أتفضل، ولمن أغفر»[3].

---

(١) بالمخطوط: جبذه، وهو تصحيف.

(٢) ليست بالمخطوط.

(٣) انظر: «قوت القلوب في معاملة المحبوب» دار الكتب العلمية ط٢ (٢ - ١٠٢)، «مفتاح دار

وذكر أبو طالب المكي في «كتاب القوت» له عن الإمام الرباني سهل بن عبد الله التستري ﷺ أنه كان يقول: «العبد لابد له من مولاه على كل حال، وأحسن أحواله أن يرجع إليه في كل شيء؛ إذا عصى يقول: يا رب استر عليَّ، فإذا فرغ من المعصية قال: يا رب تب عليَّ، فإذا تاب يقول: يا رب ارزقني العصمة، فإذا عمل قال: يا رب تقبل مني»[1].

وقال الإمام الجليل سيف المناظرين القاضي أبو بكر بن الطيب[2] ﷺ في «الرد على الباطنية» له: «نسأل الله العصمة مما ابتلاهم».

وقال الإمام الجليل أبو حامد الغزالي ﷺ في «منهاج العابدين» له: «عصمك الله وإيانا بالحذر من هذه النفس الأمارة بالسوء».

وقال القاضي الجليل أبو الفضل عياض ﷺ، وقال الفقيه الجليل أبو محمد ابن عطية ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٢): «وهذه الآية تعطي أنَّ الله تعالى أغنى الناس بنعمه هذه عن كل مخلوق؛ فمَن أحوج نفسه إلى بشر مثله بسبب الحرص والأمل والرغبة في زخرف الدنيا فقد أخذ بطرق من جعل لله ندًّا؛ عصمنا الله تعالى بفضله، وقصر بآمالنا عليه آمين».

وقال الإمام الكبير أبو سليمان الخطابي ﷺ (في باب الرؤية من «شرح

السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة» لمحمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية (١/ ٢٨٧).

(١) «إحياء علوم الدين»: ٤/ ١٥٢.

(٢) تقدمت ترجمته.

السنن») له: «وأسأل الله العصمة من الضلال، والقول بما لا يجوز من الفساد والمحال».

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري ﷺ في «رسالته»: «أستعين بالله سبحانه فيما أذكره، وأستكفيه وأستعصمه من الخطأ فيه».

وقال الشيخ العارف شهاب الدين السهروردي ﷺ في «عوارف المعارف» له، في الباب التاسع والأربعين في استقبال النهار والأدب فيه والعمل: «نسألك تمام النعمة بتمام التوبة، ودوام العافية بدوام العصمة، وأداء الشكر بحسن العبادة».

وقال في موضع آخر: «اللهم صل على محمد، وارزقنا[1] العون على الطاعة والعصمة [من المعصية][2]، وإفراغ الصبر في الخدمة، وإيزاع الشكر على النعمة».

وقال الإمام العالم أبو محمد مكي ﷺ في كتاب «التبصرة في القراءات» له: «وأنا أسأل الله تعالى العصمة».

وقال الفقيه الإمام أبو بكر الطرطوشي ﷺ في كتاب «الأدعية» له: «وقال لي رجل من أهل العلم: رأيتُ في المنام رجلًا ممن كان يخدم أمور المكس[3]، وإذا رجل موكَّل به يدقه في مهراس - أو قال في هاون - دقًّا عظيمًا؛ حتى اختلط لحمه وعظمه وجلده؛ حتى صار كأنه كبيبة صغيرة مثل الزبد أو الملح...»، ثم قال الإمام بعد ذكر هذه الحكاية: «نسأل الله تعالى العصمة والكفاية».

---

(١) بالمخطوط: وارزقه، وهو تصحيف.

(٢) ليس بالأصل مثبت من «قوت القلوب».

(٣) المكس: الضريبة يأخذها المكاس ممن يدخل البلد من التجار. (المعجم الوسيط/ باب الميم).

وقال ابن نُباتة في خُطبةٍ يذكر فيها الجهاد: «عصمنا الله وإياكم بتقواه، ووفقنا وإياكم لما يحبه ويرضاه، وجمع الكلمة على اتباع هداه، وأصلح منا ومنكم ما لا يقدر على إصلاحه أحد سواه».

وقال الشيخ محيي الدين النَووي ﷺ في كتاب «الأربعين» له: «وعلى الله اعتمادي، وإليه تفويضي واستنادي؛ فله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة».

وقال الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد القشيري ﷺ في آخر عقيدته: «ومن الله التوفيق والعصمة لا رب سواه»

وقال الفقيه الإمام ناصر الدين بن المنير ﷺ في «تحرير التنزيه» له: «والأصل أن نسأل الله تعالى العصمة من الفتنة، والسلامة من المحنة، والفوز بالنعمة والمنة».

فهذه -رحمك الله- أدلة من الكتاب والسنة، والنظر، وأقوال الصحابة والتابعين، والعلماء الصالحين، في بيان جواز سؤال العصمة - إذ فرض جواز سؤالها - مع ما تقدم من أن كلام الشيخ ﷺ لا يتضمنها؛ ففي هذا البيان كفاية لمن أراد الله تعالى به التوفيق والهداية.

وإياك بعد ذلك أن تعرِّج عن ذلك إلى قول أحد من الناس، فلا بيان بعد كتاب الله تعالى، ولا حجة بعد سنة رسول الله ﷺ، ولا قدوة[1] إلا بالعلماء المشهورين الذين جعلهم الله تعالى حجة ظاهرة على الخلق أجمعين، سلَّم الله تعالى قلوبنا من الزيغ والزلل، وهدانا بفضله ومنِّه إلى أوضح الشرائع والسبل، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(١) ب: قدرة.

قوله: (مِنْ مُطَالَعَةِ الْغُيُوبِ):

اعلم أن القلب له مطالعة عالم الغيب كما للحواس مطالعة عالم الشهادة؛ ولهذا كلَّفنا الله تعالى الإيمان بالغيب وبما وعدنا وأوعدنا؛ فما كلَّفنا حتى وهبنا ما به نعلم ذلك، و﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة: ٢٨٦)، ومطالعة الغيب المأمور بالإيمان [به][1] على حسب منزلة القلب المطالع لذلك؛ فقلبٌ يكون له ذلك جليًّا، وقلب يكون له خفيًّا، وتارة يكون نظرًا، وتارة يكون خبرًا، ومراتب القلوب في ذلك لا تنحصر.

[الاشْتِغَالُ بالحسِّ وَلاسِيَّما الْمَحْظُورِ مِنْهُ شَرْعًا يُضعِفُ الإيمَانَ]

وجعل الله تعالى شهود عالم الشهادة مانعًا من شهود[2] عالم الغيب لأنه ضده؛ لكن إذا وُفِّقَ[3] العبدُ نَظَرَ في خلالِ ذلك لمحاتٍ من النظرِ إلى عالم الغيب فيؤمنُ به؛ ولهذا كان النائم يبدو له شيء من المغيبات لركود عالم حسه؛ فكثرة الاشتغال بعالم الحس والميل إليه لاسيما للمحظور منه شرعًا يُحْدِث في القلب شكوكًا وأوهامًا وظنونًا تستر عنه مطالعة الغيب فيضعف الإيمان لذلك، ولهذا نجد كثيرًا ممن اشتغل بالدنيا يضعف إيمانه بالآخرة.

وقوله: (مُطَالَعَةِ الْغُيوب) لفظ جامع لمعاني ما تُعْلَمُ به الحقائقُ المأمور بالإيمان بها؛ فثَمَّ مَن يطالعها علمًا، كالعلماء والأولياء؛ ومنهم من يطالعها تصديقًا وإذعانًا كعموم المؤمنين؛ كلٌّ على حسب حاله، وليس في هذا طلب العلم بالغيب

(١) ليست بالمخطوط.

(٢) بالمخطوط: الشهود.

(٣) بالأصول: وافق، تصحيف يخل بالمعنى.

الذي اختص الله تعالى بعلمه؛ إنما هو سؤالٌ لقوة المعرفة والإيمان، فكلُّ مؤمنٍ إذا صح إيمانُه كانَ مطالعًا لعلم الغيب؛ لأنه ذاكرٌ للجنة والنار وما أخبر الله تعالى عنه من حشر ونشر وسؤال وحساب وغير ذلك؛ مُصدِّقٌ بكونه[1].

واطِّلاعُكَ على الشيء تارة يكون بخبرٍ، وتارة يكون بنظرٍ ومشاهدةٍ، وتارة يكون بدليلٍ وبرهانٍ، وكل ذلك مطالعة؛ تقول: «اطلعتُ على أمر فلان»، إذا وصل لك علمُه بوجه ما. ولا شك أنَّ المؤمنين أخبرهم الحق تبارك وتعالى بأمر الجنة والنار وبأمر من المغيبات فهم مصدِّقون بذلك، فصار اطلاعهم بوجهين: أحدهما إخبار الله تعالى لهم، والآخر تصديق قلوبهم به، والكافر الذي تبلغه الرسالات لم يطلع بالوجهين جميعًا، والذي بلغته ولم يؤمن غير مطلع بالوجه الثاني.

قوله: (فَقَدِ ابْتُلِيَ المؤمِنُونَ ...) إلى آخره، هذا اللفظ موافق للفظ التلاوة إلا في قوله: (فَقَدِ ابْتُلِيَ المؤمِنُونَ وَلِيَقُولَ[2] المنافِقُونَ)؛ والقرآن: ﴿ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ (الأحزاب: ١١)، ﴿ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ ﴾ (الأحزاب: ١٢).

وهذه نزلت في غزوة الأحزاب - غزو الخندق - لقوله تعالى: ﴿ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ﴾ (الأحزاب: ١٠ - ١١) أي عند هذه الحالة العظمى ﴿ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴾ (الأحزاب: ١١)، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ ﴾ (الأحزاب: ١٢) يحتمل أن يكون ﴿ وَإِذۡ ﴾ هذه بدلًا من ﴿ إِذۡ ﴾ في قوله: ﴿ وَإِذۡ

---

(١) أي مصدق بكونه موجودًا أو كونه حقيقة، لأن فِعْلَ «كان» التام يفيد الثبوت.

(٢) لا يخفى أن الشائع في لفظ الحزب الآن موافقة الآية في هذا الموضع دون الذي قبله.

﴿زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ ويكون العامل في ﴿إِذْ﴾ وما بعدها، ﴿ٱذْكُرُوا۟﴾ أي اذكروا نعمة الله تعالى عليكم في هذه الأحوال كلها.

ويحتمل أن يكون العامل في ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ (الأحزاب: ١٢). ﴿ٱبْتُلِىَ﴾ و﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾ أي: ابتلي المؤمنون وزلزلوا عند قول المنافقين ذلك، فالسياق كما ترىٰ في الآية يقتضي ﴿هُنَالِكَ﴾ و﴿إِذْ﴾ المأتي بهما في الآية، والذي ذكره في الحزب يقتضي «قد» و«لام» التعليل؛ إذ وقع الابتلاء للمؤمنين بما يرد على القلوب فيحجبها عن مطالعة الغيوب، ثم تثبت بتوفيق الله تعالى في مراكز التقوى والعمل وتعود إلى تذكر الإيمان ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠١).

ويقول المنافق عند حجاب قلبه: «لا أرى شيئًا، وما وُعدتُ به غرورٌ لا حقيقةَ له»؛ ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ (إبراهيم: ٤) ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ (الأنفال: ٤٢).

ولم يُرِدْ بذلك التلاوة، ولو أريد التلاوة لتعيَّن الإتيان بلفظها؛ إذ لا يحل لمسلم أن يزيد حرفًا في القرآن ولا يُنقِص حرفًا، وكل مؤمن يعلم ذلك ويقطع به، وذلك معلوم ضرورةً عند المؤمنين فكيف بالعلماء العارفين! وإذا لم يقصدوا التلاوة جاز للإنسان النطق باللفظ الموافق للتلاوة [صورةً][1]، سواء كان جُنبًا أو متطهرًا، ويجوز مسه مكتوبًا على غير وضوء؛ لأنه إذ ذاك ليس بقرآن.

وإذا كان كذلك جاز أن يزيد لفظًا ويُنقِصَ لفظًا كغيره من الكلام، هذا ما لم

---

(١) بالمخطوط: سورة.

يكن المقرر المنطوق به قدرًا معجزًا، فإن كان معجزًا لم يجز تغييره بالنية والقصد؛ لأنه تعيَّن أنْ يكون قرآنًا[1].

[صُورَةُ فَتْوَىٰ للمُصَنِّفِ ﷺ في أَحْكَامِ وَحَالاَتِ الاقْتِبَاسِ مِن الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ]

وقد وقعت هذه المسألة خصوصًا في وقتٍ وتردد سؤال الناس مني عنها؛ فاستخرتُ الله تعالى في أن أُحصِّل ما ينقدح في الذهن من ذلك في معرض سؤال وجواب لما هو أعم من ذلك، وتكون المسألة جزءًا مما يندرج تحت عموم الجواب؛ ليحصل العلم إن شاء الله تعالى بهذه المسألة ونظائرها، وتحصل الفائدة في فَهْم معنى هذا السبيل، والنظر في ذلك لهم وفَهْم طريق العلم به، وبالله تعالى التوفيق والمعونة.

سؤال:

هل يجوز ذكر كلمات يسيرة مما يُذكر في القرآن العظيم كقوله: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ (آل عمران: ١٧٣) ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٥٦) ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ (الزخرف: ١٣) ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (الأعراف: ٢٣) ونحو ذلك ويقصد به الذكر والدعاء فقط؛ ليُجوِّز ذاكر ذلك ما ينبني عليه من ذكْر ذلك جُنبًا أو حائضًا، أو مسه ذلك مكتوبًا وهو غير متوضئ؟

---

(١) القدر المعجز من القرآن هو ثلاث آيات فما أكثر، وهو الموافق لأقصر سور القرآن أي سورة الكوثر، لأن التحدي وقع في كتاب الله تعالى وهو قوله عز وجل: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٣).

وكذلك لو ذكر نحو ذلك وقصد به معنىً غير ما هو في القرآن العظيم؛ كقوله لمن استأذن عليه ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ (الحجر: ٤٦)، أو ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ (مريم: ١٢)، أو عتبه على أمر فقال: ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾ (الإسراء: ٥٨)؛ فإن مدلول اسم الإشارة في قوله غير ما هو في القرآن؟

أو أراد أن يخبر عن حال نفسه فقال: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ (يوسف: ٥٣)؟ أو وقعت فتنة فثبت قوم واضطرب آخرون فقال: ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ (الأنفال: ٤٢) يريد ذلك أو نحو ذلك أو ضمن ذلك خطبة أو رسالة قاصدًا سياق قوله غير قاصد معاني التلاوة، هل يجوز ذلك حتى يترتَّب عليه ما يلازمه من الأحكام نفيًا وثبوتًا من ثواب القرآن إن كان قرآنًا؟ وصحة الصلاة وعدم صحتها إذا وقع فيها إن كان كلامًا؟

وإذا جاز ذلك وكان ذكرًا أو دعاءً أوكلامًا فهل له أن يزيد في ذلك أو ينقص منه؟ أو يغيِّر نظمه بتقديم أو تأخير؟ أوزيادة حرف أو كلمة؟ أو تغيير حركة إعراب؟ على حسب سياق حاله كمَن ذكر له أمر نزل فقال: «إن يكن ذلك فإنا لله وإنا إليه راجعون»، وكمن أخبر عن نفسه فقال: «رب إني ظلمت نفسي وإن لم تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين» أو يقول: « حسبي الله ونعم الوكيل»؟

وبالجملة: هل يجوز أن تذكر شيئًا من كلمات القرآن العظيم، ويقصد بها معاني لسياق حال كلامه غير ما هي في التلاوة لخصوص حال، أو سياق موعظة، أو خطبة، أو رسالة، أو مخاطبة لنفسه ويغير شيئًا من ذلك لما يناسب سياق كلامه؟

الجواب في ذلك، والله الموفق الهادي وهو حسبنا ونعم الوكيل:

«بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، رب سدِّد ووفِّق وصلِّ الله على سيدنا محمد وآله[1]:

الكلام في جواب هذا السؤال مستمد من أصلين:

[الأصل الأول: التبحر في العلوم والغوص على دقائقها]

أحدهما: تحقيق معاني ذلك، وتعيين وجوه وقواعد تبنىٰ عليها وجوه معانيه، والتحقيق فيه بحثًا ونظرًا وفهمًا، ويُسِّرُ بِهِ الناظرُ في ذلك من أمور يعتمد عليها، ويستند في ذلك إليها، وذلك يستدعي الكلام من علوم غامضة جليلة هي أساس العلوم ومسار الفهوم، وقلَّ مَن يصل بالتحقيق إليها، وكثير من الناس لم يعرِّج عليها، وما ذاك إلا لعلوها عن فَهم العموم وغموض معانيها على كثير من الفهوم، والمسلك المستقيم لمثل هذه المسائل كـ«علم قواعد معرفة إعجاز القرآن»، و«علم أصول الدين»، و«أصول الفقه»، و«دقائق علوم العربية واللغة وأسرارها»، و«علم البيان والبديع والمعاني»، وتصرُّف اللسان العربي في سعة ميدانه، والنظر في سرعة تصريف[2] جواد البلاغة عند إطلاق عنانه في أنحاء أنواع الكلام، والتصرف في بدائع المعاني في التوصيل إلى الإفهام، واستعمال ذلك في بيان القواعد الشرعية، والنظر بذلك مع الفهوم الصحيحة في الحقائق الدينية؛ فيتيح إذ

---

(١) انظر في هذه المقدمة شأن العلماء ﷺ في التبرؤ من الحول والقوة وإظهار افتقارهم لله تعالى في توفيقهم لما يكتبون، وهذا ما يغفل الكثير من أهل عصرنا عفا الله عنا وعنهم بجاه أعلم العلماء ﷺ.

(٢) في المطبوع: تصاريف.

ذاك وجود الفوائد ويطلع هناك على محاسن القواعد، ثم الأولى في ذلك -مع وجود ذلك- أن يكون مشافهة وخطابًا لا مراسلة وكتابًا؛ لأن المتكلم في دقائق العلوم مخاطبةً يعلم مَن يعرض خطابه عليه، والكتاب لا يُدْرَى مَن يقع في يديه، ولكل عبد في مقدار فهمه ومبلغ علمه حال، ولكل مقام مقال.

[جواب للإمام العز بن عبد السلام عن مسألة مشابهة]

ولقد بلغني عن الشيخ الإمام عز الدين بن عبد السلام ﷺ أنه سئل عن مسألة في نحو ذلك - وكان بالإسكندرية - فقال: «لا أجيب عن هذه المسألة في هذه البلدة»، وما ذاك إلا لدقة الجواب عن أفهام كثير من الناس؛ لأنه إذا لطَّف الكلام في دقائق العلوم استصعب ذلك على فَهْم مَن لم يكن ذا فَهْمٍ ثابتٍ وذهنٍ صحيحٍ وممارسةٍ لكثير من العلوم التي هي أدواتٌ لإدراك غامض المعاني.

[مُذَاكَرَةُ المؤلِّفِ ﷺ مَعَ الإمَامِ شَمْسِ الدِّينِ الجزرِيِّ ﷺ]

ولقد ذاكرتُ الشيخ الإمام شيخ وقته وإمام عصره شيخنا الشيخ شمس الدين الجزري ﷺ(١) في مسألة من نحو ذلك فقال لي: «حضرتُ مع جماعة من

---

(١) محمد بن يوسف بن عبد الله الجزري شمس الدين الخطيب كان أبوه صيرفيًا بالجزيرة يعرف بابن الحشاش، ولد في حدود سنة ثلاثين وقدم الديار المصرية مجردًا، فسكن في قوص فقرأ على الشيخ شمس الدين الأصبهاني وهو يومئذ حاكمها، وأتقن الفنون ثم قدم القاهرة فأعاد بالصاحبية ودرس بالشريفية وانتصب للإقراء فكان لا يفرغ لنفسه ساعة واحدة ويقرأ عليه المسلمون واليهود والنصارى، وصحب الجاشنكير وارتفعت منزلته عنده، ثم تعصب عليه الشيخ نصر المنبجي فعزله من خطابة جامع القلعة، ثم ولي خطابة جامع طولون ومشي حاله في الدولة الناصرية ودرس بالمعزية بمصر، وصنف شرح التحصيل في ثلاثة مجلدات، وعمل أجوبة على مسائل من المحصول، وشرح ألفية ابن مالك. قال الكمال الأدفوي جئته لأقرأ عليه فقال لي: ما لك شغل؟ قلت: لا. قال: احضر

الفقهاء فحاولتُ أن أوصِّلَ إلىٰ أذهانهم معنىٰ هذه المسألة فلم يكن؛ لبعد أذهانهم عن إدراك ذلك».

[الأصل الثاني: أدلة السمع وفتاوى الأئمة]

والأصل الآخر المعتمد عليه في بيان ذلك: وهي القواطع السمعية والنقول البَيِّنَةُ الجليَّةُ؛ التي تقرع الأسماع ويرتفع عند وجودها النزاعُ، وفي ذلك أعظم كفاية وأكبر حُجة، وأجلىٰ بيان وأوضح محجَّة؛ إذ النقول الصريحة يصل إلى فهم معناها وإدراك دلالتها عموم الأفهام؛ ويشترك في الوصول إلى العلم بها الخاص والعام.

وفي تَقصِّيها والنظر لما فيها ما هو جواب عن هذا السؤال وبيان لمثل هذا الحال، وذلك نوعان:

أحدهما: ذكر ما جاء في ذلك من الأحاديث والآثار، وكلام الأئمة والعلماء والخطباء والأدباء، وما سطره في ذلك علماء البيان وأئمة البيان قولًا.

والثاني: ما ذكره العلماء أئمة الفتوى في ذلك حُكمًا، وذلك أمر في ذلك كافٍ وجواب في المسألة شافٍ.

بعد العصر فإن اتفق أقرأ. ففعلت ذلك فلم يخل يومًا بالخروج إليَّ، وكان حسن الصورة مليح الشكل حلو العبارة عالمًا بالفنون من الفقه والأصول والنحو والمنطق والأدب والرياضيات، وشرح منهاج البيضاوي في مجلدة لطيفة، واعتذر في خطبته بكبر السن، وكان كريم الأخلاق يسعى في قضاء حوائج الناس ويبذل جاهه لمن يقصده، وله ديوان خطب وشعر، وقدرت وفاته بمعان بعد أن رجع من الحج سنة ٧٥٦ في ليلة ١٤ المحرم، ودفن على قارعة الطريق. «الدر الكامنة» لابن حجر العسقلاني.

[جلائل النقول من السنة الشريفة في جواز الاقتباس من التنزيل]

أما النوع الأول:

١- فمن ذلك ما ثبت في «الصحيح» رواه مسلم بن الحجاج: «عن علي بن أبي طالب ﷺ عن رسول الله ﷺ إنه كان إذا قام في الصلاة قال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: ٧٩) ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ (الأنعام: ١٦٢، ١٦٣) وأنا من المسلمين» إلى آخر الحديث، وهذا الحديث صحيح مشهور معمول به ظاهر في الدلالة على ذلك؛ لأن التلاوة ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ (الأنعام: ٧٩)، و﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي﴾ (الأنعام: ١٦٢) ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٣)؛ ففي ذلك أوضح بيان وأشفى جواب لما ذُكر.

وقد نصَّ على ذلك القاضي أبو الفضل عياض في «شرح كتاب مسلم» عند ذكره الحديث، وقال فيه: «وجه قوله من أنه لم يرد تلاوة الآية بل الإخبار بالاعتراف بحاله فقد بيَّن ذلك وشفى، أي: بيَّن في قوله في الحديث: «وأنا من المسلمين»، فزاد «مِنْ»، وحذف «أول»؛ فقال: لم يرد تلاوة الآية، وإنما أراد أنه ذِكْر أو خبر عن حاله؛ فنبَّه بذلك على قواعد جليلة؛ من أنه يجوز أن يزاد شيء من كلمات القرآن غير التلاوة.

وقد نصَّ على ذلك الأئمة من المالكية والشافعية وعُلِم ذلك من قولهم، وأنه إذا أراد بذلك غيرَ التلاوة، جاز أن يُحذَف شيءٌ منه ويُزَاد على سياق قول قائله؛ لأنه إذ ذاك ذِكْرٌ من الأذكار.

وقد نصَّ على ذلك الأئمة من الشافعية أنَّ دعاء التوجه ذكرٌ من الأذكار ودعاء.

وأشار أيضًا في كلامه إلىٰ الفرق ما بين يقصد به العبد الإخبار عن نفسه والاعتراف بحاله؛ فقد بيَّن ذلك وشفي وبيَّن تلاوته كلام ربه تعالى، وذلك معلوم من القواعد وتحقيق العلم لكن نسبته إلى قائل مخصوص مشهور أقرب إلى إذعان سامعه.

ويستدل بهذا الذكر أيضًا على ما ذكر من طريقين آخرين:

أحدهما: عمل الإمام الشافعي به في الصلاة فرضًا ونفلًا، وإجماع القائلين بقوله من مجتهد ومقلِّد على ذلك مع زيادة قوله فيه: «مسلمًا» بعد قوله «حنيفًا»، وليس ذلك في القرآن ولا في الحديث.

وقد أجمع العلماء علىٰ تصويب المجتهدين في الأحكام، وعلىٰ جواز تقليد مَن شاء المقلِّد منهم، لاسيما هذا الإمام المشهور ومَن قال بقوله، وذلك أمر ظاهر في ذلك.

والطريق الأخرىٰ: أنه ذكر ودعاء جائز الذكر[به][1]، وادعى إجماع العلماء المشهورين بذلك وإن اختلفوا في مشروعيته في استفتاح الصلاة، حتى قال الإمام الخطابي في «شرح السنن» له - بعد ذلك الاستفتاح ونقل كلام الأئمة فيه: «وهو من الاختلاف المباح؛ فبأيها استفتح الصلاة كان جائزًا، وإن استعمل رجلٌ

---

(١) ليس في ب.

مذهب مالك ولم يقل منها شيئًا[1] أجزأته صلاته، وكرهنا له ذلك»[2]؛ فقد تبيَّن أن ذلك كله مباح، فلا إشكال في جواز هذا الذكر على ما ذكر، والله ولي الهداية بمنه.

٢- ومن ذلك ما رواه الإمام أبو عبد الله البخاري في «صحيحه» عن عبد الله ابن عباس أن أبا سفيان أخبره وذكر حديث هرقل وقال فيه: ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به مع دحيه إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل فقرأه فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على مَن اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين؛ فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيِّين[3]، و﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٦٤)»[4]؛ فذكر فيه: «سلام على من اتبع الهدى» والتلاوة والسلام، وذكر فيه: «ويا أهل الكتاب»، والسبيل[5] كما تقدم والدلالة به ظاهرة.

٣- ومن ذلك ما رُوي في الصحيحين البخاري ومسلم: «عن أنس ﷺ قال:

---

(١) لأن مذهب الإمام مالك كراهة دعاء الاستفتاح.

(٢) لأن الإمام الخطابي كان شافعياً، ومذهبهم استحباب دعاء الاستفتاح.

(٣) أ: «الأوريسيين»، تصحيف. وقيل: إنهم أتباع عبد الله بن أريس، رجل كان في الزمن الأول قتلوا نبيًّا بعثه الله إليهم، وقيل: الإرِّيسون الملوك واحدهم إرِّيس، وقيل: هم العَشَّارون. «لسان العرب» (أرس).

(٤) متفق عليه: البخاري (٧)، ومسلم (٤٧٠٧)،

(٥) متفق عليه: البخاري (٦٠٢٦)، ومسلم (٢٦٩٠).

«كان أكثر دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ»[1] زاد مسلم: «وَكَانَ أَنَسٌ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ بِدَعْوَةٍ دَعَا بِهَا، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ بِدُعَاءٍ دَعَا بِهَا فِيهِ».

والتلاوة: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا﴾ (البقرة: ٢٠٠)، وسبيل القول في ذلك ما تقدم، ويستدل من الحديث في ذلك بقول أنس ﷺ: «كان أكثر دعاء النبي ﷺ»[2]؛ فسمَّى ذلك دعاءً، ولم يسمه تلاوةً. وقول الراوي عن مثل ذلك.

والدعاء: إنشاء وتَعبُّد وإخبار عن حالة العبد وسؤال من ربه تعالى كما أشار القاضي إليه.

٤- ومن كتاب البخاري أيضًا في قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (الصافات: ١٣٩) وفيه قال النبي ﷺ: «لاَ تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ الله، فَإِنَّهُ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَيَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ، إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ...»[3] الحديث.

٥- ومنه في ترجمة وفود الأنصار حديث عبادة بن الصامت ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه: «بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِالله شَيْئًا وَلَا تَسْرِقُوا وَلَا تَزْنُوا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ

---

(١) مسلم (٢٦٩٠).

(٢) لفظ مسلم (٢٦٩٠): «كان أكثر دعوة يدعو بها».

(٣) والشاهد فيه الاقتباس من قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ (الزمر: ٦٨).

وَأَرْجُلِكُمْ وَلَا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ» ... الحديث[1].

٦- ومنه في باب: «قول الله عز وجل: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ (البقرة: ١٢٥)»: «عن عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ قَالَ سَأَلْنَا ابْنَ عُمَرَ عَنْ رَجُلٍ طَافَ بِالْبَيْتِ الْعُمْرَةَ وَلَمْ يَطُفْ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ أَيَأْتِي امْرَأَتَهُ؟ فَقَالَ: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ فَطَافَ بِالْبَيْتِ سَبْعًا، وَصَلَّى خَلْفَ الْمَقَامِ رَكْعَتَيْنِ، وَطَافَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١)»[2].

٧- ومنه في باب: «التوجه نحو القبلة»، وذكر حديث البراء ﷺ: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ صَلَّى نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُحِبُّ أَنْ يُوَجَّهَ إِلَى الْكَعْبَةِ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ (البقرة: ١٤٤)؛ فَتَوَجَّهَ نَحْوَ الْكَعْبَةِ وَقَالَ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ - وَهُمُ الْيَهُودُ - ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة: ١٤٢)»[3].

٨- ومن الصحيح أيضًا ما رُوي في حديث مَن تكلم في المهد، فيه حديث الجارية التي يقال لها: «زَنَيْتِ سَرَقْتِ»، وهي تقول: «حَسْبِيَ اللهَ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»، والتلاوة ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ (آل عمران: ١٧٣)[4].

---

(١) متفق عليه: البخاري (٣٢٢٣)، ومسلم (٢٣٧٣).

(٢) متفق عليه: البخاري (٣٩٥)، ومسلم (٣٠٥٨)، ولفظه: «وقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة» وهو مناسب لاستشهاد المصنف ﷺ.

(٣) أخرجه الإمام البخاري (٣٩٩).

(٤) الحديث في صحيح مسلم (٤٦٤٤) من طريق سيدنا أبي هريرة ﷺ.

٩- ومن ذلك ما روى الترمذي في جَامِعِهِ قال: «بَاب مَا جَاءَ إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ فَزَوِّجُوهُ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا خَطَبَ إِلَيكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ» قَالَ: «وَفِي الْبَاب عَنْ أَبِي حَاتِمٍ الْمُزَنِيِّ وَعَائِشَةَ»، وقال فيه: «رَوَاهُ اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ ابْنِ عَجْلَانَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مُرْسَلًا قَالَ مُحَمَّدٌ - يعني البخاري - وَحَدِيثُ اللَّيْثِ أَشْبَهُ»[1].

قال فيه بطريق أخرى عن أبي حاتم المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ، إلا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ» إلى آخر الحديث. قال أبو عيسى: «قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَأَبُو حَاتِمٍ الْمُزَنِيُّ لَهُ صُحْبَةٌ وَلَا نَعْرِفُ لَهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ غَيْرَ هَذَا الْحَدِيثِ»[2].

فقد أتقن أبو عيسى هذا الباب، وحقق بعض الطرق ببعض؛ فقد زال إرساله بمجيئه من وجه آخر، وثبتت الزيادة بثبوت أصل الحديث من طريق ثابت حسن، وثبت الاحتجاج به، ففي ذلك دلالة ظاهرة على ما ذكر في قوله: «إِلا تَفْعَلُوا» بغيرها «وَفَسَادٌ عَرِيضٌ» والتلاوة معلومة[3].

---

(١) حديث حسن، أخرجه الترمذي (٣/ ٣٩٤، رقم ١٠٨٤)، وابن ماجه (١/ ٦٣٢، رقم ١٩٦٧)، والحاكم (٢/ ١٧٩، رقم ٢٦٩٥) وقال: «صحيح الإسناد». وتعقبه الذهبي بأن فيه عبد الحميد بن سليمان أخا فليح، قال أبو داود: كان غير ثقة، ووثيمة لا يعرف. والطبراني في الأوسط (١/ ١٤١، رقم ٤٤٦).

(٢) أخرجه الترمذي (١٠٨٥)، والطبراني في الكبير (٧٦٢)، والبيهقي (١٣٢٥٩)، وابن عمرو الشيباني في «الآحاد والمثاني» (١١٢٢).

(٣) وهو قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (الأنفال: ٧٣).

ومعنى الكلام هاهنا في الحديث متوجه لما سبق له؛ من أنَّ مفعول «إِلا تَفْعَلُوا» في الحديث محذوف يفسره «فَأَنْكِحُوهُ»، وفي الآية الضمير المذكور تقديره معلوم؛ فظهر الاستدلال بذلك على المعنيين جميعًا: الحذف والزيادة، والقصد سيأتي كلام المتكلم إذا قصد غير التلاوة.

ومن ذلك ما روىٰ مالك في «موطئه» عن يحيى بن سعيد أنّه بلغه أن رسول الله ﷺ كان يدعو فيقول: «اللَّهُمَّ فَالِقَ الإِصْبَاحِ وَجَاعِلَ اللَّيْلِ سَكَنًا وَالشَّمْس وَالْقَمَر حُسْبَانًا اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ وَأَغْنِنِي مِنَ الْفَقْرِ...»[1] الحديث، فقال: فيه يدعو فَسُمِّيَ ذلك دعاءً، وقوله: «فَالِقَ الإِصْبَاحِ» في الحديث منادى ثانٍ و«جَاعِل» معطوف عليه، نص على ذلك سيبويه فيما يذكر بعد «اللهم»، وفي التلاوة مرفوعان؛ إما على خبر ثانٍ وإما خبر مبتدأ محذوف. وهذا كما ترى دليل ظاهر في ذلك، والأدلة من الأحاديث كثيرة وفيما ذُكِر كفاية.

[الاقتباس من القرآن عمل السلف والعلماء]

ومما ينتظم في سلك ذلك، ويؤكده ما ذُكِر من آثار منقولة يصلح الاستدلال بها، وإن لم يقو في السند قوة الكتب المشهورة التي هي عُمد الإسلام، ولا يقصر الاستدلال بها عن الاستدلال بنقول الكتب الفقهية، فمن ذلك ما روي في كتاب إلى ملك فارس: «من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس»، إلى قوله: «فإني أنا رسول الله إلىٰ الناس كافة؛ لأنذر مَن كان حيًّا ويحق القول على الكافرين»[2].

---

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ (٤٩٥)، وعبد الرزاق في مصنفه (٢٩١٩٣).

(٢) أخرجه ابن جرير من طريق ابن إسحاق عن زيد بن أبي حبيب قال: وبعث عبد الله بن حذافة ﷺ إلى كسرى بن هرمز ملك فارس وكتب معه: بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله...» الحديث، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٢٣٥)، وابن كثيرة في السيرة (٣/ ٥٠٨).

والدليل بذلك متجه لأن أصول هذه الكتب ثابتة في الأحاديث الصحيحة.

ومن ذلك ما روي في عهد أبي بكر ﷺ لعمر ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة... إلى أن قال: والخير أردت لكم[1] «فلكل امرئ ما اكتسب من الإثم»، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢٧)» فأتى بـ«الواو» زيادة على ما في التلاوة وحذف «منهم» وقصد بالكلام سياق قوله[2]. ومعنى التلاوة معلوم، وذلك ظاهر فيما نحن بسبيله.

ومن ذلك في رسالة أبي بكر ﷺ إلى علي ﷺ أيام توقفه عن البيعة، فقال في آخره: «والله على ما نقول شهيد، وبما نحن عليه بصير»، وقول علي ﷺ في جوابه آخر كلام له: «وإني غادٍ إلى جماعتكم، ومبايع صاحبكم إلى قوله: ﴿لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ (الأنفال: ٤٢) وكان الله على كل شيء شهيدًا».

ومن سياق هذه الرسائل قول القاضي الفاضل - وقد ذكر الفرنج: «وغضبوا زادهم غضبًا، وأوقدوا نارًا للحرب جعلهم الله لها حطبًا»؛ فقد حذف ﴿كُلَّمَآ﴾، وزاد «الواو»، وأتى بالنظم كما ترى، والتلاوة معلومة[3].

ومن ذلك قول الفقيه الإمام الخطيب عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل بن نباتة في خطبة ذكر فيها القيامة: «هنالك يُرفع الحجاب، ويوضع الكتاب، ويُجمع

---

(١) في المخطوط: والخير أردت بكم. والمثبت من المطبوع.

(٢) انظر أسد الغابة (٢/ ٣٢٦)، تاريخ الخلفاء (١/ ٧٤)، تاريخ الطبري (٢/ ٣٥٣).

(٣) وهي قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ (المائدة: ٦٤).

مَن وجب له الثواب، وحقَّ عليه العقاب، فيضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب».

وقال في خطبة أخرى يذكر فيها فضائل رجب: «يا له من نادم على تضييعه أسفًا على السيئ من صنيعه، حين عاين رُتَب الصالحين وأبصر منازل المفلحين الذين قدروا الله حق قدره، وكانوا نُصْب نهيه وأمره، ولم تلههم تجارة ولا بيع عن ذكر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ويخافون يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار».

فقال فيها: «الذين قدروا الله حق قدره»، والتلاوة ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ (الأنعام: ٩١)»، وقال: «ولم تلههم» والتلاوة ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ﴾ (النور: ٣٧)؛ بـ(لا) وزيادة الياء، وقال: «عن ذكره» في إحدىٰ النسختين: والتلاوة ﴿مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ (الزمر: ٢٢)، وذلك ظاهر في الباب.

وقال في خطبة يذكر فيها الجهادَ والحضَّ عليه: «ألا وإن الجهاد كنز وَفَّرَ اللهُ منه أقسامَكم، وحِرْزٌ طهَّرَ الله به أجسامَكم، وعِزٌّ أظهر الله به إسلامَكم، فإن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم»، فزاد «الفاء».

وقال في خطبة أخرى يذكر فيها الجهاد: «فأحسنوا - رحمكم الله- الثقة بمن لم يزل بكم برًّا لطيفًا، وقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفًا»، والتلاوة بالفاء.

وقال في خطبة أخرى: «واغنموا بمقارعة العدو قريب الفرج، فإن الله اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج»، والتلاوة ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ (الحج: ٧٨).

وقال في خطبة أخرى: «وخرست الألسن الفصيحة عن الكلام، وقُضِيَ بدار

البوار لمن حُرِمَ دارَ السلام، وعُرِفَ المجرمون وأُخِذوا بالنواصي والأقدام».

وقال في خطبته المشهورة المنامية: «يوم تكونون(1) شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيدًا» فرفع الفعلين، والتلاوةُ بنصبهما، فانظر ما ذكر في ذلك، وكلامه في نحو ذلك كثير في خطبه، وكذلك غيره من الفصحاء والعلماء وأئمة اللسان.

والاستدلال على ذلك بهذه الخطب ظاهر جلي؛ لأنها خطب اشتهرت على رؤوس المنابر، وذكرت في جُمَع المسلمين وجموعهم، وتكررت على أسماع(2) كثير من العلماء والأئمة الأكابر، فالاحتجاج بها على شكل ذلك ظاهر جليٌّ.

وقال القاضي الإمام الخطيب الفاضل الفقيه ناصر الدين بن المنير في خطبه المشهورة التي أذنت بفضيلته وديانته وحسن فهومه، واشتهرت في البلاد وبين [العباد](3) أكثر من شهرة كثير من علومه مع شيخوخته في العلوم الدينية والأدبية، وتقدمه وتبحره في ذلك وسيادته، فقال في خطبة منها: «كيف إذا جئت وأنت لجميع ما خلقت فاقد، وجاءت كل نفس معها سائق وشاهد» والتلاوة ﴿شَهِيدٌ﴾.

وقال في خطبة أخرى: «الحمد لله الذي يدافع عن الذين آمنوا ويكافئ

---

(1) بالأصول: يكونون، بصيغة الغائب، والآية الفعل بصيغة الخطاب، وحيث لم يقرر المصنف وجود تغيير فقد اتضح أن ما بالأصول تصحيف، والله تعالى أعلم.

(2) بالأصول: سماع، والصواب إما أن تكون: سمع، أو أسماع، وهو الأرجح لترجيح رسم الكلمة ذلك.

(3) ساقط من الأصول، مثبت من عندنا لتمام المعنى.

بالحسنى والزيادة للذين أحسنوا»، والتلاوة ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (يونس: ٢٦) فبين التلاوة وبين هذا تغيير كثير ظاهر.

ومن ذلك قوله في خطبة أخرى: «بل هو الفرد الصمد الواحد الأحد والناس فرادى ومثنى، يسمع النجوى ويعلم السر وأخفى، وهو تعالى أينما كنا معنا». والتلاوة: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ (الحديد: ٤)، وفيه التقديم والتأخير والتغيير.

وقال في خطبة أخرى: «الحمد لله الحليم الذي ستر العصاة بحلمه العظيم، الذي قهر العباد بحكمه العليم، الذي لا يعزب مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض إلا يعلمه» والتلاوة معلومة[1].

وقال في خطبة أخرى: «فسبحان من كل يوم هو في شأن».

وقال في خطبة أخرى: «لقد كان لكم في وصية الله كفاية ومقنع، كتاب الله يتلى بين أظهركم ويسمع، وهو القرآن الذي لو أنزل على جبل لرأيته يتصدع».

وقال في خطبة خَتْمِ القرآن: «وأنزل الذكر وحفظه وجعله بأيدي سفرةٍ كرامٍ بَرَرَةٍ حَفَظَةٍ». وقال في خطبة أخرى: «فالله الله عباد الله شمروا الذيل، فإن السيل قد بلغ الربا فحلوا [الخباء][2]، وسلوا الظباء، وأعدوا لعدوكم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبونهم منه رهبًا»، والتلاوة ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ (سبأ: ٣).

(٢) من المطبوع، ليست في المخطوط.

قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (الأنفال: ٦٠) وذلك كله بين في الكتاب كما ترى، وشاهد لما ذكر.

والكلام في الاستدلال بهذه الخطب على نحو ما تقدم في ذلك، ويزيد هذا[1] بوفور علم من نسبت[2] إليه، وتقدمه في العلوم الشرعية دون الأدبية عليه، وإنما ذكرت هذه من هذين[3] لشهرتها، وكثرته دون النوعين من خطبهما بين الناس وكثرتها وكلام العلماء والفضلاء في هذا المنهاج متسع وكثير، وسلوك أرباب العلوم والآداب في ذلك معلوم وشهير.

وذكر هذين من منهج الخطابة لاستئناس الأذهان ولشهرة كلامهما واسمهما في الخطباء في هذا الزمان، وليعلم أن ذلك منهلٌ شارعٍ مورود، وطريقٌ للفصحاء والبلغاء مقصود.

ومن ذلك ما ذكر في الكتاب المشهور كتاب «الفضائل والآداب»، والمحتوي من البلاغة والفصاحة على بعيد منزع وبديع خطاب، وإن كان سِلْكُ جواهِرِه واهي العقد والإبرام، [و]ترتيبُ وتأليفُ أخبارِه لا يُرْضِي عند ذوي العقول والأحلام لكن المقصود الاستشهاد ببديع كلماته، والنظر في فصيح عباراته لأنه في هذه العلوم واسع الباع، وبمثل كلامه يستشهد في هذا المنزع عند النزاع.

قال الإمام أبو محمد القاسم بن علي بن محمد الحريري في المقامة الثانية

---

(١) في الأصول: هذه. والمثبت من عندنا لمناسبة المعنى. والمعنى: ويزيد هذا الاستدلال قوة.

(٢) ب: نسب، والمثبت من المطبوع.

(٣) أي ذكرتُ هذه الخطب من هذين العالمين: ابن نباتة وابن المنير السكندري.

وتعرف بالحلوانية: «فلم يكن إلا كلمح البصر أو أقرب، حتى أنشد فأقرب»، والتلاوة ﴿كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ (النحل: ٧٧).

وقال في الخامسة الكوفية: «فهل سمعتم يا أولي الألباب، بأعجب من هذا العجب العجاب؟ فقلنا: لا ومَن عنده علم الكتاب».

وقال في السادسة الخيفاء(١): «لقد جئتم شيئًا إدًّا، وجُرْتُمْ عن القصد جدًّا» وقال فيها أيضًا: «فإن كنت صدعت عن وصفك باليقين فاتت بابه إن كنت من الصادقين».

وقال في الإسكندرية: «واصبر على كيد الزمان وكيده، فعسى اللهَ أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده».

وقال في الرحبية: «كلا، ساء ما يتوهمون، ثم كلا سوف يعلمون».

وقال في الكوفية:

ولاسيما يفتح مستصعبًا | مستغلق الباب منيعًا مهيب
إلا ونودي حين يسمو له | نصر من الله وفتح قريب

وقال في البغدادية: «فعاهدني أن لا أتفوه بها اعتمد، مادمت حلاً بهذا البلد».

وقال في الملطية: «فقال: أفعل لئلا يرتاب المبطلون، ويظنون بي الظنون».

---

(١) وتسمى بالمراغية والخيفاء، أما معنى لفظة الخيفاء: هي الأبيات الشعرية التي تحوي على كلمة حروفها كلها منقّطة، وتأتي بعدها كلمة حروفها كلها غير منقّطة، كما في البيتين التاليين:

ظبيةٌ أدماءُ تُغني الأملا | خيَّبت كلَّ شجيّ سألا
لا تفي العهد فتشفيني ولا | تُنجزُ الوعد فتشفي العِللا

ومثل ذلك ونظائره كثير جدًا، والقصد التنبيه على ما ذكر ليعلم الناظر أنها أمر ظاهر مشهور معلوم؛ والاستشهاد بها في المقامات لكثرة دَورها بين الناس واشتهارها، واطلاع علماء الإسلام على ما فيها، وقراءتها وإقرائها وحفظها وشرحها والاعتناء بها يوضح صُحة الاستشهاد بها فيها على ما ذكر، والله تعالى الموفق بعونه.

وها أنا اذكر جملة دالة على صحة ذلك مؤكدة لما نحن بسبيله مما ذكره الأئمة وعلماء البلاغة وفرسان اللسان والذين يُرجع إليهم في مثل هذا الشأن ليُعلم أن ذلك عندهم معلوم السبيل علمًا جزمًا، وأنه مشهور بينهم نثرًا ونظمًا:

أنشد القاضي أبو بكر الباقلاني في ذلك جملة من كتاب «الإعجاز» له، وأنشد الإمام أبو بكر الطرطوشي في كتاب «الفوائد» له قال: أنشدني بعض البغداديين

رَحَلَ الظَّاعِنُونَ عَنْكَ وَأَبْقَوا ... في حَوَاشِي الحشَا وَجْدًا مُقِيمَا
قَدْ وَجَدْنَا السَّلَامَ بَرْدًا سَلَامًا ... إِذْ وَجَدْنَا النَّوَى عَذَابًا أَلِيمَا

وأما علماء البيان في كتبهم فقد أكثروا من ذلك وأنشدوا للحماسي:

إِذَا رُمْتُ عَنْهُمْ سَلْوَةً قَالَ شَافِعٌ ... مِنَ الحبِّ مِيعَادُ السُّلُوِّ المقَابِرِ
سَيَبْقَى لهَا في مُضْمَرِ الْقَلْبِ وَالحشَا ... سَرِيرَةُ ودٍّ يَومَ تُبْلَى السَّرَائِرِ

وقول الآخر:

لا تُعَاشِرْ مَعْشَرًا ضَلُّوا الهُدَى ... فَسَوَاءٌ أَقْبَلُوا أَو أَدْبَرُوا
بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِم ... وَالَّذِي يُخْفُونَ مِنْهَا أَكْبَرُ

وقول الآخر:

خَلَّةُ الْغَانِيَاتِ خَلَّةُ سُوءٍ ... فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الألْبَابِ

وَإِذَا مَــــا سَـــــأَلْتُمُوهُنَّ شَـــيئًا فَاسْــــأَلُوا مِـــنْ وَرَاءِ حِجَـــابِ

وقول الآخر:

إِنْ كُنْــتَ أَزْمَعْــتَ عَــلَى هَجْرِنَــا مِــنْ غَــيرِ مَــا جُــرْم فَــصَبْرٌ جَمِيــل
وَإِنْ تَبَــــدَّلْتَ بِنَــــا غَيرَنَــــا فَحَـــسْبُنَا الله وَنِعْـــمَ الْوَكِيـــل

ولولا خَشيةُ التطويل لذكرت من ذلك جملة كثيرة، لكـن في التنبيـه بـها ذكـر كفاية، ولأني أكره ذكر التضمين في الشعر أيضًا لكن المقصود الإعـلام بـأن ذلـك مذكور مشهور والله ولي التوفيق والمعونة.

[فتاوى كبار العلماء في جواز الاقتباس من كتاب الله تعالى]

وأما النوع الثاني من الاستدلال:

وهو ما ذكره أئمة الفتوى وعلماء الأصول، فقد نص القاضي الإمام أبـو بكـر الباقلاني ﷺ إمام هذا الفن والقدوة في مثل هذا الباب في كتاب «إعجاز القـرآن» له على تضمين كلمات من القرآن في نثر الكـلام ونظمـه، وذكـر مـن ذلـك جملـة، ولكن أشار إلى كراهة التضمين في الشعر خاصة، وذلـك ظـاهر لإجـلال كلـمات تذكر في القرآن العظيم أن تساق في أوزان الشعر، ويجعل ذلك على سبيل الكراهـة في الـشعر خاصـة دون المنـع والتحـريم؛ والمكـروه والجـائز الإقـدام عنـد علـماء الأصول، وهذا بخلاف الكلام. وكـلام مثـل هـذا الإمـام في مثـل ذلـك كـافٍ، وكذلك ما ذكره القاضي أبو الفضل عيـاض في « شرح كتـاب مـسلم » كـما تقـدم صريحًا في الباب.

وذكر الإمام الجليل المحقق محيي الدين النـووي ﷺ في كتـاب «التبيـان» لـه فقال: «قال أصحابنا: وكذلك إذا قال الإنسان: «خذ الكتاب بقوة» وقصد به غـير

القرآن فهو جائز. قالوا: «ويجوز لهما -يعني الجنب والحائض- أن يقولا عند المصيبة: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٥٦) إذا لم يقصدا القرآن»، قال أصحابنا الخراسانيون: «ويجوز أن يقولا عند ركوب الدابة: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ (الزخرف: ١٣)، وعند الدعاء: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ (البقرة: ٢٠١) إذا لم يقصد به القرآن»».

قال إمام الحرمين: « فإن قال الجنب: «بسم الله، والحمد لله» فإن قصد القراءة عصى، وإن قصد الذكر أو لم يقصد شيئًا لم يأثم».

فانظر - رحمك الله- صريح هذا النقل، وهذا إمام المجتهدين في مذهب الشافعي ﷺ بل هو في هذا الزمان عمدة المذهب في نقله وتصحيحه، وقد صرح بجواز أن يقصد غير القرآن، كرر ذلك في مواضع، وما ذكره إمام الحرمين وهو قدوة في هذا الباب في العِلْمين: العلوم الفقهية والأصول الدينية، وبيّن أنه إذا أراد بذلك الذكر والدعاء والكلام جاز، وذلك بيِّنٌ لا خفاء فيه، وإذا كان ذِكْرًا ودعاءً وكلامًا جاز أن يزيد المتكلم فيه أو ينقص على حسب حاله، وسياق قوله، وأن يقوله جُنبًا وحائضًا ويمسه مكتوبًا ويكتبه وهو غير متوضئ، ومتصل به جميع فروع هذا الأصل وينبني عليه توابعه، ولو بسطت القول في ذلك نَقْلاً وبحثًا لاتسع جدًّا، وفيما ذكر كفاية.

وقد نصَّ على ذلك الأئمةُ من المالكية والشافعية، وأوضحوا القول فيه بحيث لا يشكل شيءٌ منه، ولم أرَ لأحد من أئمة المذهبين في ذلك خلافًا، وأما علماءُ البيان وأئمةُ الفصاحة، والنُّظَّارُ ببدائع اللسان العربي، وغُوَّاصُ بحاره

وأهلُ الاجتهاد فيه وهم من أئمة المسلمين وعلمائهم، وممن أقوالهم في ذلك حجة، فقد أوضحوا القول في ذلك وأتوا فيه بما فيه غنية وكفاية، وصرحوا بالمقصود فيما نحن بسبيله حكمًا واستشهادًا، ولم يكتفوا في ذلك بحكم الجواز فقط، وإنما جعلوه من حَسَنِ الكلام وجَيِّدِهِ، ومعدودًا في طبقات الفصاحة؛ إذ هو عندهم من أنواع علم البديع الذي هو زيادة للكلام حسنًا بعد حصول تمام دلالته ومطابقته لمعانيه

وذكروا هذا الباب وجعلوه فصلًا خاصًّا ملقبًا بلقب من ألقاب علم البديع، وبعض المتقدمين من العلماء بهذا الفن يسميه «تضمينًا»، والمحررون من المتأخرين يلقبونه بـ«الاقتباس»، وكأن التضمين جنسٌ له وهو نوع منه[1]؛ فالمتقدمون أطلقوا عليه اسم «الجنس» وهو لاسم «النوع» وجعلوا «التضمين» لقبًا لمعنى آخر، وفنونه خمسة: الاقتباس والتضمين والعقد والحل والتلميح.

والجامع لهذا الباب أن يذكر المتكلم ناظمًا أو ناثرًا في كلامه كلامَ غيره لا على حكايته لكن يقصد به سياق كلام نفسه وأسلوب خطابه ومقاصد معانيه، فإن كان ذلك الكلام من عبارات القرآن أو الحديث فهو «الاقتباس»، وإن كان شعرًا فهو «التضمين» على اصطلاح المتأخرين، وإن كان المتكلم في ذلك نظم نثرًا فهو «العقد»، وإن كان نَثَر نظمًا فهو «الحل»، وإن كان أشار إلى كلام غيره إيماء لا تصريحًا فهو «التلميح» وبسط ذلك وذكر مثله يتسع، والقصد ذكر شيء مما نحن بسبيله، وذكرُ ذلك ليُعْلَمَ المعنى الجامع لهذا الفصل وغيره، وتبيين ذلك بذكر الاقتباس ونوع من العقد.

---

(١) والجنس أعم والنوع أخص، فيكون التضمين شاملًا لتضمين الكلام قرآنًا أو حديثًا أو شعرًا أو نثرًا؛ ويكون الاقتباس تضمينًا للقرآن والحديث فقط.

قال علماء البيان: «أما الاقتباس فهو أن يُضَمَّنَ الكلامُ شيئًا من القرآن أو الحديث لا على أنه منه». فانظر هذا الكلام فهو يبين ذلك بيانًا شافيًا، وانظر قوله «لا على أنه منه» أي لا يُقصد بذلك التلاوة ولا الحديث ويُقصَدُ سياقُ كلامه، وهذا تصريح بالمقصود، وقد اجتمع على التصريح بالمقصود من ذلك أئمةُ الفتوى وأئمةُ الفصاحة، وسردوا الاستشهادَ على بابه نثرًا ونظمًا، فذكروا قولَ الحريري «فلم يكن إلا كلمح البصر أو أقرب».

وقوله: «أنا أنبئكم بتأويله، وأميز صحيح القول من عليله»، وقول ابن نباتة «فيأيها الْغَفَلَةُ المطرقون، أما أنتم بهذا الحديث مصدقون ما لكم لا تستفتون، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون». وذكروا على الباب شواهد كثيرة نظمًا ونثرًا. ومما أنشدوا عليه «خَلَّةُ الغانيات خَلَّةُ سوء.. البيتان»، ومما استشهدوا به على الاقتباس من لفظ الحديث قول الصاحب بن عباد:

قِيلَ لي إنَّ رَقِيبِي ... سَيِّئُ الخُلُقِ فَدَارِهْ
قُلْتُ دَعْنِي وَجهك الجَنَّةُ ... حُفَّتْ بِالمكَارِهْ

وهذا لا جائز أن يكون هو الحديث أصلًا، بل هو موافقة في ظاهر عبارته فقط، ثم قالوا: «ولا بأس بتغيير يسير لأجل الوزن أو غيره»، يعنُون في الكلام المقتبس، فقد نصوا على المعنى الآخر، وهو جواز تغيير اللفظ المنقول؛ لأنه لم يُقصد به قصدٌ للكلام الأول[1]، وأنشدوا عليه قول بعض المغاربة:

قَدْ كَانَ مَا خِفْتُ أَنْ يَكُونَا ... إِنَّا إِلَى اللهِ رَاجِعُونَا

---

(١) أي لم يقصد بالعبارة المقتبسة من القرآن أو الحديث داخل السياق المقتبَس فيه ما قصد بها في الأصل.

وأنشدوا عليه أيضًا قول القائل:

يُرِيـــدُ الجـــاهِلُون لِيُطْفِئُــوه وَيَـــأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّـــهْ

ويشهد له ما تقدم أيضًا، وأنشدوا على ذلك في الحديث قول القاضي منصور:

فَلَـو كَانَـت الأَخـلَاقُ تُحْـوَي ورِاثَـةً وَلَــو كَانَــت الْآرَاءُ لا تَتَـشَعَبُ

لَأَصْبَحَ كَلُّ النَّاسِ قَدْ ضَـمَّهُم هَـوَىَ كَـمَا أَنَّ كُـلَّ النَّـاسِ ضَـمَّهُمْ أَبُ

وَلَكِنَّهَـــا الأَقْـــدَارُ، كُـــلٌّ مُيَـــسَّرٌ لِمَـا هُــوَ مَخْلُــوقٌ لَــهُ وَمُقَــرَّبُ

وليس هذا هو الحديث ولكنه اقتبس شيئًا من لفظه.

وكذلك باب التضمين لا يقصد الشاعر فيه إلا أنه كلام نفسه كقوله:

كُنَّــا مَعًــا أَمْــسِ فِي بُــؤسٍ نُكَابِــدُهُ وَالْعَـينُ وَالْقَلْـبُ فِي حَـالَيِ قَـذَىً وَأَذَى

وَالْآنَ أَقْبَلَت الدُّنيَا عَلَيكَ بِمَا تَهْـوَى فَـــلا تَـــنْسَ أَنَّ[1] الْكِـــرَامَ إِذَا

ضمن كلامه بيت أبي تمام:

إِنَّ الْكِرَامَ إِذَا مَـا أَيْـسَرُوا ذَكَـرُوا مَنْ كَانَ يَـأْلَفُهُمْ فِي المَنْـزِلِ الخَـشِنِ

ولم يرد حكاية أبي تمام إنما أراد معنى قصده هو فاستعار ذلـك، وإنـما ذكـرت ذلك وإن كان أجنبيًا من المقصود ليعلم طريقة التضمين في فنون الكلام.

قالوا وأما عقد القرآن فيقول الشاعر:

أَنِلْنِـي بِالَّـذِي اسْتَقْرَضْـتَ خَطًّـا وَأَشْــهِدْ مَعْــشَرًا قَــدْ شَــاهَدُوه

فَـــإِنَّ اللهَ خَـــلَّاقُ الْبَرَايَـــا عَنَــتْ لِجَــلَالِ هَيْبَتِــهِ الْوُجُــوه

يَقُـــولُ إِذَا تَـــدَايَنْتُمْ بِـــدَيْنٍ إِلَى أَجَــلٍ مُــسَمًّى فَــاكْتُبُوه

---

(١) يجوز كسر همزة إن إذا كان الاقتباس يتضمنها، وتقدير الكلام: فلا تنسَ قول القائل: إن الكرام إذا. أما الاقتباس لقوله: «الكرام إذا» فقط فيجب فتحها.

فهذا ضربٌ من الأول وبيانٌ له.

وأما عقد الحديث فكما رُوي عن الإمام الشافعي ﷺ:

عُمْــدَةُ الخَــيرِ عِنْــدَنَا كَلِــمَاتٌ   أَرْبَــعٌ مِــنْ كَــلَامِ خَــيرِ الْبَرِيَّــةْ

اتَّــقِ الــشُّبْهَاتِ وَازْهَــدْ وَدَعْ   مَــا لَــيسَ يَعْنِيــكَ وَاعْمَلْــنَ بِنِيَّــةْ

فهذا الإمام على جلالته نظَّم معاني الأحاديث الأربعة، ومعلوم أنه لم يُرِدْ نَقْلَ الأحاديث، وإنما ضمَّنَ ذلك كلامه واقتبس محاسنَ الكلمات ورونَقَ عباراتها لمعانٍ أرادها وغيرها؛ لأنه لم يرد نقل متون تلك الأحاديث، وهذا بيِّنٌ في الباب، وإظهار لما قصد من ذلك، وكلامهم في ذلك واسع واستشهاداتهم على ذلك كثيرة.

والحل والتلميح هو ضرب من ذلك، وهي فنون رائعة ومعان مستحسنة، وغوصٌ في بحار الكلام؛ لاستطلاع دُرَرِهِ واستجلاء عرائسه، ومن رام إرخاء عنان جواد الفكر في ذلك فعليه بالكتب البيانية؛ فإنها نُزْهَةٌ للنواظر، ومرتعٌ خصيبٌ حَسَنٌ للخواطر.

وإنما ذكرنا هذه اللمحة في هذا الجواب لِيَلِجَ الخاطرُ في هذه المسألة ببيان حكمها، ويطَّلِعَ الذهن على برهان علمها، واستغرابًا لاستشكالها، وأن لا يكون من شدَّ طرفًا من فنون الآداب عالمًا بحالها، فهذا كما ترى أمر بين معلوم واضح للمتأملين، والمسألة ظاهرة جلية وشواهدها من السنة، وكلام السلف والخلف والعلماء والفصحاء كثير متسع جدًّا، والله تعالى المسدد الهادي وهو حسبنا ونعم الوكيل.

قوله: (وَسَخِّرْ لَنَا هَـذَا الْبَحْرَ كَمَا سَخَّرْتَ الْبَحْرَ لموسَى... إلى آخره)، أي:

سخِّرْ لنا هذا البحر بهدوئه ولين ريحه، وتيسير أمرنا فيه كما سخرت البحر لموسى ﷺ بانفلاقه وطواعيته وجوازه فيه.

قوله: (وَسَخَّرْتَ النَّارَ لإبْرَاهِيمَ... الخ)، يحتمل معنيين:

أحدهما: أن تسخر لنا هذا البحر كما سخرت هذه الأشياء لهؤلاء العباد المكرمين؛ فيكون ذلك تأكيدًا لتسخير هذا البحر خاصة، أي: بتلك القدرة العظيمة التي سخرت بها هذه الأشياء سخِّرْ لنا هذا البحر بها.

والمعنى الآخر: أن سخِّرْ لَنَا أيضًا هذه الأشياء المذكورة، فإنَّ لها قوام معاشنا، وصلاح دنيانا، على سبيل كرامة.

فإن قيل: كل شيء مسخر بالقدرة، فما سرُّ تخصيص هذه الأشياء؟

فاعلم أن إبداء القدرة تارة تكون بوجه لطف وكرامة وخرق عادة، وتارة تكون مع تقرير العادات وإجراء الحكمة مجراها وإعطاء الأسباب حقها، وهذا الصنف الثاني يكون لعموم الخلق، والأول لا يكون إلا للخواص من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والأولياء ﷺ، فالسؤال هنا لتخصيص أثر قدرة في خرق عادة وإبداء لطف وكرامة من غير سبب ظاهر، كما كان ذلك في هذه الأشياء، ألا ترى أن انفلاق البحر على تلك الصفة ليس من المعهود عادة، وكذلك عدم إحراق النار، وكذلك تسخير الريح وأمثال ذلك؛ لأن القدرة مقدسة؛ تارة تبدو آثارها بوصف كرامة ولطف وفضل عناية وتارة بوصف غضب وعدل وانتقام، وكلا القسمين تارة مع تقرير الأسباب ومقارنة وصف الحكمة وتارة مع خرق العادات وعزل الأسباب وإبداء صريح القدرة.

فإن قيل: هذا السؤال ربما يوهم أن يعطي كما أعطى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟

فاعلم - ثبتنا الله وإياك- أنه كثيرًا ما يؤتي على الإنسان من عدم تأمله، وغلبة سوء الظن عليه، فتأمل - رحمك الله- هذا الكلام؛ لأن السؤال متوجه أن يسخر له البحر بوصف القدرة التي سخرت بها الأشياء على جهة الكرامة واللطف، فطلب المشابهة في التسخير لا في المسخَّر له ولا في المسخَّر؛ لأن كاف التشبيه تارة تكون لتشبيه الفعل بالفعل، وتارة تكون للفاعل بالفاعل، وتارة تكون للمفعول بالمفعول وتارة تكون للمجموع، والصورة واحدة والفرق بالقرائن.

ومثال الأقسام الثلاثة كما تقول: «أكرمني كما أكرم زيد عمرو» فتشبيه الفعل بالفعل أن تقول «ليكن منك مطلقُ إكرامٍ لي كما أكرم هذا هذا، لكنني لا أطلب منك أن تكون كزيد ولا أن أكون أنا كعمرو، بل وَصِّلْ إليَّ إكرامًا». وتشبيه الفاعل بالفاعل أن يكون كزيد في صفة إكرامه؛ والمفعول بالمفعول أن يكون كعمرٍ في وصول الإكرام إليه.

وأصل ذلك أن الفعل الخاص حال صدوره عن الفاعل الخاص ووقوعه بالمفعول الخاص يختص بكيفية خاصة، ولا يلزم إذا صدر ذلك الفعل من ذلك الفاعل أو بذلك المفعول في وقت آخر أن يكون بتلك الصفة في كل من الثلاثة؛ فقد يقع الفعل الواحد بمفعولين، ولكل منهما صفةٌ حالةَ وقوعِه بهما فاشتركا في الفعل، وتباينا في الصفة.

إذا علم ذلك فلا يلزم إذن من صدور الفعل بكاف التشبيه أن يستوي في ذلك من قام من ذلك الفعل؛ فقد يكون ما بعدها أفضل مما قبلها، وقد يكون ما

قبلها أفضل مما بعدها، وقد يستويان؛ شأن الأول أن يقول عبد لسيده: «أعطني كما أعطيت ولدك»، أي: أعطني ما يصلح لي، أو ما هو مقدار عطائي كما أعطيت ولدك ما يصلح لك، فيكون قد طلب المشابهة في نفس العطاء لا في الشيء المعطى، إذ قد يكون عادة هذا السيد أن يعطي ولده مائة دينار وعبده عشرين دينارًا.

ومثال الثاني أن يقول الولد لوالده: «أعطني كما أعطيت عبدك»، ومثال الثالث أن يقول له: «أعطني كما أعطيت ولدك»، ومشاهدة الفرق في هذه المسألة تحتاج مزيد تأمل.

وعلى هذا البحث يتبين معنى المسألة التي تكلم فيها العلماء في معنى حديث الصلاة على النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – في قوله عليه السلام: «قولوا: اللهم صلِّ على محمد»[1] الحديث، إذ لا يلزم من ثبوت كاف التشبيه أن يكون ما بعدها أفضلَ مما قبلها لِما تبين آنفًا، وإنما يسري هذا في الوهم لغلبة تشبيه الشيء بما هو أشرف منه، وإنما ذلك في الذوات لا في الأفعال كقولك: «زيد كعمرو» ونحوه.

أما الأفعال فلا تقتضي ذلك بل يبقى التشبيه في مطلق الفعل؛ وفاعلو ذلك الفعل ومفعولوه[2] في المراتب يعلم من خارج اللفظ.

إذا علمت ذلك فليس السؤال إذن إلا لأن يسخر[3] هذه الأشياء على وجه

---

(١) متفق عليه: البخاري (٣/ ١٢٣٢، رقم ٣١٨٩)، ومسلم (١/ ٣٠٦، رقم ٤٠٥).

(٢) ب: ومفعول.

(٣) يجوز أن يكون الفعل مبنيًّا للمعلوم ويكون الفاعل ضمير مستتر تقديره هو، أي الله عز وجل،

الكرامة بأثر القدرة العظيمة، وأن يعطي السائل نصيب عناية من عنايتهم، لا أن تكون مرتبته في ذلك كمرتبتهم.

فإن قيل: أصل هذا الدعاء كان في البحر لمقارنة حاله فيه، فإذا كان الداعي بهذا الدعاء في غير بحر فما يقصد بهذا اللفظ؟

فيقال: يتوجه له في ذلك نيات منها: أن يقصد حالته التي هو فيها ويستعير لها لفظ «البحر» مجازًا، وذلك معنى ظاهر؛ إذ كل كائن في حالةٍ غارقٌ فيها، منتقلٌ بما يطلب من الله تعالى النجاة والتخليص الكائن في البحر إما في الدنيا وإما في الآخرة.

وصحة التجوز للفظ «البحر» بهذا اللفظ في الحالات معلوم من اللسان واللغة تقول: هو بحر من العلم، فلان متبحر في العلم، وفلان ماله بحر، ومثل البحر، وفلان في بحر عظيم، إذا كان في حالة مستغرق فيها، وعلاقة[1] المجاز في ذلك إما الاتساع أو الغرق، أو كلاهما.

وقد أشير إلى ذلك فيما بعد بقوله: (وَبَحْرِ الدُّنْيَا وَبَحْرِ الآخِرَةِ)، **ويمكن أن يقصد ما قصد الشيخ ﷺ على وجه التبرُّكِ ولن يَعْدِمَ خيرًا**، وأي بحر أعظم من الدنيا؟! وأي هلاك أعظم من هلاك فيها؟!، وأي فوز أعظم من الفوز فيها والعبد فيها سائح كادح، أو غريق هالكٌ، أو كائن في مركب التقوى، أو واصل إلى ساحل النجاة؛ فهي إذن باسم البحر أولى.

ويجوز أن يكون الفعل مبنيًّا للمجهول. وكذا في فعل «يعطي» بعده. وربما كان صواب لفظة «يسخر»: «تسخر» بالبناء للمجهول ويكون كذلك في الفعل المعطوف عليها.

(١) بالأصول: علامة، تصحيف.

وقد قال لقمان لابنه: «يَا بُنَيَّ، إِنَّ الدُّنْيَا بَحْرٌ عَمِيقٌ غَرِقَ فِيهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ فَلْتَكُنْ سَفِينَتُكَ فِيهَا الإِيمَانَ، وَلْيَكُنْ حَشْوُهَا التَّقْوَى، وَشِرَاعُهَا التَّوَكُّلَ، فَعَسَى أَنْ تَنْجُوَ، وَمَا أَظُنُّكَ بِنَاجٍ».

قوله: (وَهَبْ لَنَا رِيحًا طَيِّبَةً كَمَا هِيَ فِي عِلْمِكَ) ذلك من قوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ (يونس: ٢٢) فأتى بها في القرآن تبركًا.

قوله: (كَمَا هِيَ فِي عِلْمِكَ) لأن الحقائق العلمية خيرٌ محض، فإذا برزت إلى التكوين تنوعت بوصف الفضل والعدل؛ فتارة تكون بوصف رحمة، وتارة تكون بوصف انتقام، وتارة تبدو من خزائن الرحمة، وتارة تبدو من خزائن العذاب[1].

وقد جاء في الحديث من الدعاء عند هبوب الريح: «اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرِّها وشرِّ ما فيها وشرِّ ما أرسلت به»[2] فكأنما قيل: نسألك النوع الذي هو خير ورحمة، ونعوذ بك من النوع الذي هو شر وعذاب.

وكذلك قوله: (وَانْشُرْهَا عَلَيْنَا مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِكَ) أي: اجعلها من مدد رحمتك ودائرة فضلك.

---

(١) لو أفاض سيدي داود في هذا الموضع لربما كان لدينا تصورٌ آخر لنظرية الأعيان الثابتة التي عُرِفَ بها سيدي محيي الدين بن عربي ﷺ، لأن الظاهر هنا أن بين «الحقائق العلمية» وبين «الأعيان الثابتة» نوعًا من الترادف، لأن الحقائق العلمية يقصد بها في غير هذا الموضع الأعيان الثابتة في علم الله تعالى. وعند الإمام الرباني أحمد الفاروقي السرهندي، فالوجود أصل الخير وهو الوجود الإلهي، والعدم أصل الشر، فإفاضة الخير على الإنسان ملازمة لإفاضة المولى عز وجل الوجود عليه، وما في الإنسان من شر فهو من عدمه الأصلي الذي يرتفع بإيجاد الله تعالى إياه.

(٢) أخرجه مسلم (٨٩٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧١٧)، والنسائي (٦/ ٢٣٢، رقم ١٠٧٧٣)، والضياء (٣/ ٤٢٤، رقم ١٢٢٤)، وأبو يعلي (٤٠١٢).

قوله: (وَاحْلِلْنَا بِهَا مَحَلَّ الْكَرَامَةِ) أي: بنوع خرق عادة وصحبة لطف، كما فعلت ذلك مع أولئك المكرمين.

قوله: (مَعَ السَّلَامَةِ وَالْعَافِيَةِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) دعاء جامع للخيرات؛ جمع العافية في الحال، والسلامة في المال، والسلامة في الآخرة، والعافية في الدنيا، والسلامة في القلوب، والعافية في الأبدان.

قوله: (فِي الدِّينِ) الدين لفظ جامع لأعمال الطاعات وأفعال البِرِّ كلها، وللأحوال والأخلاق والمقامات، وما يُتقربُ به إلى الله تعالى وإلى جنته.

(والدنيا) المحمودة ما تعين على ذلك من غير عاجل والمذمومة ما تعوق عن ذلك.

(والآخرة) ما فيه جزاء ذلك وآثارُه المرتبةُ عليه من ارتفاع درجات ونعيم مقيم.

وأتى الشيخ ﷺ بهذا الدعاء في هذا المعرض؛ لأن أرباب القلوب يغتنمون حضور قلوبهم ومحال اضطرارهم فيسألون الله تعالى جوامع خيرات فيها لأنها محل إجابة، والنفوس إذا طلبت المطالب العاجلة طلبتها بصدق لأنها مقصورة النظر عليها، فيغتنم الصادقون إذ ذاك صدقَ نفوسهم في المطالب الدنيوية فيطلبون لهم المطالب الأخروية، فعسى أن تعم الإجابةُ مجموعَ المسائل ببركات الصدق وحصول الاضطرار، ولهذا يقال: «الفاقات أعياد المريدين»[1]، وهذا نوع

---

(١) مأخوذ من قول شيخ المؤلف السيد العارف ابن عطاء الله السكندري في الحكم: «ورود الفاقات أعياد المريدين».

من مفهوماته، ولهذا قال مريدٌ لبعض المشايخ: «علِّمْني الاسمَ الأعظمَ»، فقال له: «يا بني، أتعرف قلبك؟» قال: «نعم». قال: «إذا حضر قلبك فَـاذْعُ؛ فـذاك الاسـم الأعظم».

هذا، وإن كان مقام الشيخ ﷺ في الحضور والمشاهدة على ما وصَّلَه الله إليـه؛ لكنه ربما شرَّع الرجالُ أربابُ الكمال أحوالَ البدايات للمقتدي، وتنزلـوا لأوائـل الأحوال؛ تسليكًا للمريدين، وربما اتصف العارفُ الكبيرُ بـأحوال البدايـة لكـمال حاله، ولشرف مآله(1).

وأيضًا فإن النفـوس لهـا أوصـاف ومراعـاة ولـو كانـت لأربـاب التهـذيب والمجاهدات، فإذا كان في الطاعات والدعوات والمناجاة والنفوس طائعة مطمئنـة موافقة خيرًا منها وهي مقهورة مجبورة كارهة، واتفاق عوالم العبـد في طاعتـه خـير من استجابة قلبه وروحه ومخالفة نفسه وطبعه، ففي حال المطالـب الدينيـة المُعِينَـةِ على النفس تستجيب عوالم العبد، فيرجىٰ له إذ ذاك حصولُ الاستجابة.

قوله: (اللهُمَّ يَسِّرْ لَنَا أُمُورَنَا.. الخ) هذا من محاسن الدعاء.

---

(1) وفي هذا المعنى من مقام النفس الكاملة، نقـل شـيخنا الـدكتور جـودة المهـدي ﷺ عـن الإمـام الرباني سيدي أحمد الفاروقي ما يفهم منه أن من كـمالات المرشـد الكامـل ظهـور إرادة تـرك الأولى، والأخذ بالرخص في بعض الأحيان تنزلًا للمريدين كي يسهل عليهم الاقتداء بـه، وهـذا يعلـم مـن حال حضرة النبي ﷺ. نعم قد يقال: إن إفطاره في الصيام المندوب لدى السفر وبوله قائمًا مما هو من قبيل الرخص إنما فعله ﷺ على سبيل التشريع لا على سبيل أن هذا فعلـه في حـق نفـسـه لأن الأنبيـاء منزهون عن ارتكاب خلاف الأولى كما بينه الأثبات من علماء العقيدة ونص عليه المؤلف كـما سيلي. والجواب أن تزكية النفوس من جملة ما يناط بالنبوة كما عليه النص في كتاب الله تعـالى، ومـن التزكيـة التنزل والترخص تيـسيرًا للاقتـداء، كـما جـاء في الحـديث عنـه ﷺ: «مـا خـير في أمـرين إلا اختـار أيسرهما». انظر النفحات الجودية: ١١٠-١١٢، نقلاً عن مكتوبات الإمام الرباني: ١/ ٢٥١.

قوله: (مَعَ الرَّاحَةِ لِقُلُوبِنَا وَأَبْدَانِنَا) أي: اجْمَعْ لنا تيسيرَ الأمور كلها مع راحة القلوب والأبدان كما تفعل ذلك بأهل عنايتك؛ لأنه ربما جرى التيسير مع وجود مشقة، إما على القلب أو البدن.

قوله: (وَالسَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ فِي دُنْيَانَا وَدِينِنَا) أي: اجعلْ الراحة في الحال مع وجود السلامة والعافية في المآل(١)، إذْ ربما تكون راحة يُخشىٰ عاقبتُها إذ الناس أنواع: مستريح في الدنيا متعب في الآخرة، ومتعب في الدنيا مستريح في الآخرة، ومستريح فيهما، ومتعب فيهما، فكأنما يسأل الراحة في الدنيا والآخرة، وتلك درجة العناية.

قوله: (وَكُنْ لَنَا صَاحِبًا فِي سَفَرِنَا، وَخَلِيفَةً فِي أَهْلِنَا) من الدعاء المأثور، جاء عن رسول الله ﷺ في دعاء السفر أنه: «يكثر ثلاثًا...» الدعاء إلى آخره ويقول فيه: «اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل»(٢).

قوله: (وَاطْمِسْ عَلَى وُجُوهِ أَعْدَائِنَا) مأخوذٌ من معنى القرآن(٣)، والطمس: أن لا يروا سبيلهم إليه، ويصرف عنه كيدهم، وذكر الوجوه ها هنا لأن وجه الرجل يطلق على ما يتوجه إليه ويقصده؛ تقول: اذهب إلى وجهك، أي: إلى ما تقصده من الأمر.

قوله: (وَامْسَخْهُم عَلَى مَكَانَتِهِمْ) أي: ثَبِّطْهُم والزمهم حالهم حتى لا

---

(١) هكذا في الأصول.

(٢) سبق تخريجه، وهو حديث صحيح.

(٣) أي من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ (يس: ٦٦).

يستطيعوا ذهابًا عنها، كالذي يدْهَمُهُ أمر عظيم فيصرفُه عمَّا كان يقصده، كأنما قيل: حوِّل صفتَهم، وضَلِّل سعيَهم، وبدِّل قلوبهم إلى صفة أخرى غير التي بها يقصدون الأذى.

وقولهم: «مُسِخَ على مكانته» من محاسن الألفاظ وجوامعِها لا يكاد يأتي في محلها غيرها ولا يعبر عن معناها سواها، فكأن الطمس: أن لا يرى السبيل إليك[1]، والمسخ: تحويل الصفة التي أقبل بالأذى بها عليك.

ثم ذَكَرَ لفظَ القرآن لوجود تأثيره[2] وحصول بركته ليجمع بينه وبين الدعاء، والقرآن عام والدعاء خاص، والقرآن خبر والدعاء طلب، والقرآن فيه تعليق هذا الأمر بالإشادة[3] والتمدح بالاقتدار على فعل ذلك إذا شاء والدعاء طلب حصول ما هو مقدور.

والتلاوة من قوله تعالى: ﴿يسٓ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ هذا القدر المتلو ونحوه سُنَّةٌ ومأثورٌ من قوله ﷺ؛ جاء في الحديث: «إن قريشًا لما تواعدوا على أمر النبي ﷺ وأرادوا اغتياله وجاءوا إلى باب منزله وجلسوا ينتظرون ما يفعلون، خرج ﷺ وهو يتلو هذه الآيات وذرَّ التراب على رؤوسهم وهم لا يشعرون به، ثم ذهب وتركهم، فجلسوا بعد ذلك ينتظرونه، ثم قال بعضهم لبعض: لقد خرج عليكم وأنتم لا تنظرون، وذرَّ التراب على رؤوسكم. فقاموا وانصرفوا مخذولين مخزيين خائبين ينفضون التراب عن رؤوسهم، وذهب هو ﷺ محفوظًا مؤيدًا

---

(١) ب: إليه.

(٢) ب: تأثيره.

(٣) ب: الإساءة.

منصورًا، فناهيك بذكر هذه الآيات بركة وحفظًا واستئناسًا وتبعًا، وما طواه الله تعالى فيها من الخصائص والحفظ والستر عن عيون القاصدين بالأذى، إلى غير ذلك.

قوله: (شَاهَت الْوُجُوه) هو من قول الرسول ﷺ يوم بدر؛ فقال أهل التفسير لما ورد النبي ﷺ بدرًا قال: «هذه مصارع القوم إن شاء الله» فلما اطلعوا عليه قال: «هذه قريش قد جاءت بخيلائها يكذبون رسولك، اللهم إني أسألك ما وعدتني» فأتاه جبريل عليه السلام وقال: «خذ قبضة من تراب فارمهم بها». فقال النبي ﷺ لما التقى الجمعان لعلي رضي الله عنه: «أعطني قبضة من حصباء الوادي»[1]، فناوله كفًّا من حصباء عليه ترابه فرمى النبي ﷺ به في وجه القوم وقال: «وَشَاهَت الْوُجُوهُ» فلم يبق مشركٌ إلا دخل في عينيه ووجهه ومنخريه وفِيهِ منه شيءٌ، ثم ردفهم المسلمون يقتلونهم ويأسرونهم، وكانت تلك الرمية سببًا للهزيمة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ (الأنفال: ١٧).

كذلك يوم حنين لما انكفأ المسلمون كما أخبر الله تعالى وهو ﷺ ثابت يحمل

---

(١) أخرجه الحاكم (٢٠٤٩) والطبراني في «الكبير» (١١٧٥٠) قال الهيثمي (٩٩٩٩): «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح». اهـ. وهذه المناولة من سيدنا علي كرم الله وجهه في غزوة بدر كما هو ظاهر، أما في غزوة حنين فروى الإمام أحمد – بإسناد ضعيف – (٤٣٣٦ – ط. الرسالة) أن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ناول ﷺ كفًّا من تراب، والذي في صحيح مسلم في غزوة حنين أن النبي ﷺ: «قبض قبضة من تراب من الأرض ثم استقبل به وجوههم فقال: «شاهت الوجوه» فما خلق الله منهم إنسانًا إلا ملأ عينيه ترابًا بتلك القبضة فَوَلَّوا مدبرين، فهزمهم الله عز وجل...» وقيل في الجمع بينهما: إنه يحتمل أنه رمى بذا مرة، وبالأخرى أخرى، ويحتمل أن يكون أخذ قبضة واحدة مخلوطة من حصى وتراب، وذلك لأنه ليس فيه في تناوله بلا واسطة، فيمكن أنه ناوله ابن مسعود، فتناول بواسطته، والله تعالى أعلم.

على المشركين بنفسه على بغلته البيضاء، ثم أخذ قبضة من حصباء فرمى بها في وجه المشركين، وقال: «شَاهَت الْوُجُوهُ» فلم يبق أحدٌ من المشركين إلا وقد وقع في وجهه منها شيءٌ، وكان ذلك سبب هزيمتهم فهزمهم الله تعالى أجمعين، ونصر عباده المؤمنين، وهذا من معجزاته ﷺ وبراهين آياته وعظيم شجاعته وقوته وثباته.

وقد روى البخاري ﷺ في صحيحه الحديث.

ومعنى «شاهت الوجوه»، كأنه قيل: صُرِفت وخُيِّبت وزال النصر عنها، وقُبِّحَتْ بالخذلان ونحوه، وأصل الشَّوَه: القبح، وإصابة العين.

وفي «الصحاح» للجوهري: شاهت الوجوه، تَشُوهُ شَوهًا: قَبُحَت، وشَوَّهَهُ الله تَعَالَى فهو مُشَوَّهٌ، ورَجُلٌ أَشْوَهُ بيِّن الشَّوَهِ إذا كان سريع الإصابة بالعين[1].

قوله: (﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ (طه: ١١١)) من القرآن، ومعنى (عَنَت الوجوهُ) أي: أُسِرَتْ وانقَادَت وخضعت لله تعالى. ومنه الحديث: «اتقوا الله في النساء فإنهن عوان عندكم»[2] ورجل عان: أسير.

قوله: (﴿حمٓ﴾ إلى قوله ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ (غافر: ٣)) كررت الحواميم؛ تبركًا بفواتح هذه السور وأسرار السور في مفاتيحها مع ما فيها من شرف الحاء

---

(١) انظر: «الصحاح في اللغة» (شَوَهَ).

(٢) حديث حسن، وهو قطعة من حديث جابر ﷺ أخرجه بلفظه الترمذي (١١٦٣)، والنسائي في الكبرى (٤١٠٠)، وابن ماجه (٣٠٥٥)، وأحمد (٢٠٦٩٥- ط. الرسالة) بإسناد ضعيف. قال الهيثمي (٣/ ٢٦٦): «رواه أحمد وأبو حرة الرقاشي وثقه أبو داود وضعفه ابن معين، وفيه علي بن زيد وفيه كلام».اهـ.

والميم، وهما حرفان جليلان، وقد اجتمعا في اسم النبي ﷺ، وفيها معنى من قرب الإجابة وعدد السبعة أيضًا فيه مناسبة عظمى. وجاء في الشرع فيه آثار[1].

وقوله: (حمّ الأمرُ) أي: قَرُبَ، والحميمُ: القريب، وكأنه قربٌ مع رحمة، ومنه قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٤) ونحوه (فَعَلَيْنَا لَا يُنْصَرُونَ)، مأثور: جاء أنه لما كان يوم الخندق، وأدرك المؤمنين ما أدركهم من إحاطة العدو بهم فقالوا: «يا رسول الله، هل من شيء نقوله؟» فقال: «قولوا: «حم لا ينصرون»».

قوله: (﴿حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ (غافر: ١-٢) إلى قوله ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ (غافر: ٣))، جاء فيها أثرٌ أن من قالها كل يوم كان له خير كثير[2].

قوله: (بِسْمِ الله بَابُنَا).

اعلم أن الله تعالى شرع للعبد أنَّ كل شيء ابْتُدِئَ به أن يذكر اسم الله تعالى عنده إشعارًا للعبد أن كلَ شيء كائنٌ بسم الله تعالى، فيعلمُ ذلك فيقوَىٰ إيمانُه ويتأكد؛ أيضًا أنه إذا ذَكر اللهَ تعالىٰ في شيء بورك له في ذلك الشيء كما بين ذلك في الحديث فيبقى القليل والضار نافعًا ببركات اسمه تعالى.

كما جاء عن موسى ﷺ أنه اعتلَّ فقيل له: «اذهب إلى غار كذا ففيه نبات فيه

---

(١) منها ما رواه أبو داود في سننه (٥٠٨٣): «من قال إذا أصبح وإذا أمسى: حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات كفاه الله ما أهمه صادقا كان بها أو كاذبا». قال المنذري: رواه أبو داود هكذا موقوفًا، ورفعه ابن السني وغيره، وقد يقال: إن مثل هذا لا يقال من قبل الرأي والاجتهاد فسبيله سبيل المرفوع.

(٢) تقدم تخريجه.

شفاؤك». فذهب فاستعمله فشفاه الله تعالى، ثم اعتلّ بمثل تلك العلة بعد وقت فذهب فاستعمل ذلك النبات فلم يُشْفَ، فقال: «يا رب، العلة واحدة والنبات واحد، فما هذا؟» فقيل له: «لأنك في المرة الأولى ذهبت بأمرنا إليه فشفيناك، وفي هذه المرة ذهبت بنفسك فلم تشف، ألم تعلم يا موسى أن الدنيا وما فيها سُمٌّ قاتل، وإنما يصلحها اسم الله عليها». وهذا من تأديبه تعالى لأنبيائه عليهم السلام حتى لا يتعلقوا بشيء سواه، وليكونوا للعباد قدوة.

إذا علمت ذلك فلا شيء يُفتح بابُه إلا باسم الله تعالى في الحقيقة؛ فإذا ذكره المؤمن بُورك له؛ لقيامه بعبوديته، فحقيقٌ على العبد أن لا يفعل شيئًا ولا يفتح باب شيء حتى يذكر اسم مولاه عليه؛ ليقوى إيمانه، وليقارن أفعاله ببركات اسم الله تعالى عليه.

واعلم أنه ما من شيء يخرج من العدم إلى الوجود إلا ببركات اسم الله تعالى وبقدرته، حركةً كانت أو سكنةً، نظرةً كانت أو خطرةً، في السماء والأرض، فعلًا كان أو ذاتًا؛ فالغيب مغلق على الأشياء حتى يفتح بابه بقدرة الله تعالى وعظم تدبيره وإشارته كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ (الأنعام: ٥٩) فَأَعْلَمَكَ تعالى أن مفاتح الغيب عنده يفتح بها أبواب غيبه، فيخرج ما شاء من العدم إلى الوجود.

وقد سمّى نفسه تعالى «الفتاح العليم» فجدير أن يقول العبد: (بِسْم الله بَابُنَا) أي: باسم الله تعالى نستفتح كلَّ شيء من حركاتنا وسكناتنا، وأفعالنا وإرادتنا، وما يفتح علينا من أمر ظاهر وباطن يكون ذلك مقرونًا باسم الله تعالى كائنًا به.

فإن استغرب عليك لفظ (الباب) هاهنا، واستنكرت إطلاقه فما ذاك إلا

لاستئناس الطباع بمعهود الاستعمال لاستمرار العادة المخرجة للطباع عن معهود كلام العرب وبديع خطابها ومجازها واستعاراتها ولطيف محاوراتها، وأصلِ اشتقاق الألفاظ وانتقالها من معنى إلى معنى، وغلبتِها على معنى ما، واستئناسِ الطباع بالألفاظ العادية عرفاً حتى خَفِيَ أصلُ الاشتقاق، فصار يسبق إلى ذهن العموم أن الباب لا يكون إلا خشبًا، وأن الحائط لا يكون إلا من لَبِن ونحوه، وذلك نسيان أصل الاشتقاق ودخول العجمة في ألسنة العموم، فبعدوا عن معهود قواعد لسان العرب.

فكثير من ألفاظ العرب المذكورة في الشرع في العبادات والدعوات وغيرها إنما يذكرها العموم[1] لمجرد لفظها من غير شهود لأصل معناها، إلا من اشتغل بعلم ذلك وحرَص عليه وتدرب عليه، وبعد هذا تغلب على طبعه العجمة حتى يذهل عن شهود معناها إلا بعد معالجة وتذكُّر، بخلاف سجايا العرب العالمين بذلك كما قيل: «ليس التكحل في العينين كالكحل[2]».

فأصل الباب مثلًا أن كل شيء يُدخل منه إلى آخر ويبدو ما لم يكن قبل وجوده ذاتًا كان أو صفة كثيفًا كان أو لطيفًا يسمى بابًا، وهذا معلوم من أهل الاشتقاق، حتى في ألسنة العوام، يقولون: «لا تفتح لي باب هذا الأمر، وفتح لي فلان باب كلام»، ولقول القائل: «بل فتح لي باب خير، وباب علم، وباب سفر»، وهذا كثير جدًّا استعماله.

---

(١) أي عموم الناس.

(٢) البيت للمتنبي:

لأنَّ حلمكَ حلمٌ لا تكلفه ... ليس التكحل في العينين كالكحل

وقد نقل صاحب «الرسالة» عن الإمام الأستاذ إبراهيم بن أدهم ﷺ أنه قال له رجل في الطواف: اعلم أنك لا تنال درجة الصالحين حتى تجوز ستَّ عقباتٍ؛ أولًا: تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدة، والثاني: تغلق باب العز وتفتح باب الذل، والثالث: تغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد، والرابع: تغلق باب النوم وتفتح باب السهر، والخامس: تغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر، والسادس: تغلق باب الأمل وتفتح باب الاستعداد للموت.

حتى في باب «الرؤيا» إذا رأى بابًا مفتوحًا دلَّ على انفتاح أمر له، ولا يريدون الباب المشهور عُرْفًا عادة، واستعمال هذا الباب على مدلوله العادي نوع من مفردات هذه الحقيقة، وهذا أيضًا معلوم استعماله عن أصل اللغة كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ كان يقول إذا دخل المسجد: «اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج قال: افتح لي أبواب فضلك»[1].

وقد تقدم قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ (الأنعام: ٥٩). والمفتاح من الألفاظ الإضافية، إذا ذكر يستلزم بابًا يفتح به، وهذا ظاهر أيضًا في العقل والنظر: أنَّ كل حركة لم تكن ثم كانت فكأنها كانت مغلقة ثم فتحت، فلا جَرَمَ يسمى ما بين ذلك بابًا. لكن النظر الآن: هل استعمال هذه اللفظة في الباب الحسي حقيقةٌ، وفي المعنوي مجازٌ والعكس، أو فيهما حقيقة؟

أما ثبوت الاستعمال فيهما فلا إشكال فيه، فيحتمل أن يكون في مطلق

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٤٩٤، رقم ٧١٣)، وابن ماجه (١/ ٢٥٤، رقم ٧٧٢)، وأبو داود (١/ ١٢٦، رقم ٤٦٥)، والنسائي (٢/ ٥٣، رقم ٧٢٩) وغيرهم بلفظ: «إذا دخل أحدُكم المسجدَ فليسلمْ على النبيِّ وليقل...» الحديث فذكره.

«الباب»: حقيقةً لغوية، مجازًا[1] عرفيًا عامًا، وفي «الباب» الحسي: مجازًا لغويًا قُصِر على بعض حقائقه حقيقةٌ عرفية عامة؛ كالدابة لمطلق ما دبَّ حقيقة لغوية، وفي الحمار مجاز قَصْر حقيقة عرفية عامة.

ويحتمل أيضًا أن يكون «الباب» من أسماء الأجناس كأسد وثوب ودار، ويكون استعماله في «الباب» المعنوي مجازًا لغويًا كاستعمال الأسد في الرجل الشجاع، وهو أيضًا مجاز ظاهر مسموع وعلاقته بينة قريبة؛ وهو اشتراكهما في الدخول من أمر إلى أمر، كاشتراك الرجل والأسد؛ فهو مطلق الشجاعة، لكن الأقرب في لفظ «الباب» في المعنيين أن يكون حقيقة فيهما؛ للمعنوي لغوية وللحسي عرفية عامة لاشتراكهما في علة الاشتقاق.

وبكل تقدير استعمال «الباب» في المعنيين جميعًا ليس فيه نكير.

قوله: (بِسْم الله بَابُنَا) ليس فيه جعل الاسم عين الباب بل هو مبتدأ، والجار والمجرور في موضع خبره، وتقديره: بابنا كائن باسم الله تعالى، أي كل شيء يُستفتح لا يكون إلا باسم الله تعالى ومقرونًا ببركة اسمه، وقد قال تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ (هود: ٤١)، وليس فيه جعل الاسم نفسَ المجرى والمرسى، وإنما هو بسم الله تجري وترسي، أي: بقدرته وتصريفه.

كذلك هاهنا قوله: («تَبَارَكَ» حِيطَانُنَا) الكلام فيه كما تقدم؛ لكن هذا أقرب إلى وجود الاشتقاق، لأن «حيطان» جمع حائط، و«حائط» اسم فاعل من حاط بالشيء يحوط به فهو حائط، فكأنه قال: («تَبَارَكَ» تحيط بنا)، و«تَبَارَكَ» فعلٌ ماض

---

(١) كذا على النصب باعتبارها بدلًا من كلمة «حقيقة» وهي خبر «يكون»، على تقدير اسم «يكون» المتقدمة ضميرًا مستترًا تقديره: «هو»، والضمير المستتر يعود على الاستعمال، والله أعلم.

مأخوذ من الثبوت والدوام، ثم استعمل في البركة التي هي حصول الخير والنِعم من الله تعالى، فكأنه قال: «البركة محيطة بنا»، وذَكَرَ اللفظَ المذكورَ في القرآن تبركًا به، ولأنه ينبوع كل بركة وخير، ويحتمل أن تكون اسم السورة»[1].

وقد ثبت في الحديث عنه ﷺ: أن «تبارك» السورة المنجية تنجي صاحبها من عذاب القبر وتجادل عنه في قبره[2]؛ فلا جرم يقول العبد: «نورُ «تبارك» محيطٌ بنا»؛ ليعتني الله به في الدنيا والآخرة من كل سوء.

واعلم أن كل سورة في القرآن -لاسيما السور المفضلة كالبقرة وآل عمران ويس والسجدة وتبارك وغيرها- لها أنوار وحقائق يشاهدها أولياء الله تحيط بركاتها وأنوارها وأسرارها بالمؤمنين، ولكل سورة خصوصية اختصها الله بها،

---

(١) وهو أظهر مما قبله، وربما أراد لفظ «تبارك» وحده. ولكن كونه أراد اسم السورة نفسها ليكون لفظ «تبارك» عائداً عليها كلها أوضح في الدلالة.

(٢) أشار المصنف ﷺ لحديثين: الأول -وهو حديث حسن- أخرجه الطبراني في الأوسط (٤/ ٧٦، رقم ٣٦٥٤)، والضياء (٥/ ١١٤، رقم ١٧٣٨) وقال: «إسناده حسن»، وأخرجه أيضًا: الطبراني في الصغير (١/ ٢٩٦، رقم ٤٩٠) قال الهيثمي (٧/ ١٢٧): «رجاله رجال الصحيح» ولفظه: «سورة من القرآن ما هي إلا ثلاثون آية خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة وهي تبارك». والثاني: أخرجه الحاكم (٢٠٧٥) وصححه ووافقه الذهبي، وأبو الشيخ في «طبقات الأصبهانيين» (٢٦٤) ولفظه: «سورة تبارك هي المانعة من عذاب القبر»، يشهد له حديث ابن عباس قال: «ضرب بعض أصحاب النبي ﷺ خباءه على قبر و هو لا يحسب أنه قبر، فإذا فيه إنسان يقرأ سورة ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ (الملك: ١) حتى ختمها، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني ضربت خبائي على قبر و أنا لا أحسب أنه قبر فإذا فيه إنسان يقرأ سورة «تبارك الملك» حتى ختمها، فقال رسول الله ﷺ: «هي المانعة، هي المنجية؛ تنجيه من عذاب القبر». أخرجه الترمذي (٢/ ١٤٦) وابن نصر (٦٦) و أبو نعيم في الحلية (٣/ ٨١).

وآثارًا[1] من حفظ وبركة، وربما يأتي العبدَ عذابٌ من فوقه فيكون نورُ «يس» وقايةً له من فوقه، وربما أحاط به فيكون نورُ «تبارك» مانعًا له، وربما قصده عبد بسوء وضرر فكفاه الله تعالى بـ﴿كهيعص﴾ وحماه بـ﴿حم ① عسق﴾ وقد أَعْلَمَ اللهُ تعالى أن العذاب مواجه للعباد من فوقهم ومن تحت أرجلهم لولا رحمته[2]، والقرآن رحمة كما قال تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ (الأعراف: ٥٢).

وقد قال ﷺ: «إن البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة...» الحديث[3] كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ (الأنعام: ٦٥).

وقد ثبت في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ كان يقول: «اللهم اجعل في قلبي نورًا...»[4] الحديث. وقد سمّىٰ الله تعالى النبي ﷺ نورًا - في أحد الوجوه - في

---

(١) هكذا وردت بالنصب في الأصول مع أن الرفع فيها أظهر، إلا أن يقال إن قوله: «ولكل سورة» معطوف على قوله «كل سورة» الواردة في أول الفقرة وهي منصوبة.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ

(٣) جزء من معنى حديث أخرجه مسلم (٨٠٤)، وأحمد (٢٢٢٠٠)، وابن الضريس في «فضائل القرآن» (٩٨)، وابن حبان (١١٦)، والطبراني (٧٥٤٢) كلهم بلفظ: «اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه، اقرؤوا الزَّهْرَاوَيْنِ: «البقرة» و«آل عمران»؛ فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غَمَامَتَانِ، أو غَيَايَتان، أو كأنهما فِرْقَانِ من طير صوافٍّ يحاجَّان عن أصحابهما، اقرؤوا سورة البقرة فإنَّ أَخْذَهَا بركة وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ ولا يستطيعُهَا الْبَطَلَةُ». ونشير إلى أن هناك الكثير من الأحاديث الضعيفة والموضوعة في فضائل السور، منها - على سبيل المثال -: «من قرأ السورة التي يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة، صلى الله عليه و ملائكته حتى تجب الشمس»، وهو موضوع، وقد ذكرها النقاد في كتب الموضوعات.

(٤) جزء من حديث متفق عليه: البخاري (٥٩٥٧)، ومسلم (٧٦٣)، وهو من أدعية الذهاب

قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ (المائدة: ١٥) الآية.

وإن كانت الاسمية لا تصح في (يس) كما ذكر بعض المفسرين- أنَّ (يس) اسم من أسمائه ﷺ - بإجماع القراء السبعة على قراءتها ساكنة على أنها حروفُ هجاء محكية، ولو سميَ ﷺ بها لأعربت[1] غير مصروفة كـ«هابيل» و«قابيل»، ومثلها ﴿طسٓ﴾ و﴿حمٓ﴾ كما قال الشاعر لما سُمِّيَ بها السورة:

فَهَلَّا تَلا حاميمَ قَبْلَ التَّكَلُّمِ[2]

فدل على أنها حروف حال التلاوة، ويحتمل أن يكون الشيخ ﷺ أراد بـ ﴿يسٓ﴾ حروف هجاء غيرَ قاصدِ التلاوة، وقد وقع في دعائه ذكر حروف هجاء كقوله: (ق، ج، بِرَّان مِنْ أَسْرَارِكَ)، و(ن، ص) ونحوه، وهذا من معرفة خصائص الحروف وعلمِها المختص به الأولياء ﷺ.

فإن قيل: فهلَّا عدل عن هذه التلاوة لئلا يسبق إلى ذهن عامي ما يسبق على طبعه، وهو لا يعلم ما أشرتم إليه إلا بعد تدريب وتعليم؟

قيل: هذا لا يلزم، ولا يراعى الجاهل في مثل هذا، فإن الله تعالى أوجب عليه أن يعلم أو يسأل عمَّا أشكل عليه من أمر دينه من الواجبات أو يندب إلى العلم أو

للصلاة ومن أدعية السجود.

(١) بالمخطوط: وسميت بها لأعربت، وقد أثبتنا صيغة الصلاة على النبي ﷺ إزالة للبس العبارة.

(٢) المشهور في كتب التفسير لفظ «التقدم» بدل «التكلم». وجاء في تفسير القرطبي ﷺ: «وقيل: حروف هجاء؛ قال الجرمي: ولهذا تقرأ ساكنة الحروف فخرجت مخرج التهجي وإذا سميت سورة بشيء من هذه الحروف أعربت؛ فتقول: قرأت ﴿حمٓ﴾ فتنصب.» ثم أورد البيت المستشهد به.

السؤال في المندوبات، فإن ترك فقد ضيع، فكثير من العوام لا يعرف معنى التلاوة التي يتلوها، ولا الأقوال ولا الدعوات المشروعات التي تتكرر في صلاته وصيامه وحجه بل يقول ذلك لمجرد اللفظ، وهي مشتملة على المجاز والاستعارة والمعنى القريب الذي يثبته فيه بعض عقول العلماء الراسخين وأهل الفطن المحققين.

نعم، إنما يُراعى العوام أن لا يبدأ لهم علم غريب لا تصل إليه عقولهم فيكون عليهم فتنة من تدقيق علم الكلام وإيراد الشُّبَه فيه، والخوض في أحاديث الصفات، وعلم الكشف، وما لا ينفعهم أيضًا من ذكر القصص ونحوها؛ أما ما كشفه العلم المعهود وعُلِمَ من لسان العرب من غريب لغة واستعمال مجاز واستعارة ومراعاة معنى غريب فلا يُراعىٰ العوامُ في مثل هذا.

قوله: (وَعَيْنُ الله نَاظِرَةٌ إِلَيْنَا) هاتان الصفتان اللتان هما العين والنظر ثابتتان[1] لله تعالى بالكتاب والسنة وأقوال الأمة، أما القرآن العظيم ففيه مواضِعُ: منها قوله تعالى: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ (طه: ٣٩) وقوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (الطور: ٤٨) وقوله تعالى: ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ (القمر: ١٤) في أحد الوجوه وقوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ (البقرة: ١٤٤) ﴿ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾ (التوبة: ١٠٥) ﴿ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ (طه: ٤٦) ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (الحجرات: ١٨) ﴿ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٨ – ٢١٩) ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ (العلق: ١٤) وقوله ﷺ في حديث جبريل ﷺ الحديث الصحيح المشهور: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[2] وذلك كثير في الكتاب والسنة.

---

(١) في الأصول: (ثابتة)، والمثبت لمراعاة المثنى.

(٢) متفق عليه: البخاري (١/ ٢٧، رقم ٥٠)، ومسلم (١/ ٣٩، رقم ٩).

وأما أقوال العلماء وعلماء الأمة قاطبة من أهل السنة وغيرهم في إثبات السمع والبصر لله تعالى، وإن اختلفوا في معنى ذلك: فقوم يفوضون[1]، وقوم يؤولون، وقوم يثبتون ذلك صفة زائدة على العلم[2]، وقوم يردونها إلى صفة العلم.

والمنصوص عن الشيخ أبي الحسن الأشعري ﷺ أنه تعالى سميع بصير يبصر، وهما صفتان قائمتان بذاته تعالى زائدتان على كونه عالمًا.

فإن قال قائل: سلمنا ثبوت ذلك، ولكن قال بعض العلماء: «ما جاء من ذلك لا يتغير عن تركيبه الذي يَرِدُ به»[3].

قلنا: سلمنا ذلك في تركيب آخر تغير المعنى بسببه؛ أما تركيبٌ هو عين ما جاء منصوصًا فلا، ألا ترى أن من قال ذلك إنما فرَّ من تغيير المعنى؛ لأن لله تعالى سرًا في خصائص الكلمات بعضها مع بعض، فإذا عبر عن ذلك بعبارة أخرى لم يكن.

---

(١) ب: ينفون، وهو تصحيف بدليل قوله قبله: «وأما أقوال العلماء وعلماء الأمة قاطبة من أهل السنة وغيرهم في إثبات السمع والبصر...». وفي أ: يقفون، وهو أقرب للصواب كما أنه قريب مما أثبتناه. وما أثبتناه هو الصحيح بإذن الله، فالتفويض والتأويل والإثبات هي المذاهب الثلاثة المعروفة في فهم الصفات.

(٢) وهو مذهب أهل السنة والجماعة أعلى الله منارهم، كما سيلي عند ذكره المنصوص في المسألة عن الإمام الأشعري ﷺ.

(٣) أي لا ينبغي تغيير نسق الكلام وتركيبه، لأن هذه الصفات الخبرية كالوجه واليد والعين لا تستخدم ألفاظها إلا كما جاء في النقل من كتاب أو حديث شريف، كي لا يظن ثبوتُ معنى لله زائد على ما أتت به هذه النقول الشريفة، فضلاً عن الاختلاف في معنى هذه النقول بين فرق المسلمين، وكون الراجح في ذلك هو تفويض معناها لعلم الله عز وجل وهو مذهب السلف.

كذلك قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ (طه: ٥) لا يغير بكلمات أخر، ولا يجوز التعبير عنه بالمعنى؛ بأن يذكر موضع اسم «الرحمن» اسمًا غيره، أو يعبر عن الاستواء بعبارة أخرى؛ فإن لله تعالى سرًّا في تخصيص اسمه الرحمن في هذا السياق وذكر الاستواء فلا يجوز أبدًا له بغيره. هذا على رأي من لم يُؤوِّل، والمسألة ذات غور بعيد وبسطها في غير هذا السياق والمقصود المثال[1].

أما قول الشيخ ﷺ: (وَعَيْنُ الله نَاظِرَةٌ إِلَيْنَا) فليس فيه تغيير ألفاظ التوقيف بل العين مذكورة في القرآن بصيغة الإضافة للضمير الدال على الله تعالى كما هي في هذا الكلام مضافة إلى اسم الله تعالى، ونسبة النظر إليها حق لا إشكال فيه، وإثبات صفة النظر بلفظ التوقيف[2]، ومعنى الصفةِ ثابتٌ بالسمع، فلا إشكال إذَنْ في شيء من ذلك.

وقد ثبت بالقواعد والعقائد والآيات والشواهد وحقائق الإيمان وقواطع البرهان وأنوار البصائر ومعرفة السرائر أنه تعالىٰ لا يغيب شيء عن نظره من حركات الظواهر وخفيات السرائر وتقلبات القلوب ومكنونات الغيوب ولحظات الأفكار وتوجهات الأسرار، وكيف يغيب شيء عن شهوده وهو الذي يمد كل موجود في كل نفس ببقائه ووجوده؟!

وقد قال بعض السلف لرجل وعظه: «إن كنت حال المعصية لا تعلم أنه يراك فقد كفرت[3]، وإن كنت تعلم أنه يراك فقد اجترأت».

---

(١) لو أفاض سيدي الشيخ داود ﷺ هنا لأعطانا زاداً علمياً وروحياً كبيراً، ولكن قدر الله تعالى وما شاء فعل سبحانه.

(٢) أي بنفس اللفظ الذي أوقفنا الله تعالى عليه وهو قوله تعالى: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ (طه: ٣٩).

(٣) ليس المقصود هنا مجرد العلم، لأن من جهل صفة من صفات الله تعالى لا يكون كافراً بل يكون

وكان بعض المشايخ يعظم مريدًا له ويقدمه على غيره فقيل له في ذلك فقال: «سأريكم لماذا أقدمه»، فأعطى لكل إنسان من أصحابه طائرًا، وكذلك المريد أيضًا ثم قال لكل منهم: «ليذبح كل منكم طائرَه حيث لا يراه أحد». فأما أولئك فذبحوا ما معهم، وأما ذاك المريد فلم يذبح طائره، فقال له: «لِمَ لَمْ تذبح كما ذبحوا؟» فقال: «قلت لي: اذبحه حيث لا يراك أحد. فلم أجد موضعًا إلا والله تعالى يراني فيه»، فقال لهم: «من أجل هذا أحببته وقدمته عليكم».

ولهذه الطائفةِ في علم المراقبة ومقامِه الاهتمامُ العظيم والمنهجُ المستقيم، وليس ذلك أنهم انفردوا باعتقاد ذلك، إذ كلُّ مؤمنٍ يجب عليه اعتقادُ ذلك؛ وإنما انفردوا بملاحظة قلوبهم بدوام هذا العلم[1] تأديبًا وسلوكًا في البدايات وتحققًا ويقينًا في النهايات، ولهذا إشارة لهذا المريد في هذه الحكاية لأنهم كُلَّهم لو سُئلوا عن ذلك لقالوا: «ما من موضع إلا والله تعالى يرانا فيه»، لكنه هو راعىٰ اعتقادَه وإيمانَه، وغيرُه غلب عليه غفلتُه ونسيانُه.

قوله: (بِحَول الله لا يُقْدَرُ عَلَيْنَا) كلمةٌ جليلةٌ في استدفاع ما يَرِدُ على العبد؛ فكأنه قال: «أدفع كل ما يرد عليَّ من سوء، وأَرُدُّ قدرةَ من أرادني بحول الله تعالى وقوته»[2].

وفي «حَول» لغتان: حَوْل، وحَيْل؛ فكأنَّ العبد إنما يُؤتى عليه من رجوعه إلى

عاصياً، بل المقصود الإقرار، فمتى رفض مسلم الإقرار بأن الله تعالى يراه فقد ادعى على الله النقص فيكون كافراً بناء على ما يلزم من قوله.

(١) أي انفردوا بدوام ملاحظة قلوبهم اطلاعَ الله عليهم وعلمه تعالى بهم ونظره إليهم وسمعه لهم.

(٢) أ: وقدرته.

حَولِ نفسه وردُّ(1) ما يخافه من بؤسٍ برجوعه إلى تقديره والتماس تدبيره فيترك لنفسه، فإذا رجع إلى الله تعالى شاهد عظيم لطفه وخفي تدبيره، وتبرأ من الحول والقوة بين يدَي مالكِ أمورِه أمدَّه الله تعالى بمعونته ودفع عنه المكروه بحوله وقوته، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ (الطلاق: ٣) أي: كافيه وحافظه.

وما بعد ذلك قرآن إلى قوله: (بِسمِ الله) يرجع إلى التفسير.

فقوله تعالى: (﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ۝٢٠ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾) (البروج: ٢٠ – ٢٢) آية عظيمة، وهي من الأمهات الخواتيم، ذكرها العارفون بالله تعالى وهي متضمنة علمًا عظيمًا، ولتلاوتها خصوصيةٌ في التحفظ لما تضمنته من ذكر القرآن المحفوظ واللوح المحفوظ، وقد قرئ «محفوظ» بالوجهين تنبيهًا على المعنيين، فهو صفة للقرآن على من قرأ بالرفع، وصفة للوح على قراءة الخفض، وقراءة الخفض أقوى؛ لأنها تتضمن المعنيين جميعًا، لأن القرآن في اللوح، واللوح محفوظ، والكائن في المحفوظ محفوظ.

وقوله تعالى: (﴿فِى لَوْحٍ﴾) يحتمل أن يكون الجار خبرًا عن القرآن و«هو» ضمير الشأن والجملة تفسيره، ويحتمل أن يكون مفسر الضمير مفهوم الخطاب، فكأنما قيل: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ (طه: ٢) أو ما تتلوه أو ما جئت به أو ما تنذرهم ﴿هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ ويكون الجار إذ ذاك صفة، أو متعلقًا بـ«مجيد».

---

(١) قوله: «ورد...» معطوف على قوله: «رجوعه».

قوله تعالى: (﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم ﴾) أي: غالب عليهم، وقهار عليهم، ومالك نواصيهم، ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴾ أي: عالم بهم من حيث لا يشعرون لأنهم لم يوجهوا قلوبهم إليه ولم يُقْبِلُوا بالطاعة عليه فولوا وجوه قلوبهم إلى غيره، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾ (هود: ٩٢) وهذا الاحتمال أقوى، والله تعالى أعلم.

و(المحيط) من أسمائه تعالى، إحاطةً تليق بجلاله، فهو المحيط بعلمه لكل معلوم بكل وجه واعتبار، وهو المحيط بقدرته على كل مقدور، وكذلك في عموم صفات التعلق[1]؛ فصفاته تعالى محيطة بكل ما تعلق به معنىً مما دل الاسم عليه، فهو تعالى عالم بكل ما يصح أن يكون معلومًا، قادر على كل ما يصح أن يكون مقدورًا، مريد لكل ما يصح أن يكون مرادًا؛ لثبوت الإحاطة في أوصافه تعالى، خلافًا لأهل الضلال والبدع المُخْرِجين بعض المعلومات[2] والمقدورات من الفلاسفة والمعتزلة[3] ﴿ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ (محمد: ١٦) ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ (محمد: ١٧).

---

(١) صفات التعلق هي الصفات الست: العلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام. فالأولى والسادسة تتعلقان بالواجب والجائز والمستحيل، والثانية والثالثة تتعلقان بالممكنات فقط، والرابعة والخامسة تتعلقان بكل الموجودات، أما الصفة التي لا تتعلق بشيء فهي صفة الحياة. فهذه هي صفات الله تعالى السبع التي هي أمهات الصفات الإلهية، وإليها تعود بقية الصفات كالرحمة والكرم والقهر والخلق والتصوير والحلم وغير ذلك. وهذا هو المعتمد من مذهب أهل السنة والجماعة السادة الأشاعرة. أما مذهب السادة الماتريدية أتباع الإمام أبي حنيفة فتزيد صفات التعلق صفة سابعة هي صفة التكوين، فيكون مجموع الصفات عندهم ثمانية.

(٢) في المخطوط: المخرجين من بعض المعلومات.

(٣) أما الفلاسفة فمشهور مذهبهم علمه تعالى بالكليات دون الجزئيات، وبه كفرهم الإمام الغزالي

و(المجيد) : الشريف، والمجد: الشرف، أي القرآن شريفٌ عليٌّ، وإنما نزله الله تعالى لعباده رحمةً لهم، وشفاءً لما في صدورهم، ووصَّلَه لفهومهم على حسب ما يطيقون، كما قال تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (الزخرف: ١ - ٤) فهو قرآن مجيدٌ مبينٌ عليٌّ حكيمٌ رحمةٌ وشفاءٌ، فمن أراد به السعادة وصل معناه إلى قلبه، ومن أراد به الشقاء صرف قلبه عن فَهْمِ آياته وتدبُّر خطابه وأنزله إلى أرض نفسه وهواه، فهو لا يصل إلى فهم القرآن ولا إلىٰ عَلِيِّ معناه؛ بل إنما يسمع ما هو حجة عليه محجوبًا عن نوره وهداه كما قال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ (فصلت: ٤٤) فإذا تلا المؤمن هذه الآية كفاه الله تعالى ببركة تلاوتها، لأن الله مولاه المحيط بكل شيء ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ (محمد: ١١). فالله تعالى حافظ لعبده المؤمن، دافع عنه ما يهمه في الدين والدنيا بعلمه وقدرته وملكه وإحاطته، وكذلك المؤمن محفوظ بالقرآن لأنه من أهله المؤمنين، والله تعالى ضمن حفظ القرآن، فكذلك يحفظ تَالِيَهُ القائمَ به، الذي مُزِجَ حُبُّ القرآن بلحمِهِ وَدَمِهِ.

وعلماء أهل السنة من بعده؛ وأما المعتزلة فقد أخرجوا أفعال العباد عما يقع بقدرة الله تعالى وقالوا: هي واقعة بقدرتهم الحادثة، فجعلوا مع الله خالقين آخرين كثيرين في الكون. بينما عقيدة أهل السنة أن الله تعالى يعلم كل شيء حتى مثاقيل الذر وعدد ذرات الرمل وعدد قطرات البحر؛ ومذهبهم كذلك أن كل فعل اكتسبه العبد فهو مخلوق لله عز وجل وليس للعبد منه إلا كسبه، والكسب نسبة هي تعلق القدرة الحادثة للعبد بالمقدور، دون أن يكون لهذه القدرة الحادثة المخلوقة دخلٌ في إيجاد نفس الفعل، بل يوجده الله تعالى.

وقد قال تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ﴾ (العنكبوت: ٤٩) فَصَدْرٌ فيه المحفوظ محفوظ؛ لأن جار العزيز لا يضام.

(﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (الأعراف: ١٩٦)) أي: إن الله يحفظني ويكلؤني بولايته إياي، الذي نزَّل عليَّ كتابه وجعلني من الصالحين، وذلك بعد قوله تعالى: ﴿ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ (هود: ٥٥) أي: قد تحصنت بحول الله تعالى وقوته من كيد كل كائد.

والولاية تكون بمعنيين:

أحدهما: أن يكون فَعِيل بمعنى فاعل ككريم وسخي، وبمعنىً مفعول كجريح ورهين، فإذا كان بمعنى فاعل: أي إن الله تعالى تولىٰ عبدَه فوفقَه لطاعته وحماه عن معصيته ومنَّ عليه بمعرفته وتولاه بهدايته.

وإن كان بمعنى مفعول فكأن العبد يتوجه إلى الله تعالى ويتولى امتثال أوامره واجتناب نواهيه والاشتغال بخدمته، أو بمعنى أنه وجه وجهة قلبه إليه وإلى معرفته ومحبته والشوق إلى لقائه وغير ذلك.

والآية بأتم معانيها وبأعلى مقام فيها منسوبةٌ إلى المعصوم الكريم والنبي العظيم ﷺ، ينال تاليها والمؤمن بما فيها من بركات المتابعة والاقتداء بالسنة على حسب قسمته من ولايته وعلوه في درجته وقربه بمتابعته من الحراسة والحفظ وولاية الله تعالى له ما بلغه من ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي: إن الله تعالى يحفظ الكتاب ومَنْ جاء به وأُنزِلَ عليه كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩)

فكأنما قيل: من نزَّلَ الذكر هو حافظه لأنه هو الحفيظ القدير الذي وعد بحفظ ما أنزله من كتابه، وكذلك يحفظ من أُنزل عليه، وكذلك يحفظ من انْتَمَى[1] بسببٍ صادقٍ إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٦) وعدٌ كريمٌ من الله تعالى بولاية عباده الصالحين في كل منزلة ومقام من الله تعالى، والصالحون من النبيين والمرسلين لهم ولاية من الله تعالى تخصهم وتليق بمنصبهم الكريم، والصالحون في رتبة الصديقية لهم ولاية تخصهم، وكذلك الشهادة والولاية والإيمان والإسلام، فلرتبة الصلاح نسبةٌ لكلِ مقامٍ على حسبِه؛ فقد ثبتت الولاية لعموم المؤمنين كل على حسب منزلته، كما[2] قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (البقرة: ٢٥٧) ويزداد ذلك بالذكر والنية والقصد والافتقار، وتُجمَع الأنوار إلى الأنوار. وافتقارِ القلوب موجبٌ لتنزُّلاتِ أنوارِ الغيوب.

قوله تعالى: (﴿حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (التوبة: ١٢٩)) آية عظمى من المحكمات الخواتيم، وقد تضمنت ذكر أربعة أسماء جليلة.

قوله تعالى: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي يقول العبد ذلك ويعتقد ذلك ويدين اللهَ تعالى به اقتداءً بنبيه ﷺ، وامتثالًا لأمر الله تعالى وتذكرًا لحقائق الأمور، وهي بعد قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ﴾ (التوبة: ١٢٩)، فهي بعد نسبةِ معناها له ﷺ على ما يليق بمقامه العلي؛ كأنما يقال للعبد: إذا نظرت بعين الإيمان فرأيت الأكوان آفلةً

(١) أ: انتهى.

(٢) ب: ثم.

زائلةً لا بقاء لها ولا دوام، منصرمةً بذواتها وصفاتها، فلا عز ولا غنى ولا قوة ولا نصر ولا ملك ولا نعيم ولا بقاء ولا وجود إلا وهو آفلٌ زائل، إلا ما حكم له الحق تعالى بالبقاء، وثبته بعد أن كان لولا ذلك معرضًا للفناء.

فلا شيء من الأشياء تركن النفس إليه وتقبل بالاعتماد عليه سوى الله تعالى، وإلا وسيف القهر يغلبه ورياح الفناء تذهبه وتعقبه؛ فكلما تولَّتْ الأكوان بشهود بصر الإيمان رجع العبد المؤمن مكتفيًا بمن له العز حقًّا والجبروت، ومتوكلًا على الحي الذي لا يموت، وقال إذ ذاك «حسبي»، أي الله كافٍ من كل سوء، ومطلوبي دون كل شيء، كما قال علي ﷺ لبعضهم: «عظني». قال: «يا أمير المؤمنين، إذا كان الله معك فمن تخاف؟» قال: «زدني»، قال: «إذا كان عليك فمن ترجو؟»، قال: «حسبي».

ثم حقَّقَ ذلك بيانًا وأكده بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وذلك نهاية في البيان، أي إذا كان لا إله إلا هو فلا كافيَ إلا هو.

وقوله: ﴿حَسْبِيَ﴾ أبلغ من قولك «كافٍ»؛ لأن الكافي يكفيك ما تحتاج إليه، والحسْبُ الذي لا يدع لك حاجة، وفيه منتهىٰ كل رغبة، ومنه يُسأل كُلُّ مطلب وما فوق ذلك.

قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ زيادة في الاكتفاء، وتعبُّدٌ للمولى، وانخلاعٌ عن رقِّ الدعوى؛ أي: أتوكل على مَن هذا وَصْفُهُ، وذا الملكُ ملكُه. وينبغي للعبد أن يعتمد ذلك بقلبه، ويعقد عَقْدَهُ؛ يوكل ويفوض بينه وبين ربه مقارنةً للفظه؛ فإذا فعل ذلك جاءته المعونة واللطف.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أي: العرش العظيم المحيط بالعوالم

الجسمانية، الذي السماوات السبع والأرضون السبع متلاشية في الكرسي، والكرسي وما فيه متلاشٍ فيه كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، فإذا نظر العبد في ذلك وعلم أن وجوده بالنسبة إلى هذه العوالم جزء يسير والله تعالى مدبر هذه العوالم وممسكها وممدها والقائم بأمرها والقيوم عليها وثق قلبُه بأن هذا المَلِك الكبير لا يعجزه شيء، وهو القائم بأمر كل شيء، وأنه على كل شيء قدير؛ فلا جرم فوض أمره لمولاه، وتوكل عليه فكفاه، والكلام في التفسير بحر من العلوم كبير، وليس هذا سياق بَسْطِهِ.

وقوله: (بِسْمِ اللهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) دعاءٌ جليلٌ مأثورٌ، عظيمُ النفع والبركة ينبغي للعبد أن يلازمه كل صباح ومساء؛ ثبت في الحديث الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «ما من عبد يقول في صباح كل يوم ومساء كل ليلة: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، ثلاث مرات؛ لم يضره شيء» رواه الترمذي في جامعه. وقال فيه: «حديث حسن غريب صحيح»، ورواه غيره[1].

وفيه أبان بن عثمان رواه عن عثمان بن عفان ﷺ ورواه أبو الزناد عن أبان، وكان أصاب أبان «فالج» فجعل الرجل ينظر إليه فقال أبان: «ما تنظر! أما إن

(١) حديث صحيح، أخرجه الترمذي (٥/ ٤٦٥، رقم ٣٣٨٨) وقال: «حسن صحيح غريب»، وأبو داود (٥٠٩٠)، وابن ماجه (٢/ ١٢٧٣، رقم ٣٨٦٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٦٠)، والطيالسي (ص ١٤، رقم ٧٩)، والحاكم (١/ ٦٩٥، رقم ١٨٩٥) وقال: «صحيح الإسناد». تنبيه: ورواية الترمذي بلفظ ما أورده المؤلف وهو قوله ﷺ «لم يضره شيء» بينما اللفظ المشروح بعد ذلك هو «فيضره شيء»، وهو رواية ابن ماجه.

الحديث كما حدثتك ولكن لم أقله يومئذ ليقضي[1] الله عليَّ قدره».

فانظر إلى عظيم قدر هذا الحديث، وجليل فائدته: أن يصان العبد ببركات ذكره من كل ضرر في الدين والدنيا لعموم قوله ﷺ: «لم يضره شيء» فيكون في صون ذكر الله تعالى وبركات كلام نبيه ﷺ، وذلك مع تحقيق الإيمان وتصديق القلب وقوة اليقين، فيصان العبد على حسب يقينه عند ذكره، ولن يعدِم العبدُ المؤمن خيرًا وإن نزل[2] مقامه عن الرتبة العليا لعموم بركات الكلام والذكر.

وقوله ﷺ: (فَيَضُرَّه شَيءٌ) عام في نفي الضرر مطلقًا، أي: لا يضره شيء، و«شيء» نكرة في سياق النفي تعم، وكذلك الفعل في سياق النفي عام، و«الفاء» جواب للنفي المتقدم، أي: الضرر منتف عند وجود القول، أي لا يجتمعان، فالوجه إذن نَصْبُ «فيضرَّه شيء»؛ لأن المعنى عليه، وهذا مثل ما ذكر سيبويه رحمه الله في الكتاب في مسألة (أَتَأتِينَا فَتُحَدِّثَنَا) على أحد وجهي النصب، واستشهد بقوله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ (فاطر: ٣٦).

وقوله ﷺ: «بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم»، يحتمل قوله «بسم الله» أربعةَ معانٍ:

أحدها: إما يكون قوله: «الله» مدلول الذات المعظمة، أي بسم ربنا تعالىٰ –

---

(١) كذا بالأصل، وعند الترمذي «ليمضي» وعند أبي داود بيان سببه، من قول أبان رحمه الله: «فقال له: ما لك تنظر إليَّ؟! فوالله ما كذبت على عثمان ولا كذب عثمان على النبي ﷺ ولكن اليوم الذي أصابني فيه ما أصابني غضبت فنسيت أن أقولها».

(٢) ب: بذل.

أيَّ اسم كان من أسمائه الحسنى- إذا ذكر كان رافعًا للضرر، ويكون قوله «هو السميع العليم» راجعًا إلى مدلول اسم الله.

الثاني: أن يكون بـ«اسم»، أي هذا الاسم الخاص الذي هو: «الله»؛ وخاصية الذكر تُحَصِّلُ[1] هذا النفع المقصود، فكأنه قال: بالاسم[2] الذي هو «الله» أحد الأسماء الحسنى. ويكون المضاف هاهنا هو المضاف إليه كقوله:

إلى الحول، ثم اسم السلام عليكما[3]

وكقوله: «باسم الله سيصوم» ويكون الضمير والصفتان عائدتان[4] إليه؛ على أن الاسم هو المسمى، ويجوز أن تكون عائدة إلى الله تعالى؛ لدلالة الكلام.

المعنى الثالث: أن يكون «باسم الله»، أي: أَذْكُرُ الاسم الذي يكون أثر الذكر به هذا وأنويه، وإن لم يكن مذكورًا، أي: باسم الله الذي هذا الأثر أثر الذكر به، لكن على هذا عين ذلك الاسم غير مذكور هنا، ويكون ﷺ استأثر بعلمه وعلم هذا الذكر فيحصل المقصود بما أخذ عنه ﷺ، وإن كان الذاكر لا يعلم عين ذلك الاسم كما يقول الإنسان: «أسألك باسمك العظيم»، وإن كان لا يعلم عينه كما جاء في الحديث المشهور: «**أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك**»[5]، فقد

---

(١) ب: يحصل.

(٢) ب: اسم.

(٣) البيت للبيد بن ربيعة وتمامه: وَمَنْ يَبْكِ حَوْلاً كاملاً فقدِ اعتذر

(٤) ب: عائدة.

(٥) صحيح، أخرجه أحمد (٤٣١٨)، والحاكم (١٨٧٧)، وابن حبان (٣/ ٢٥٣، رقم ٩٧٢)،

شرع السؤال بأسماء لا يُعلم ما هي.

المعنى الرابع: أن يكون الاسم هو «الله»، ولهذا الاسم خواصٌ عظمىٰ كبرىٰ عند الذاكر به، لكن على حسب حضور الذاكر وعلمه وجِهَةِ قلبه وتوجهه وقصده وقراءته بذكرٍ ما وأسماء خاصة، فتكون البركة والنفع على حسب ذلك.

والرسول ﷺ أطلعه الله تعالى على ما شاء من علمه، فإذا عَلِمَهُ ﷺ فله من النفع والبركة ما لا يطلع عموم العباد عليه، ليكون الاسم الذي هو الله إذا قرن بالاسمين الجليلين اللذين هما «الرحمن الرحيم» كان له ضروب من البركات والمثوبات والخيرات إلى ما لا يستطاع حصره، وكذلك عموم الأذكار والعبادات التي وفق الله تعالى عباده المؤمنين لفعلها أسرارها عظيمة، وخيرها وبركاتها جليلة كريمة، يقع الإيمان بالثواب عليها(1)، ولا يعلم حقيقة ذلك إلا الله تعالى.

وإذا قرن الاسم بما ذكره ﷺ من قوله: «بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء» بالاسمين العظيمين اللذين هما «السميع العليم» يكون للعبد الذاكر ما

والطبراني في الكبير (١٠٣٥٢)، وأبو يعلى (٥٢٩٧) قال الهيثمي (١٠/ ١٨٦): «رجاله رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني، وقد وثقه ابن حبان»، ولفظ الحديث: «مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وابْنُ عَبْدِكَ، وابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا، قَالَ: فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا نَتَعَلَّمُهَا؟ فَقَالَ: بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا».

(١) كذا بجميع الأصول، وهي إما أن تكون هكذا: «ينفع الإيمان بالثواب عليها»، أو تكون: «يصح الإيمان بالثواب عليها»، أو «يقع الثواب عليها بالإيمان» والأخير هو أضعف الاحتمالات. والله تعالى أعلم.

وعد ﷺ من ا ع والبركة إلى غير ذلك، وبسط شيء من ذلك مما يبدو من علم معاني الأسما الأذكار بحر عظيم وليس هذا محل ذكره، والمقصود التنبيه على فضيلة هذا ال ر.

فينبغي ال د المؤمن أن يلزم هذا الذكر مساءً وصباحًا كما ذكر ﷺ؛ ليحصل له هذه البرك عظيمة ودفع الضرر عنه، وله مع ذلك الثواب على الذكر مع حصول فائد لأن ذكر الله تعالى يُثاب العبد على فعله، وله أيضًا بركات متابعته ﷺ وامتثال ه، وكل ذلك خيرات من الله تعالى وفضل عظيم.

فقد رأيـ - رحمك الله وهداك- أن هذا الدعاء المبارك مشتمل على آيات كريمة من الـ ن، وأسماء جليلة لله تعالى، وأدعية مأثورة عنه ﷺ، وأدعية مباركة صحيحة المه لغةً وشرعًا، مجربة مباركة حسنة متلقاة عن الأكابر والأولياء مع اشتهاره وان ره وشهود العموم وجود بركته ونفعه، والمقصود حسن الظن بأولياء الله تـ ، وتلقي ما يرد عنهم بالقبول لاسيما إذا كان موافقًا للمعقول والمنقول.

وإذا عـ العبد بركة هذا الدعاء ونفعه وفوائده واستحضر ذلك عند ذكره وأحضر لذا قلبه فيزيد إن شاء الله تعالى عنه ذلك ثوابه وأجره، ويشرق في قلبه ضياؤه ونو جعلنا الله تعالى وإياكم ممن هُدي إلى صراط مستقيم، وثبتنا وإياكم على دينه الق م، وشرح صدورنا بمعرفته، وملأها بمحبته، وجعلنا من السعداء الفائزين، الـ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وجعل والنا وأفعالنا لوجهه الكريم، وسلمنا من اتباع الهوى والركون إلى

زينة الدنيا، وأعاذنا من الشيطان الرجيم إنه ولي ذلك والقادر عليه وهو السميع العليم.

ختام النسخة أ:

الحمد لله الذي منح أولياءه العارفين نور البصيرة، وهداهم إلى حقائق العوارف ففازوا بشهود حق اليقين قبل أن يصل سواهم إلى علم اليقين، والصلاة والسلام على عين الرحمة ورسول الحكمة وشفيع الأمة سيدنا محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ومن تبعهم

وبعد

فإن هذا الكتاب الجليل الذي شرح دعاء الشاذلية وأزال ما علق ببعض أذهان القاصرين من شبهات، فقد أمكن أن يرسم الخطة لكل مطلع على كلام العارفين بأن لا يأخذ الوهم منه على ظاهره، أو يبقى المشكل على أشكله، بل يؤوله بحسب نصوص الشرع الظاهرة ويرجعه إلى أصول الدين الحكيمة، وقواعده التي لا يأتيها الباطل من بيد يديها ولا من خلفها.

وهذا هو الذي جعلني أقوم بتصحيح هذا الكتاب وأعمل على شعره حتى يكون نموذجًا صالحًا يحتذ به المتطلعون في كتب التصوف وأقوال السالكين المرشدين فلا تستفزهم كلمات يسمعونها عن مشهوري الصلاح فيتعجلون بالإنكار دون أن يبحثوا وراء تأويلها ليعرفوا مبلغها من الصدق ومطابقة الحقيقة.

وأيضًا تعريف الخلق بعض ما وقف عليه السلف من بعض فوائد تترتب على قراءة آيات أو تضرع بدعوات فإن الناس كأنهم أضحوا على فترة من الرسل لا يألفون الروحانيات ولا يعرفون فوائد صدق الالتجاء إلى الله، وحسن التوكل

عليه، وطلب المعونة منه، فإذا وقفوا على ما وقف عليه الأولون، استراحوا له، واطمأنوا لما اطمأنوا إليه، فأعيد روحانيات شبابها، ورجع للطريق جدتها.

وأسأل الله أن ينفع به من يطلع عليه سواء كان من طلاب التصوف، وقراء الأوراد أو غيرهم وأن يجعله فتحًا جديدًا فيواصل بركات مؤلفه ابن ماخلا وشيخه أبي الحسن الأشعري ويكون مبعث رشد وهدى وصلاح آمين. محمود حسن ربيع المدرس بالمعهد الديني بالزقازيق

ختام النسخة ب:

وكان الفراغ من كتابة هذا الكتاب الجليل ضحوة يوم الثلاثاء تاسع شهر ربيع الثاني من شهور سنة اثنتين ومائة وألف على يد الفقير علي بن إبراهيم لطف الله به.

ختام النسخة ج:

ولنختم ذلك بأدعية مباركة من سادتنا ومشايخنا وأئمتنا رضي الله عنهم وأرضاهم وجعل الجنة محلهم ومثواهم وأسكنهم حظيرة قدسه ومتعهم بقربه وأنسه ووصل كلًا منهم منه إلى مطلوبه وسؤاله وجمع شمله بمحمد رسوله وجمعنا معهم في دار كرامته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في بحبوحة حضرته، وجعلنا من محبيهم وتابعيهم كما يحب ويرضى سالمين من الزيغ والزلل واتباع الهوى على الكتاب والسنة إنه سميع مجيب، وهو حسبنا ونعم الوكيل، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما أبدًا إلى يوم الدين والحمد لله.

مُحْتَوَيَاتُ الكِتَابِ